# الوَرْدة الملكيَّة

هشام بوطرفاس



قصص

دار البسمة
للنشر الالكتروني

# الوردة الملكية

اسم الكتاب: الوردة الملكية

اسم الكاتب: هشام بوطرفاس

نوع العمل: مجموعة قصصية

الرقم الدولي EBIN: 16-1-237-230527

الناشر: دار بسمة للنشر الإلكتروني

الطبعة الأولى: 2023م / 1444هـ

دار بسمة للنشر الإلكتروني

00212771814934

دار بسمة للنشر الإلكتروني (المغرب)

Basma24design@gmail.com

المملكة المغربية

دار بسمة للنشر الإلكتروني تُقدم جميع خدمات النشر، ولا تتحمّل أي مسؤولية تجاه المحتوى، إذ إن الكاتب وحده هو المسؤول عن نتاج فكره.. كما لا يجوز بأيّ صورة نشر أو إعادة طبع أي جزء من هَذَا الكتاب أو اختزان مادته بطريقة الاسترجاع، أو نقله عَلَى أي نحو كَانَ، أو بأيّ طريقة سواء كَانَت إلكترونية أو بالتصوير أو خلاف ذلك، إلاّ بموافقة خطية من الناشر أو المؤلف. ©

# الوَرْدَةُ الملَكيَّة

قصص

هشام بوطرفاس

# الدكتور مور

إذا ما قُيِّض لهذه القصة أن تقع بين يدي مخرج عبقري يقرر تحويلها إلى شريط سينمائي، فإنه سيعمل بكل ما أوتي من عبقرية وبراعة وحذق على إخراجها في صورة غريبة تشعل أفق المتفرج. ونحن نعرف ما يعنيه المخرج العبقري في خيالنا الشعبي، فهو ليس قبعة عادية على طاولة خشبية، ولا عشبة واضحة. إنه الرجل الغريب القريب في اندفاعه ونشازه من الجنون، ينقب بآلاتِ الحفر في الأرض وفي السماء وفي أي شبر ممكن عن جوهرة يتيمة. قد يتحرك بسرعة وجبينه يتصبب عرقا، وقد يتحرك ببطء يحركه تأمل عميق، هو في صميمه خلوة فنية، في حركية الكون. قد يضع قبعة تخفي صلعته التي قد تلمع تحت ضوء الشمس، وقد ينزعها بفعل ضغط العمل الذي يستمر لساعات متواصلة، أو بسبب التوتر الناجم عن علاقته المتشنجة مع العاملين والمساعدين، أو الممثلين الذين لا يلتزمون حرفيا بتوصياته وإرشاداته، فيصيح بهم واحدا واحدا، أن أحسنوا التفكير في مرايا أدواركم. عاملوا الدور الذي بين أيديكم كطفلكم المدلل الذي أنجبتهم بحب ورغبة، طفلكم الذي يسألكم الرأفة والعطف عليه! وفي خضم العمل الذي لا ينتهي، قد يتابع منفعلا: يا له من أداء بائس! أأغير الدور أم أغير الممثل أم أندب حظي الفني الذي لا يستقيم؟ يا لها من ورطة!

وقد يكون المخرج العبقري في خيال ثان من أخيلتنا العديدة التي لا تكف عن التلون والبهلوانية، قد يكون بصورة أخرى وبشكل آخر، فنجده من دون قبعة يضعها أو من غير صلعة يضطر إلى إخفائها عن الأعين، لكنه يمتلك ربطة عنق مزركشة أنيقة تثير الانتباه وتشد العيون إليه، يعدلها من حين إلى آخر، ويخفف من ضغطها حول عنقه. ينتقي الممثلين بحرفية عالية ولا يقبل من المرشحين إلا الموهوب منهم، من يستطيع أن يتقمص الدور تماما وبدرجة مقلقة تصل إلى الجنون، كأن يمثل الممثل دور قبعة في مشهد أو شجرة وحيدة!

قلت في البداية: إن هذه القصة إذا كتب لها أن تتحول إلى فيلم سينمائي على يد مخرج حاذق، فإن هذا الأخير سينتقي من المشاهد ما سيراه مناسبا، ويخدم أفقه بشكل براغماتي. سيشتغل على المشهد الأول بجهد، لأنه أول ما يصطدم به الجمهور، فإما أن يكون ناجحا في إثارة العواطف والنوازع والأفكار، أو يكون مشهدا فاشلا يثير كمية كبيرة من التثاؤب، فينصرف المتفرج غير آسف إلا على الوقت الذي أضاعه هدرا. سيشتغل المخرج بكامل عبقريته على المشهد الأول. سينظر إلى الشخصيات كمرايا متقابلة تتحرك فيها المشاعر، تضطرب وتتضارب. سينتقي مشهدا يمهد للقصة بسلاسة. والمخرج الغريب ذو القبعة أو بدونها، ذو الصلعة أو بدونها، لن يجد أفضل من مشهد: شاب تلقائي الأفق والحركات، ورجل ستيني يسافران على متن قطار، شاب أسمر البشرة ضيق العينين أسودهما، بنيته الضعيفة تجعله قابلا للتلاشي والاختفاء في أية لحظة، يرتدي عباءة بنية تشمل جسده الطويل، ويظهر من قلة كلماته وارتباكه أمام المناظر المتقلبة العشوائية التي تلوح من خلف نافذة القطار، أنه ريفي المنبت والأصل، لم يعتد كثيرا على التنقل عبر القاطرة، وأنه مقحم إقحاما في هذا السفر المجهول، أو أن السفر كان مفاجئا له كعاصفة ليلية في مناخ هادئ. أما الستيني فيجلس متأملا غيوما باهتة عالقة بالسماء تثير فيه فضولا انبعث كجمرة خرساء من تحت رماد نفسيته. وقد فكر في أن الفضول الغائم الذي راوده ما هو إلا نتيجة حنين متقطع إلى وطنه الأصل أو بيئته الأولى التي شهدت سنين طفولته وشهدت انطلاقه الصباحي الأول في الكون. ورغم أنه يرتدي ملابس عادية محلية، فملامح وجهه تكشفُ بجلاء أنه أجنبي. يبدو كنملة زرقاء تسعى في بيئة طينية أو بيئة غبارية. كان أزرق العينين بشرته بيضاء صافية كزبدة طرية تعتريها تجاعيد محتشمة تناسب عمره. وكان يصغي إلى محدثه الشاب ويرطن بكلمات فرنسية تبدو غريبة في السمع من قبيل: C’est bon..D’accord . ثم يكمل بكلمات عربية متعثرة ركيكة الحروف.

ولم يكن الستيني الذي أثار دهشة الركاب بكلماته الأجنبية أو عربيته الرديئة سوى الطبيب الفرنسي د. ألبير مور. قضى شطرا لا يستهان به من حياته في المغرب، بعد أن وفد على المنطقة إبان عام الجوع، العام الذي كان فيه المغربي البائس بجلبابه الغباري يشحذ الفتات في الأسواق الصفراء، ويأكل لحوم القطط النيئة، ويبيع أبناءه المساكين لقاء حفنة دقيق. كان مور ضمن الأطباء الذين استقدمتهم السلطات الفرنسية لمواجهة الظروف القاسية التي عرفتها البلاد، من خلال مساعدة المستوطنين الفرنسيين والسكان المحليين. ثم انتهى الاستعمار وذهبت رياحه البائسة؛ ففضل الطبيب المكوث بالمغرب بعد أن اختلط بأهله وناسه، وأنس بهم وأنسوا به، يقصدونه عندما تلم بهم الملمات أو تعترضهم الخطوب والأزمات.

اندمج الدكتور في المجتمع حد الذوبان والانصهار؛ وكان في اندماجه أشبه بقطعة ثلج وُضعت في دلو ماء ساخن سرعان ما انحلت واضمحلت. كان لا يجد حرجا ولا غضاضة في أن يستبدل لباسه الأوروبي الأنيق بجلباب وكوفية في الشتاء، وقد يذهب في اندماجه أبعد من ذلك، فيلف رأسه بعمامة رثة ويسوح في الأسواق الأسبوعية غير مبال. ولولا بشرته البيضاء وعيونه الزرقاء لظنه المرء مغربيا قحا ينحدر من جد أسطوري قديم يسكن الكهوف، ويمسك الوعل من قرنيه الصلبين.

ومما يشي باندماجه: عدم اكتفائه في مهنته بمبادئ الطب الحديث الذي تعلمه، بل زود خبرته الطبية بالاطلاع على الطب الشعبي. درس الأعشاب التي يستعملها أهل البلد. ولما أدرك فائدتها ونجاعتها أحيانا، لم يجد أي سوء في أن يصفها لمعتل أو مريض غير مكترث بالمعرفة الأكاديمية التي اكتسبها في جامعات باريس.

وإنَّ وجوده برفقة هذا الشاب القروي راجع إلى كون هذا الأخير قد قصده بسبب مصاب جلل وخطب عظيم أصاب بلدته (م). لقد زاره الشاب في الصباح الأغبر في فيلته

بضواحي فاس. كان صباحا غريبا حقا بطعم خبز يابس أو رغيف يتهافت عليه الشحاذون، لا تسمع فيه إلا أنة ريح متوجعة وخشخشة أوراق حزينة. ولم يخف على الطبيب الخبير المتمرس ارتباك الشاب وتردده وهو يلج غرفة مكتبه بعد أن صحبه حاجب الفيلا. كان منبهرا أمام غرفته الكبيرة التي جعل منها مختبرا طبيا يحوي مجلدات من الكتب والعديد من المخطوطات، ومعدات عديدة وأدوية مختلفة، وأعشاب طبية. وقد لاحظ الشاب أن الدكتور الفرنسي قد زين، بسبب تأثره بالثقافة المحلية، بعض الرفوف بحيوانات برية محنطة تطل من مكانها ذاهلة، وتجعل من الغرفة كهفا قديما أسطوريا، ومن صاحبها كاهن قبيلة بدائية مجللا بالحكمة والوقار السماوي.

وفهم من حديث الشاب المتقطع الذي تكسوه الأنفاس المضطربة والآمال المبللة بالريق، أن بلدته (م) قد اعتراها مرض مجهول لا يُعرف له منبع أو أصل أو طبيعة، جعل أهلها يشكون ليلا ونهارا ولا يمسكون عن الشكوى ولا عن البرم والتذمر. ثمة ضفدع أزرق لزج يجرح شعورهم بصفة متصلة غير مفهومة. خيمت التعاسة على الأفق وناءت الأشباح بالأثقال. وفهم أيضا من كلامه الشاحب أن أهل البلدة فكروا فيه منذ البداية، لأنه مشهور شهرة بلغت الأفاق، وذكره يجري على الألسن بحماسة. كانوا يسمونه بالدكتور أو "النصراني". ولحسن الحظ، حظه هو أو حظ البلدة، لم تعد هذه اللفظة "النصراني" مرعبة مقرفة تزعج النفوس كما كانت في السابق. لقد ذاع عنه من المآثر ما جعل ذكره جميلا، طيبا، مألوفا لا يثير حقدا ولا يستفز حفيظة. سيرته تتضمن عطفه وحدبه على الفقراء، وتتضمن دماثة طباعه وهدوء سلوكه. لقد تخلق بأخلاقهم، وبذل جهدا غير منكور في سبيل تعلم لغتهم العامية، واستطاع أن يحرز نجاحا ملحوظا مثيرا للإعجاب من خلال نطقه أخيرا حرف القاف الملتوي نطقا سليما لا تحريف فيه.

ومن الطرائف التي تروى عن تعلمه العامية أنه وجد صعوبة بالغة حتى ظن أن اكتساب هذه اللغة من المستحيلات التي لن يهزمها الأوروبي القادم من وراء البحر، فالعامية المغربية هي مزيج من العربية والأمازيغية. ثمة ألفاظ أمازيغية عُرّبت وألفاظ عربية مُرّغت، وبينهما وقف الطبيب حائرا مكتوف القوى والملكات، يتعلم لفظة فينطقها مشوهة ولا يجد سوى عاصفة من الضحك من السذج حوله، وقد قال حينها غاضبا:

– إن حرف القاف... هذا القاف سمكة عويصة الاصطياد مهما كنت لغويا محترفا.. وقد نطق القاف كافا. أو وقف في المنتصف بين القاف والكاف!

كان حسن، وهو اسم الشاب الجالس بجانب الدكتور، يختلس النظر من جليسه الغريب، ويعود إلى نفسه كأنه يحس بحرج ما. كان ينظر أيضا إلى المشاهد المتسارعة: الأشجار. المناخ التعب. الشمس المتعبة التي تتوارى خلف غيوم الشتاء. أكواخ الفلاحين، الصخور التي تتميز بنتوءات حادة. وينظر في نفس الوقت إلى وجوه المسافرين المتنوعة التي يبدو أنها مندهشة نوعا ما، وترغب في معرفة سبب تواجد شخص أجنبي متلفع بلباس مغربي بجوار شاب بلدي.

– لقد اجتمع الأهالي بعد أن أدركوا أن المرض المجهول قد توغل فيهم توغلا كبيرا وهم عزل مساكين في ساحة حرب لا حول لهم ولا قوة، وفكروا في الاستنجاد بك.

وعند هذه النقطة قال الدكتور مور متعجبا:

– آه.. d’accord. لم أكن أعرف أنني ذائع الصيت بهذا القدر. لكن كم هو جميل حقا أن يجد المرء نفسه شائع الوجود كطبق شعبي! إنني أفكر في أوضاعكم أيها المغاربة الأجلاء. الكثير منكم لا يعرفني شخصيا لكن تسمعون عني في حكاياتكم. كم الأمر جميل! أنتم أهلي، وما حكيته لي غريب ويثير فضولي كثيرا!

قال حسن مترددا:

–لقد اختاروني لمعرفتي المسبقة بالمدينة، ولأنني الوحيد الذي يعرف القراءة. درست في فاس لفترة، وعرفت أزقتها وأحياءها. لم أحرز تقدما يذكر، ولكن الأعور: ملك في مدينة العميان، كما يقال.

أحس الدكتور بنبرة الافتخار والاعتزاز تتخلل جمل الشاب المتقطعة، فلسان حاله: أنا الوحيد الجدير بتنفيذ المهمة في البلدة كلها. لا أحد يمكنه أن يبرح موطنه العزيز ويسافر ليقابل طبيبا أجنبيا مصحوبا بأحاسيس الحيطة والحذر. لقد لمس ألبير مور شجاعة الفتى التي بدت كنبتة خضراء في طور النمو. هو متعثر في نظراته الحيية وقليل الكلام، لكن خلف هذه النظرات المتعثرة تكمن ظلال صلابة وإرادة ما. وفحص مختلف الأمتعة الخاصة بالركاب المكومة في الأركان، وابتسم ابتسامة حانية وهو ينبس كلمته الفرنسية التي ترددت كلازمة: ..oui oui

والحق أن حسن كان راضيا بما حققه حتى الآن، أو كان أقرب إلى الرضا منه إلى شيء آخر. لكن رضاه لم يكن صافيا، صفاء يجعله مرتاح البال طيب الوقت، غارقا في السكينة، يتأمل سماء زرقاء لا غيمة فيها، فمازال شعوره غريبا عنه وعن عقله، يخالطه شيء من الارتباك والتعثر والحزن. يحس به المرء كثير الانشغال، مهموم الرؤى، دائم التفكير ببلدته، يفكر كيف توجعت قاطبة، وكيف لم تعد تعرف إلى الراحة سبيلا.

ويتذكر كيف اجتمع الناس بمقهى محمود الصغيرة. كانت شمس العصر مصفرة شاحبة وكأن بها مرضا أو علة؛ تنزوي كطفلة مصابة بالملاريا خلف غيمة ضئيلة. ومن وراء الفناجين أطلت الأعين الغائمة، والأفواه اليابسة توشوش. أكثر من صوت جأر بالشكوى. لم يسلم أحد من المعاناة بما في ذلك الأطفال. وشيخ الجامع نفسه وجد ضيقا في نفسيته. لم يتمسك كثيرا بالصبر كما عهد فيه، ولم يستكن لمشورة قلبه العامر بالإيمان. ترك الجامع إلى المقهى كالمهرول، بعد أن كان يرى فيها فقط مجلسا لإضاعة الوقت ومعاشرة الشيطان.

وبعد أخذ ورد بين الحاضرين أحدث جلبة وضوضاء، ورد اسم" النصراني" على الألسن واعترض الفقيه مقطبا على الاقتراح. كان المعترض الوحيد في القرية الذي وقف كباب حديدية لا تلين، ولا تستجيب لضربات فأس التغيير. استعاذ وحوقل كمن صادف شيطانا ماردا في قبو دامس، وأشار بثقة مؤمن قوي لا تقهره الوساوس الكثيرة أو تؤثر فيه الخطوب إلى أنه من العيب الاستعانة ب"نصراني" نجس في ورطة كهذه. وأراد أن يلقي عظته محذرا، لكن الأصوات الغاضبة التي أثقلها المرض واليأس غلبت صوته وحجبته تماما. ولم يجد أمامه من حل سوى أن يتراجع خطوة أو خطوتين إلى الوراء في اعتراضه، ويسلم أمره لخالقه، معتبرا الاستعانة المشبوهة من قبيل الضرورات التي تبيحها المحظورات، وأن الحل القبيح الذي يروج بينهم رواجا كبيرا، لا يخلو من قاعدة فقهية سليمة لا تختلف حولها عنزتان! وقال أخيرا محدقا في الوجوه الشاحبة:

–تذكروا أن الشافي هو الله.. ولكن ما دمتم بهذا العناد غير المبرر فسأقول في تسليم: لا بأس من الأخذ بالأسباب!

ثم صمت وهو كظيم، وارتفعت الأصوات تجادل مرة أخرى حول من سيقصد الطبيب. استغرق الجدال وقتا لا بأس به. كانت هناك أسماء من قبيل: سيمحمد وعلي والمختار.. . لكنها لم تصادف القبول والإجماع الضروري. بدت الأسماء كبالونات صغيرة شاحبة تطير في الهواء ولا تثير دهشة أو فتنة إلا في أنفس مقترحيها. ثم ردد أكثر من صوت:

– حسن.. حسن. هو حسن دون غيره.. !

وكان حسن المسكين النحيل الهزيل الذي يشبه عصفورا صغيرا فاجأته أشعة الفجر الطازجة أو زخات مطرية في عشه الهش، كان غائبا في ركن قصي لا ينتظر أن تشير إليه الأنامل، ولا أن تقترحه الأفواه المضطربة. كان يفكر في نفسه وما آلت إليه. أحس بغصة

عميقة تعترض ريقه. ألم. انحطَاط نفسي.. كان يتابع ما يحدث متلهفا ينتظر الفرج. أعضاؤه ليست على ما يرام. ثمة غيمة اندست في إحساسه وكدرت حاله ليحس مثلهم بحاجته الماسة إلى العلاج. ولكنه ظل صامتا، لا يتدخل بأية كلمة. استسلم للتعب وشَاركَ في الحديث بالصمت والانزواء.

متى تستعيد البلدة عافيتها؟ وسمع اسمه ينفجر في الهواء. ارتبك. قام من مقعده ببطء، وتطلع في حيرة إلى الوجوه المكسورة:

– نعم ..أنت يا حسن. ليس هناك شخص في البلدة أقدر منك على أداء المهمة. أرجوك لا ترفض طلبنا. إن الواحد منا، إذا قصد فاس الغريبة، سيتيه في شوارعها ويضيع. الأسماء السابقة لا تملك مثلك تجربة المدينة. هي قش لا يذكر أمام تجربتك. لا ترفض طلبنا المصحوب بالرجاء، فإننا أصحاب نساء وعيال. أنت المتعلم فينا. جربت فاس الكبيرة وعرفت دهاليزها حتى دخت..

ورغم أن معرفته بفاس لا تختلف عن تجربة طفل يلاعب أترابه في الأزقة، ويتلطخ بالوحل، معرفة لا ترقى إلى معرفة الخبير بالطرق والأحياء والشوارع كما يشيع إلا أنه صمت خجلا لا يعترض حتى بعيونه. كان قلبه واجفا كقلب أرنب تعرض في البراري لمطاردة قاسية، وأمام الأصوات المستغيثة والأعين الخائفة، أحنى رأسه مقتنعا مستسلما. راوده تخوف من خوض التجربة لكنه لملم أطراف شجاعته وقبل بالرحلة. ومع مرور الوقت استطاع أن يتخلص نوعا ما من التعثر، ونما في نفسه شعور غريب بالفخار. كان يكرر في نفسه تكرارا لا يمله أنه الوحيد الذي سيقابل "النصراني"، والوحيد الذي سيحج إلى فاس بحثا عن الدواء الفعال للورطة. وتخيل نفسه كالمنقذ أو المخلص الذي يظهر في الحكايات الشعبية القديمة لينقذ شعبا من المظلومين والمنكوبين.

وقال الدكتور وهو يشير إلى البيوت المتهالكة التي تقوم بحذاء السكة:

– لم يبق الكثير. مسافة نصف ساعة ونصل.

كان القطار يزدرد المسافة. أشجار قميئة تنتشر ثم تختفي، وكأنَّ حصَّادة ضخمة تبتلعها، وكان القطار يغص بأصوات المسافرين التي لا تنقضي أو تريم.

وقال حسن محتارا:

– أرجو أن ينتهي الأمر على ما يرام.. أنا متخوف.

ثم استرسل في الكلام كمن فكت عقدة لسانه:

– أتعرف يا دكتور؟ أرغب في أن أفضي إليك بشيء. ولست أدري أهو حقيقة أم مجرد وهم تقنع بالحقيقة. لقد أحسست بتحسن غريب بمجرد مغادرتي للبلدة. حتى أنا لم أكن بمعزل عن ضائقة البلدة. إني ابنها الوفي الذي يتألم لتألمها ويسعد لسعادتها. فكيف سأكون استثناء في مقبرة مظلمة؟! كانت أمعائي متورمة، والبؤس أناخ بكلكله على أنفاسي. شعور مقرف مؤلم ما شعرت به في البلدة، لكن بمجرد ما استنشقت هواء الفرار حتى أحسست بتحسن تدريجي. تحسن حقيقي لكن لا يخلو من غيمة. ما زالت آثار الانحطاط واضحة في حالتي. لكن أحسست بانفراج ما. وها هي مشاعر الوجوم تعود إلى روحي حثيثة الخطى. فهل سبب الداء المكان؟ البلدة أقصد. آه ..يا لها من مشاعر غريبة وكأنها مشاعر ليلية!

وأبدى الطبيب اهتماما بما قاله الشاب. لم يسمع بمثل هذه الأعراض ولم يقرأ عنها من قبل. مرض جماعي مخيف يصيب البلدة، تخف أعراضه أو يتهيأ للمريض أنها تخف بمجرد الابتعاد عن المكان الموبوء. يبدو المكان كبؤرة تجذب إليها الكائنات وتحقنها بسم غامض لا يمكن إدراك طبيعته. عنكبوت ضخم بجلود صلبة مصنوعة من نفايات الماء، ينسج خيوطه الزرقاء ولا يني عن اصطياد ما يجده من فرائس في القرب منه. وفكر الطبيب في أنه لو كان الأمر حقا كما وصف الشاب، فلماذا لا يشعر، هو نفسه، بأعراض المرض؟

لماذا لم يكتنف مشاعره تغير حاد، بعد أن اقترب من البلدة (م)؟ إن مشاعره، إلى حد الساعة مازالت كما هي، لا تغيير فيها. تبدو ثابتة مستقرة، إلا فيما يخص قلقه بسبب الموضوع المستجد، وهو قلق طبيعي صحي يعتري مشاعر أي شخص يقبل على مهمة جديدة. لكن ماذا لو أن المرض المخيف خاص فقط بالأهالي، أي بأصحاب المكان اللعين؟ آه .. إنه ينزلق نحو فرضيات مخيفة ستعمق قلقه. ربما كان الشاب يبالغ مبالغة واضحة فيما يحكي. ربما كان خائفا، وبسبب الخوف اختلطت عليه مشاعره، فلم يعد يميز بين العشب والثرى.

وتمتم حائرا:

– سنرى.. سنرى.

الوقت متورم كجثة عصفور في عش. طالع الدكتور شحوب المناخ. السماء تنذر بمطر قريب لكنه مطر غريب لا يشفي مرض الروح والنفس. بخل يعتري يد الطبيعة. إعياء رمادي. روح متخمة. كسل لا يسلم منه شيء، لا البشر ولا الشجر ولا الحجر.. المساء على الأبواب يستعد لينصب خيمته قرب البلدة. المساء رحالة أبدي يتنقل بين المجرات.

كانت كاميرا المخرج، التي ركزت في البداية على مشهد الشاب القروي والستيني، تعمل على نقل التفاصيل الصغيرة، كعيون الدكتور مور الزرقاء ووجل حسن الواضح، وفضول المسافرين الذي لم يفتر للحظة واحدة وهم يختلسون النظر إلى الرفيقين العجيبين، والمساء الذي يطرق الأبواب. وقد اهتمت الكاميرا المتحركة بهذه التفاصيل من غير بخل، لكن افتتاح الفيلم بهذا المشهد لم يرق كاتب القصة الذي يملك رؤية مغايرة تماما، فهو غير مقتنع بما ذهب إليه المخرج (ذو الصلعة أو بدونها) من افتتاح الفيلم بالشاب الريفي والدكتور الأجنبي. كاتب القصة العصبي جدا، والذي يقضي وقته في التدخين الشره والسهر المتواصل، الذي يمضغ الغيوم، ويعض حروف كلماته وكأنها لحم بقر، هذا الكاتب

الذي تعتريه حالات عصبية شديدة وأفكار غريبة، سيرفض رفضا قاطعا تناول القصة بهذه الطريقة الرثة، وسيمتعض من تصويرها على هذا النحو الفج. ولو حدث يوما وصادف المخرج في شارع ما، فلن يتردد في السخرية من رؤيته التي يجدها ساذجة بسيطة، وأقرب إلى خربشات الصبيان الذي يلعبون بزرقة السماء وبتبر الشمس. سيبدي لومه وعتابه الشديد على العبث الواضح في رؤية المخرج التي لا يمكن وصفها بالعبقرية. هي عبقرية مزعومة لا غير، وسيقترح خطة فنية جديدة لمعالجة القصة، كأن يتم التركيز في افتتاحية الفيلم على شخصية الإسكافي: محمد لحرش.

وكان الاسكافي في غرفته، عاكفا في الهزيع الأخير من الليل على إصلاح بعض الأحذية. كان يضع بعضها على طاولة خشبية ويستعين في عمله بمصباح الغاز المثبت على الحائط. لم يكن رائق المزاج تماما، شوش ذهنه حادث غريب حاول تناسيه ما أمكن، لكن الحادث العنيد كان يطفو سريعا على مياه ذاكرته. إن الحذاء يحتاج إلى نوع من التركيز أشبه بذلك التركيز الذي يتحلى به الصائغ المتمكن حين يدس ماسة ثمينة في فص خاتم، فالإسكافي مثله مثل الصائغ سواء بسواء، ينبغي أن يتحلى بقدرة عالية على التركيز حتى يتتبع آثار التآكل ويعالجه. لكن عينيه المتعبتين لم تستطيعا التركيز وتثبيت النظر على مكمن الثقب أو العطب. كان الصوت الغريب الذي داهمه في طريق عودته، يحفر في أعماقه حفرا مؤلما مخلفا إحساسا غريبا لا يمكن تجاهله أو دفنه في زاوية مهملة من النفس. ولو وجد حرمه الدقيقة الملاحظة والتي لا يغيب عنها شيء، لو وجدها مستيقظة، لكانت لاحظت بسهولة آثار الريبة والوسوسة على ملامحه الكليلة.

كان قبل هذا اليوم في سعادة تامة وغبطة لا حدود لها، يكاد يلمس النجوم بأنامله. كان ينظر إلى حياته العملية بعين الرضا. نجاح باهر. كسب غير منكور وتجارة لا تبور. تحسن وضعه المالي كثيرا كحال الكثيرين في بلدة (م). بلدة (م) التي كانت مجهولة فيما

مضى، وكانت أشبه بعشبة متآكلة في متناول قطعان الماعز، أو براز سريع في خريطة الوجود. عزلة واضحة تدمر كل شيء، ولم يصبح لها شأن إلا مع إنشاء السكة الحديدية التي انطلقت كأفعى سوداء بين الأعشاب والصخور. كانت محاولة شق خط سككي مشروعا قديما أو فكرة قديمة نبتت في ذهن السلطان عبد العزيز المتأثر بالنمط الأوروبي، والذي عرف عهده تسيبا ملحوظا لا يمكن التستر عليه أو إنكاره ولو من باب درء الفتنة. شاعت الأخبار الكثيرة حول ترفه ولهوه، وحول انبهاره الشديد بحضارة الأوروبيين، وما فكرة السكة والقطار إلا واحدة من الأفكار التي أقبلت هائجة فاتنة من وراء البحار، وشغلت كثيرا لبه. كانت الجلابيب المغربية تبحث لها عن موطئ قدم في العصر الحديث، تبحث بأية طريقة عن الالتحاق بركب الحضارة. ولكن كيف؟ العمامة المغربية التي تدثر الرأس الحليق لا يمكن أن تقارن بالقبعة الأوروبية التي تدل على التمدن وعلو الشأن. قرر السلطان عبد العزيز معززا بسلطته الجليلة أن ينفذ الخط السككي بين فاس ومكناس، ولو كلفه ذلك انحدار مهابته وتلطخ سمعته وسط العامة.

وكما كان منتظرا، فقراره هذا لم يقابل بالترحيب والإشادة، بل بالأصوات المتوترة الصاخبة التي ترى في التغيير وحشا يفتك بالسكينة. ثارت القبائل التي تقع على الشريط كعفاريت خرجت من قمقمها، وبدت القاطرة خرابا أجنبيا يلحق بالبلد وسلوكا أرعنَ غيرَ مسؤول من جنابه، لكن الفكرة التي تراجع عنها السلطان على مضض لم تمت فيما بعد. لقد عادت لتحيا من جديد وكأنها نبتة متينة الجذور لا يمكن أن تضمحل وتتلاشى. وسرعان ما عكف العمال بملابس رثة تحت شمس الظهيرة الملتهبة على تنفيذها. كانت تمتمات كثيرة تنبثق كالسعال من جلابيب مستعيذة من الشيطان الحديدي الذي سيشق الحقول لكنها تمتمات واهنة ضعيفة جدا لم تصمد أمام زحف التغيير، وذابت في ظلام النسيان.

تقع قرية (م) على مقربة من الخط الحديدي. استطاعت، بعد عقود، أن تعرف معنى الحياة وتتذوق النعم الكثيرة. استطاعت أن تقفز من وهدتها ويخرج أهلها من العدم كالنمل. كان مشهد القاطرة في البداية صادما، إذ كيف يجتمع قطار وبغل وكيف يختلط خوار ثور بصفير القاطرة؟ ثم أصبح من المألوف أن ترى القرويين يقفون بجوار السكة يفحصون ملامح المسافرين المتعبة التي تلوح من خلف نوافذ القطار.وتراهم يتهامسون ويبتسمون للمسافرين ببلاهة واضحة وكأنهم يسألونهم: ماذا رأيتهم بعد هذا السفر الطويل؟ ولماذا أنتم هكذا مهمومون بالأفق البعيد؟ والى أين تمضون؟ ومن أين أتيتم؟ ولم السهر يشوه جفونكم؟

كان لحرش يتلمس طريقه إلى مسكنه، مستعينا بإنارة المصابيح القليلة في الأزقة. بدا تعِبا من الشغل بالمحل لكن هذا التعب لم يكن يؤذي كيانه، فهو مألوف يشعره براحة غامضة أو لذة ملتبسة. كان يتمتع بعقل عملي يعادل بطارية تشتغل باستمرار، تمده بقوة وحيوية للتماسك والثبات، عقل تجاري يسبح في الأرباح المشرقة ولا يكف عن تقييم عائدات التجارة. كان يعتبر الناس مجرد أحذية، وقيمة الشخص لا تتحدد انطلاقا من قيمة الحذاء فقط، بل بما في الحذاء من ثقوب! كان قد دأب على مراقبة نعال الناس بعيون محترفة، يبحث عن ثقب أو تآكل محتمل يحتاج إلى الترقيع والإصلاح، حتى أصبح الجميع يمازحونه في مقهى محمود فيما يشبه السخرية.

قال له مسعود الفلاح ذات مساء:

–حذائي في صحة جيدة والحمد لله!

فضج الجمع بالضحك. وقال آخر:

– الإسكافي مثله مثل الطبيب الذي ينزعج برؤية الصحة ترفرف فوق رؤوس البشر!

النكات المتطايرة حوله كذرات الغبار لا تزعجه. يدرك تمام الإدراك أن عقله يسلك الطريق الصحيح في تقييم معنى الحياة. لولا يقظته التجارية لما تغير وضعه، ولظل مجرد

إسكافي حقير يتلقى نظرة شفقة وعطف. وهو يفضل أن يكون وليمة تنكيت وتهكم على أن يشار إليه بإشفاق، ذلك أن نظرة الإشفاق لا تخمد آثارها ولا تندمل جروحها. لقد استطاع، بفضل فطنته ومنهجه السديد هذا، أن ينمي مهاراته الحرفية، فلم يعد يصلح النعال فقط، بل صار يعيد صياغتها من البقايا والمخلفات.

ولأن البرد كاد يخرم هيكله وهو يعوج يسارا، لف معطفه فوق الجلباب بحركة مضطربة ملتمسا الدفء، وأتاه صوت غريب في نهاية الزقاق:

– يا محمد!

السماء غائمة. هواء يجرح. خال الصوت مجرد مقطع من حوار عابر ترامى من البيت المنزرع في نهاية الزقاق، لكن إضاءة البيت الغائبة التي تدل على غياب أصحابه جعلته يشك في الأمر، ويدرك أن النداء: سهم لا يتوجه إلى شخص غيره. واضح الأمر. اضطرب. تسمر في مكانه، ثم التفت إلى جهة الصوت. لم يجد سوى الغموض ينتشر كستار صلب يصعب اختراقه.

– يا لحرش.. ألا تسمع؟

ها وضح النداء! أراد أن يمضي لحال سبيله، إلا أن وضوح الصوت جعله يحجم ويلتفت متسائلا:

– من هناك؟

لم يجبه سوى الصمت، وأحس بضيق ممزوج بخوف ليصيح بعصبية واضحة:

–من هناك.؟. كفى مزاحا ثقيلا!

من المحتمل أن يكون المنادي فردا ماكرا من أفراد القرية، أتعبه الروتين ففكر في صياغة مقلب ليكون مادة دسمة في المقهى. ليس بالغر الساذج حتى ينطلي عليه مزاح سخيف كهذا. النداء مكشوف للغاية. لعبة سمجة من شخص بليد لا يتقن صنع المقالب.

وصمم على المضي غير آبه، لكن النداء عاد كالصرخة:

– يا محمد! ألا تسمع؟

والتفت مرة أخرى إلى الظلمة. حدق مليا علها تنسحب. ثمة ضوء مصباح ينبعث كليلا من نهاية الزقاق. كان في نحوله أقرب من ضوء نجمة فاترة. بدت شجرة دردار وحيدة تسند بيتا أو يسندها البيت، ينمو شبحها ويتسع أعلى، وقربها كومة رمادية غير واضحة الملامح. دنا أكثر متبينا، وشعر بالخوف والاضطراب. آه شخص يجلس أسفل الشجرة. الجبين الجاف متشح بالشحوب، والعينان تضيقان قليلا لتعبرا عن بؤس عميق. الشخص أشبه بشحاذ يلتصق بجذع الشجرة ويختفي في جلباب مظلم اللون. لا يعرفه. فكيف يعرف اسمه ببساطة؟.لا يبدو وجوده الحقير أسفل الشجرة مجرد صدفة بحتة. كان ينتظره انتظار من لا ييأس. كان يترقب موعد رجوعه ليجرحه بالنداء الضبابي.

وسأل لحرش بدهشة:

–تعرفني!؟

فأجاب الشحاذ بصوت حاد:

– كيف لا وأنت لحرش الإسكافي! تسلك نفس الطريق، لا تحيد يمينا أو يسارا. كنتَ قديما لا تختلف عني في شيء. شخصا تافها أقرب إلى الشحاذين. بالكاد تفوز بقوت يومك. أما الآن فقد تغير الحال، وأصبحت ترفل في بحبوحة. نفس الطريق تسلك لا تحيد عنه ونفس الوقت تلتزم به، كأنك طاحونة أزلية لا تتوقف. لم تسول لك نفسك يوما أن تلتفت إلى من بجوارك.

تعجب الاسكافي من إلمام الشحاذ بتفاصيل أحواله. خاف أن يظنه خائفا أو متوجسا. سأل بما يشبه الامتعاض:

– وماذا تريد؟

– إنني أعرفك أكثر مما تعرفك أنفاسك الجزعة! مرت سنوات ولم تسول لك نفسك أن تلتفت إلى شجرة الدردار في طريقك الرمادي..

كانت الشجرة تنساب أعلى بحرية، تتحرر من جذعها متشحة بالظلمة الخفيفة. أما أسفلها فكان يتصل اتصالا وثيقا بالشحاذ وكأنه جزء منه لا ينفصم.

ردد لحرش مرة أخرى كالمتضايق:

–ماذا تريد؟

– لا تلتفت إلا إلى الحذاء ولا ترى غيره! كأن ثمة مغناطيس يستقر في معدتك لا يجذبك إلا للأحذية. ما أتعسك من رجل! عيونك الجشعة تعبد الأقدام. لا ترى سوى الأحذية. تنقب كطير كاسر عن فريستك. ثقوب.. تآكل.. لكن ليس بوسعي أن أكون زبونا يقف أمام بابك ولو أردت ذلك. فماذا أنت فاعل؟

الشحوب يلتهمه التهاما. ود لو ينقض عليه في عزلته، وينتزعه من ملكوته المبهم. لم يسبق له أن رآه.. شحاذ كجرذ حمله القطار ذات صبيحة. يفترش الرغام ويشمله الجلباب القذر.. لكن كيف يحيط بكل شيء عنه؟ من أين حصل على كل هذه المعلومات التي لا يدري بها إلا فرد من القرية. عجيب!

وعندما كان لحرش يفكر في معنى كل هذا، ويحاول استعادة رباطة جأشه، أشار الشحاذ إلى قدميه موضحا، أو بالأحرى إلى مكان قدميه. انحسر الجلباب عن فراغ غريب. هو فراغ لا يعكس شيئا، لكنه يعج بما هو أكبر وأضخم من أي شيء في الوجود. تشوه صادم وضح له قليلا. رباه! لم تكن هناك قدمان. كان الشحاذ مبتور القدمين! وفهم ما قصده الرجل من كلامه. هاله الأمر. أحس بأفكار تنط في رأسه كضفادع في مستنقع آسن. فكر متشائما: ماذا لو أن زبناءه بدون أقدام؟ كيف ستسير أموره؟

وكأن الشحاذ قرأ ما يجول بذهنه، فكرره في أنين:

– يا لحرش! ماذا لو أن الزبناء جميعهم بدون أقدام؟

كان هذا آخر ما دار بينهما من حديث قبل أن يتبخر الرجل البائس. شملته ظلمة قاتمة ولم يعد له أثر.استغل ذهوله العميق أو شروده القريب من الغيبوبة وزحف مستعينا بذراعين قويتين متمرستين. أجل.هذا ما وقع بالضبط. الشحاذ المبتور القدمين محترف في الظهور والانسحاب. يعرف متى يظهر ومتى يختفي، وكيف ولمن يوجه لومه وتأنيبه. هكذا فسر لحرش الأمر. تسمر في مكانه يحدق في الشجرة الماثلة أمامه كسر. صدمه السؤال وخلف فيه أثرا عميقا. الشحاذ الذي اعترض سبيله. البؤس الأبدي الذي قد يتجسد في هيئة إنسان ليفتح عيونه على الحقيقة. لعن الشحاذ والتشويش الذي أحدثه. كادت الرغبة في السهر أن تنطفئ كنار واهنة، ولكنه عاد ليقول لنفسه: كلا!. ليس هو بالإنسان الضعيف الذي تؤثر فيه التفاهات. سينكب على عمله في البيت، ويكمل إصلاح الأحذية. لملم أطراف العزيمة. تذكر حالته المريحة وصفاء معيشته، وعكف على الأحذية يستمد من وفرتها القوة والبأس. ولم يستطع أن ينسى أو يتناسى الحادث تماما. نجح لفترة، ثم عاد إليه التشويش. كانت كلمات الشحاذ المنسحب تزوره،تخزه وتعيده إلى المشهد المتلفع بالظلمة الملتهبة. التركيز صخرة متآكلة. ضوء المصباح المثبت على الجدار يساهم في إثارة أعصابه عندما يغرز المخيط في جلد الحذاء. أين هو الخيال المشتعل الذي كان يثير حماسه بمجرد ما يفكر في حذاء متضرر؟ رمى الحذاء جانبا وقام إلى نافذة الغرفة. كانت مفتوحة تطل على زقاق. نور مصباح الزقاق بعيد يصل أثره نحيلا. كيف يكمل عمله وصدره يضيق ويطفح بالشكوى؟

قطط الليل غارقة في سكينتها، تتكوم في زاوية مستلذة باحتكاكها بالجدران. أما هو، الاسكافي الحاذق الذي قهر الظروف، فلا يجد مرقدا ينعم فيه بالسكينة. وعاد إلى مجلسه يفحص الأحذية ويجرب صلاحية مزاجه للعمل، لكنه تأفف وشرع يفكر. الهواء

مختلف الآن. ثمة شيء يجرحُ الهواء ويجعله دامي الملامح. يحس بذلك. يتنفس قاذورات تتسلل إلى رئتيه فيشعر بما يشبه الاختناق. ولم يستطع أن يلزم مكانه، فقام مرة أخرى في عصبية واضحة. تغير الهواء. تغيرت أشياء الغرفة. أصبح مشهدها يوحي بالقنوط. مزاجه يشهد انحدارا سريعا. زوجته في غرفة النوم لا تشعر بما يثقل عليه. ربما تنسج حلما طيبا ولا تدري شيئا عن الواقع المكلوم. بينما هو، مضطرب الأفكار والمشاعر غير قادر على النظر إلى الأحذية المكومة على طاولة. أصبح فجأة يعافها ويعاف حتى رائحتها. أ ينام؟ كيف لعقل منخور بالأسئلة أن ينام؟ شعر بمأزقه يتعمق ويأخذ أبعادا أخرى. كان الفضاء حوله يتبدل ويكتسي بقتامة لا يدري سببها. لم يجرب مثل هذا الشعور من قبل. الخراب يعم الأشياء. أراد أن يسترخي عله يغمض له جفن. توجه إلى الكنبة وسرح رجليه متكئا على نمرقة. طافت الصور في ذهنه كألسنة لهب حارقة فتقلب في مرقده. لم يدر كم مر عليه من الوقت. جثة تتقلب دون أن تجد راحة. تلون الهواء بشتى العذابات، و أصبحت منيته الوحيدة العزيزة أن يقنص غفوة تريح باله من التساؤلات المضنية. أيكون الشحاذ من فعل به الأفاعيل؟ كلامه القاسي جلد ضميره؟ إنه يتذكر كلام الشحاذ المحرج، ويفحصه حرفا بحرف، لكنه لا يجد له أثرا على نفسه، وكأنه قد تجاوز حادثة التأنيب الليلية التي عاشها إلى مستوى آخر ربما هو أسوا وأفظع. إن نفسه تشبه بحيرة فارغة من الماء ولو ألقى أحدهم حجرا فيها لما أحدث صوتا.

ولم يدر إلا وصياح الديك يقرع أذنيه، فتحسس جسده المنهك ليدرك انه نسي أن يدثر نفسه في ليلة باردة. لكن ما حاجته إلى دثار غليظ وجسده أشبه بجسد المحموم يطفح حرارة؟! لم ينم. أكيد لم تسرقه غفوة. ظل يدور في حلقة أفكاره المفرغة يقطف شوك الهواجس بأيد دامية. وشعر بالإعياء يستولي على جميع أعضائه وكأنه قضى الليل في مصارعة وحش خارق لا يقهر. وترامى إليه صياح الديكة مرة أخرى. نضحت النافذة

بخيوط الفجر الأولى فقام يطفئ المصباح الغازي بنرفزة. بات يتنقل بين الأشواك إذن. طوال الليل يتنقل بين الأشواك. سيغادر البيت في غير ما أسف وستتساءل المرأة عن سبب مغادرته المبكرة على غير العادة. فلتتساءل كما يحلو لها. الخواء يتسلل. الوجود برمته يبدو كفتات خبز عالق بمنقار طائر.

ومقهى محمود تستقبل مبكرا أفواج الفلاحين والعمال والحرفيين وأصحاب الأعمال الحرة. تفتح أبوابها لأفراد نهمين لا يردهم عن غايتهم شيء. تردد لحرش في زيارتها مخافة أن يثير ريبة روادها الصباحيين لكن حالته المقلقة أجبرته على أن يتخلى عن كل حساباته. ولف جاكتته حول الجلباب وهو يحس بالتيار الهوائي البارد يلطم وجهه. في المقهى حدث عكس ما خافه أو توجس منه. لم ينتبه أحد لقدومه. كانت الوجوه واجمة تكسوها قتامة وكأنها في مأتم. وكان صاحب المقهى يجلس على الكرسي كسيرا. بدا كمن استقال من عمله، وترك المقهى خلفه كأرملة تبكي بحرقة. كانت همهمات تسري في الجو خافتة وكانت أقرب إلى الضحكات المكتومة. كانت الأعين تتطلع إلى الفراغ مأخوذة بسحر لا يقاوم. نقطة ما تشد الانتباه. وأحس لحرش كما لو أن هواجسه المنغصة للمزاج قد سبقته إلى المقهى ووسمت المكان بكدرها. وجوم قاتل. جماعات تلوذ بالكراسي كحضن شائك. حتى العصافير التي كان من المنتظر أن تثير جلبة في الحقول المجاورة، لم يصدر عنها شيء. ابتلعت صخبها وألوانها ولاذت بالسكون.

أحقيقة ما يرى أم أن المشهد مجرد امتداد سيء لخواطره الباهتة؟ وما هو في هذه اللحظة إلا كسائح نفسي يغلبه الفضول الشديد لمعرفة آباره الداخلية، فيجول في عواطفه يكتشفها ويتفقد سحبها. أخذ مقعدا غير بعيد من الجماعة المشغولة بكربها، واستند على الطاولة بمرفقيه محملقا فيما حوله. ندت عن الحاضرين جلبة. كانت في البداية خافتة ثم

علت، شقت الصمت كوباء جهنمي. كانت الأصوات جميعها تشكو من حشرجة. ألم. نفور. تباطؤ. مقت. فيضان أسود. أكثر من صوت صاح متسائلا بلكنة قروية:

–ما هذا؟ لم نخبر مثل هذا من قبل. إن الشجر نفسه يعاني من شقوق. أحسني أتقيأ أمعائي. كانت حليمة أول من أحس بالبلاء. صرخت ثم سقطت مغمى عليها في الحوش. لم يستطع أن يتكون الصوت في حنجرتي. بالكاد صنعت صوتا، ولم يختلف كثيرا عن أنين شفرة حلاقة. حتى المواشي بدت متعبة. أفقت صباحا. بدت وكأنها ضجرة من عويل القطار الصباحي. انه المأتم الأبدي. هل مات شخص؟ لو مات لرأينا النعش يتهادى على الأكتاف الصلبة. لم تكن الغربان تستلذ المكوث بشجرة الدردار فماذا حدث؟ لا معدة لي للفطور. إن معدتي مقبرة لفظت جثثا نتنة... إلخ .إلخ.

أراد لحرش أن يشارك في الحديث بصيحة يقذف من خلالها حممه السوداء. كاد يتكلم عن مصابه، كاد يصرخ أنه لا يقل عنهم خرابا، وأن الخراب واحد وربما هو نفسه سبقه إلى المقهى. كاد يخبرهم عن واقعة الليل وحديث الشحاذ الرمادي وانسحابه السريع والغريب، إلا انه تراجع منكفئا على نفسه، خائفا أن يظنوا به العته. هو إحساس عام كما يظهر. ينتشر في كل روح وكل نفس ولا يستثني أحدا. الجميع يشكو ولا يعرف العلة والسبب. إن الفلاح والنجار والجزار وصاحب المقهى و..و.. كل هؤلاء ينعقون!

وقد ظل القوم في شكوى لا يتعبون منها ولا يكلون، وكانت الشكاة كسيل ناري لا يخمد. والتحق حرفيون ومزارعون آخرون بالمقهى لتكبر وتتوسع رقعة الألم. كانت الشمس قد ألقت أشعة باردة وكشفت مساحات الحقول الكبيرة، وترامت أصوات النساء من الأبنية المجاورة تؤكد بالملموس أنهن لم يسلمن أيضا من لعنة الطبيعة والسماء.

كان لحرش لا يزال متكئا على الطاولة بمرفقيه يحدق واجما، عندما دخل رجل متقدم السن واهن الظل تسمر مندهشا مما يرى، وكأنه يدخل المكان لأول مرة أو انقطع عنه

لوقت طويل حتى نسي معالمه. كان ينقل بصره بين الوجوه المتعبة. وما إن رأته الجموع المكدودة حتى تعجبت من قدومه، لأنه ليس من ديدنه ولا من عادته. وبسبب عمق المصاب وعمق الخوف تركت الجموع الدهشة جانبا وصاحت مستغيثة:

– أغثنا يا سيدنا الشيخ!

–أغثنا يا سي الفقيه!

كان الفقيه قد أحس ضيقا في صدره بعد صلاة الفجر. وجد غيابا ملحوظا في صفوف المصلين. ومثل طبيب يتفقد مرضاه المتغيبين عن الموعد، انزعج كثيرا من هذا الكسل الجديد الذي لم يعهده. هم قلة فقط من توجهوا إلى الجامع هربا من كرب لا فكاك منه، وظاهر أنهم لموا جلابيبهم الشتوية بصعوبة بالغة، وانطلقوا نحو الجامع طلبا للعزاء والشفاء من شيء مجهول يطاردهم أو ينخر عظامهم بلا رحمة.

مرت الصلاة بطيئة بلا طعم، كحساء فاسد أو كصخرة سيزيفية ترتفع إلى السماء وتتدحرج مرة أخرى كاشفة عن مجهول مخيف. لقد بذل الفقيه ما في وسعه ليعرف الحاضرين على أهمية الإيمان وأسراره، كما عمل على غسل ضمائرهم بالأدعية والأذكار، وكان يحاول أن يلمس أثر الصلاة على قلوبهم، لكن الوجوه البائسة التي لم يستمع أصحابها إلى الوعظ الإيماني بالخشوع المطلوب، واصلت الوجوم وانتظرت انتهاء الصلاة والأدعية بفارغ الصبر لتنطلق كالأشباح المعذبة إلى مصيرها، تنوء بحمل لا يطاق.

كانت أشباحهم تتساقط وكأنها تعاف أجسادهم النتنة. بدوا كسجناء مكسوري الخاطر والروح يشكون غلظة الأصفاد والقيود، ويقتحمون الطرق الرمادية التي تقودهم إلى زنازين السجن المظلمة. وأحس الفقيه، بعد انصرافهم، بالعزلة التامة تحاصره، وأحس بسحاب في الروح. لاحظ أن الصبح كان أبطأ مما كان. حركته بطيئة وهو يتسلق التلال ويشق الضيعات القريبة. وخرج في نزهته المبكرة التي تتلو كل صلاة يبحث عن الصفاء

الذي فقده، فوجد للأسف ما لا يسر وما يؤكد الهواجس. صادف بعض النسوة اللواتي خرجن على غير العادة إلى الممرات الضئيلة، وجلسن يثرثرن ثرثرة مشوبة بالأنين والشكوى، واستعاذ من الشيطان وشروره متسائلا: هل ولت السكينة؟ هل الإنسان مقبل على البلاء؟ ثم لم يستطع صبرا أمام الجو المشحون، فهرول مكرها إلى المقهى عله يظفر بحقيقة ما يجري. ولم يخطئ ظنه فبمجرد ما ولج المكان حتى استقبلته استغاثات من شيء مجهول. أفواه جافة. وجوه حزينة تعكس ألما كبيرا. ظلال متعبة، جفونها أشبه بخطوط باهتة رسمها الأرق.

وصاح بصوته الجهوري:

– استعيذوا من الشيطان ولا تيأسوا!

لم يصمتوا. الكرب أعمق وأخطر. تطورت الصيحات المتشنجة. لم يستطع الفقيه أن يلجم الأصوات التي تتلمس حلا. لقد أدرك أن الجموع انتهت إلى الهاوية. إنها يائسة ولا تجد حرجا في الاستغاثة بالشيطان. وهذا ما لمسه عندما لفظ أحدهم اسم الطبيب النصراني: ألبير مور!

أحس بالاسم كلدغة ثعبان خفي يرقص خلف الأعشاب، واستعاذ من الاقتراح أمام الأفواه الغاضبة والأنفس الضعيفة، وأوضح قائلا:

–انه فرنسي لا يقل خبثا عن أهله. أنسيتم ما فعلته فرنسا بالأجداد والآباء؟

على أنه لم يجد إلا الآذان الصماء. لا أحد التفت إلى اعتراضه. كان واقفا ينقل بصره هنا وهناك فأحس بصوته يضيع كضياع إبرة في نهر جارف. وطفا اقتراح آخر يرشح الشاب حسن للمهمة. ود لو أن حسن العاقل يواجه اقتراحهم بالرفض ويوجههم إلى سبيل آخر غير ما قالوه، لكن يبدو أن الأصوات، الأعين، السواعد كلها تهب وتنتفض من أجل هدف واحد: استدعاء الدكتور مور.

وصاح الفقيه مقاوما القرار:

-لقد عرف أجدادنا ما هو أمر وأدهى من هذا: حروب. مجاعات وأوبئة، لكن لم يصل بهم الأمر إلى اليأس والتهور مثلكم.

وقال صوت مدافعا:

-يا شيخ! ليتك تعرف أن خرابنا أمرٌ مما تقول. إن أفواهنا لا تجد إلا اللعاب المرير.

وقال آخر:

-يبدو أنك لا تحس بما يجري. إننا جثث. أتعرف معنى أن يكون المرء جثة وبه نفس؟

وعى ما يسمع. صدى في جب عميق ما يسمع. هو نفسه ليس بمنجى مما يحدث مهما حاول أن يدعي العكس. هو أيضا في ورطة تتضح ملامحها رويدا رويدا. ولعل قائل العبارة الأخيرة محق فيما ذهب إليه. إن الهواء نفسه لم يعد كما كان. أصبح غامضا جدا، وهؤلاء الضعفاء لا يملكون حيلة أمام ما يعيشون. الإنسان أشبه بجثة ولا ينقصها إلا قبر تختبئ فيه. قبر يخمدها تماما. وحسن نفسه لا يقوى على المجابهة والمواجهة والرفض. هو فتى ذكي نبيه ومتعلم لكنه خجول يكاد يختفي في ثيابه كالعذراء، ولا يملك من الجسارة والقوة لرد اقتراح الغاضبين. وهاهي الأصوات تحاصره حصارا خانقا وتلتمس منه الاستجابة. وماذا بوسع المسكين أن يفعل أمام الأنين المتصاعد والأنفس الجريحة؟ إن رؤية وجه حزين يثير كآبة رمادية في الروح ولا مفر من الاستعانة بال"نصراني".

الشتاء الشاحب المكوم كطفل خلف نوافذ القطار مشهد يثير الحزن. كان الدكتور مور يعجب من تلك السحب القليلة التي تركض غير آبهة بمشاغل الدنيا وبأنين أهل الأرض. سيزور بلدة (م) في مهمة مستعجلة، ولم يفضل من الوقت سوى دقائق معدودة ستنقضي سريعا. كانت أشجار الزيتون تتناسل مبشرة بالدنو من تجمع بشري ينتصب في الفراغ كخيمة رثة أنهكتها الريح.

وقال حسن وهو يتنهد:

– وصلنا.

خمدت أنة القطار، واستجمع الدكتور جسده الستيني نافضا عنه آثار الكسل، والتقط حقيبته الجلدية بخفة تدل على تحمسه واستعداده للعمل. وعندما نزلا من القطار، وجدا أنفسهما في محطة صغيرة ثانوية لا تتوفر إلا على جدار ممتلئ بثقوب. جدار متهالك كشيخ يكاد يصيح مشتكيا من الإهمال ومن وهن وجوده. واندهش الدكتور عندما وجد جحافل بشرية قي الانتظار تترقب قدومه، وكأنها في استقبال رسمي لشخصية من الشخصيات السياسية أو العسكرية. وجوه عديدة ومختلفة تنظر في لهفة. كانت الجلابيب بنية أو سوداء في الغالب، وفي هوامش الاستقبال لاحت النسوة بصحبة الأطفال، بعضهن سافر، وبعضهن الآخر لا تظهر منه إلا العيون. عيون مستنجدة تطل من وراء البراقع أشبه بعيون القطط التي تبيت في العراء يداهمها البرد والجوع. تذكر الطبيب في تلك اللحظة القطط البائسة التي تتسلل إلى حديقة فيلته طلبا للدفء والمأوى والمأكل. إن عيون القطط تكشف بشكل لا لبس فيه أن ثمة علاقة بين الروح الإنساني والروح الحيواني مهما باعدت بين الصنفين الفروق. عيون القطط المشردة هي ترجمة سريعة للبؤس الإنساني، قال لنفسه يفكر.

كان المشهد كئيبا جدا أشعره بالألم. وحين عبر بينهم سمع وشوشات تشير إليه. تحايا متعبة تسيل أو تنهمر عليه مستنجدة. لم يجد في جعبته سوى كلمات قليلة وعملية تزرع طمأنة في النفوس الكليلة. كان يعبر بينهم وهو يهمس:

–غدا سيتم الفحص. خيرا تلقون!

ويبتسم رغم معرفته الأكيدة أن البسمة في مثل هذه الظروف ليست بالبلسم الشافي. وقبل أن ينفض جمع القرويين، استقر رأيهم على أن يقضي الدكتور ليلته في بيت الاسكافي.

وهو قرار رحب به هذا الأخير كثيرا، وظنه هبة سماوية من الله الذي يعلم عمق حالته المزرية، وعمق معاناته. لم يكن التوصل للاتفاق بسيطا وسهلا كالعادة. جميعهم رغبوا في الحصول على الفحص الأول والعلاج الأول، ولن يحقق الواحد منهم رغبته القوية هذه إلا إذا نزل الطبيب ضيفا على بيته. وأمام الإصرار الذي لا يلين، اهتدوا إلى طريقة فعالة مرضية لحل الخلاف من خلال ترشيح بيت لحرش بسبب موقعه الجيد. موقع ملائم سيسهل مهمة الدكتور في التنقل بين البيوت المختلفة لمعاينة المرضى.

ووقف ألبير مور على أخبار البلدة في تلك الليلة الشاحبة التي قضاها بمنزل لحرش. كان المنزل نظيفا يوحي بيسر الحال ونجاح الرجل في حرفته. كانت رائحة الجلد تتسلل خفيفة في الهواء، مما يدل على وجود غرفة خاصة بالحرفة؛ يأوي إليها الإسكافي ليكمل أشغاله المتبقية. وعندما جلس في غرفة الجلوس الواسعة والمزودة بفرن مشتعل ومصباح عتيق، انتهت إليه كلمات الإسكافي وهو يكلم زوجه في غرفة أخرى. لم يعرف محتوى الحوار بينهما، بيد أن صوت المرأة الممزق كشف عن شكوى واضحة تؤكد الإصابة بالمرض الجماعي الفظيع. ودخل عليه الإسكافي وهو يبالغ في الترحاب المتوعك، ويتكلم كمعتذر خجول ارتكب زلة ويسأل المغفرة.

النار في الموقد. الريح قاسية نوعا ما تهدد المستهينين بها. انخرط الطبيب في حوار مع لحرش. كان يصغي طويلا، وقليلا ما يعترض. مثَّل دوره بشكل دقيق منذ أن حط رحاله بهذا البيت. دوره مثل دور النملة والفراشة والعشب الذي يلبد صامتا يحاور قطرات الندى. عليه أن يصغي ما أمكن حتى يفهم ما يجري. تناول العشاء بهدوء. احتسى الشاي. تحسس حقيبته الطبية وحرك جفنيه باهتمام، وكان القلق يسيطر على الإسكافي كسحابة، لم يستطع أن يخفي هواجسه الكثيرة. وبعد تردد سرد حكايته مع الشحاذ. لقد أصغى الطبيب إلى تفاصيل الحكاية متعجبا، وسأله:

–وما علاقة ذلك بما تشعرون به؟

احتار لحرش كأنه يبحث عن رابط منطقي بين الإعياء الذي ينخر الكون وكلمات الشحاذ ولما لم يجد رابطا قال:

.–لقد شعرت بتغير شامل غب اللقاء

–وماذا عن الآخرين؟ هب الأمر صحيح ماذا عن باقي الناس؟

أحس لحرش بفخ التناقض يغمز بوقاحة من زاوية مظلمة، لكنه لم يستسلم لوجاهة الانتقاد بل لم يعترف حتى به. هز رأسه في عناد مدافعا، وتذكر أن اللعنة لا شأن لها بالمنطق والتفكير السليم. قد تحل اللعنة بمكان ما بسبب شخص غريب. هي لوثة غريبة يمكن أن تقع بدون مقدمة أو تبرير. واسترجع الحكايات التي سمعها في صباه، حكايات تعج بمثل هذه المعالجة المتسرعة للكون، بهذا المنطق المفكك وهذا النوع من التفكير المتهافت. العقل أحيانا يغدو كذبابة علقت بنسيج عنكبوت ماكرة.

–أتذكر أن السماء أمطرت ضفادع في القديم بسبب اللعنة. لقد شهد الناس ذلك بأم أعينهم. لا تجد رجلا طاعنا في السن في البلدة ولا يذكر ذلك بقلب مؤمن لا يتسرب إليه الشك!

وسرح الدكتور بخياله، وهو يسمع هذه الجملة الطويلة الطافحة بشذا عتيق. الأمر مثل مشهد من مشاهد الكتاب المقدس، حيث العقاب الإلهي يطال البشر بجميع أصنافهم. كانت أورشليم خربة في ذهنه خرابا مهولا. سمع عنها مبكرا في طفولته من خلال كنيسة الأب فرنسيس جيران في قريته. أمه المؤمنة إيمانا لا يشوبه شك تصحبه في صباحات الأحد المبتلة. لا تزال رائحة الكنيسة عالقة إلى حدود الآن بقماش ذاكرته، ويكاد يستشعرها بجميع تفاصيلها وكأنه قد زارها فقط الأحد المنصرم. يا له من زمن ويا لها من ذكرى! هكذا تعلق بقع الزيت وآثار التبن بثوب الفلاحة القروية. على صفحات الكتاب

المقدس تتوالى مشاهد جليلة لمدينة الرب، ولحسن الحظ لم تقضم الفئران قماش ذاكرته وإلا ما استطاع أن يتذكر الأجواء الطفولية الغنية بالأساطير! كان القس بلباسه الديني الأبيض يتحدث من فوق منبره بإسهاب ببغائي عن أورشليم وعن الخراب الذي حاق بها، وهو خراب فظيع لا مثيل له. كان صوته الغليظ مهيبا يحدث وقعا كبيرا على القلوب المؤمنة. لم يكن يستوعب، لحداثة سنه، تماما ما يروى لكنه كان يتصرف كنملة مجدة تجمع القوت بحماس. كان يسأل ويستفسر ويستعين بقنديل أمه المؤمنة الذي لا ينضب. كانت توضح له بصبر ما يقول القس وتعيد سرده في المساءات بطريقة رائعة تثير الإعجاب. كان بمقدوره أن يصغي إلى الشروح الجميلة متخيلا أجواء أورشليم في ذلك العصر الغابر. واستطاع بخيال متوقد أن يركب صورا فاتنة لفتيات المدينة المقدسة، أن يتصور لون بشرتهن الذي لا يختلف في شيء عن لون التفاح الأصفر في الحقول. كان قد سمع عن خروجهن، غب فترة الخراب، إلى العتبات يرثين السماء وينخرطن في بكاء ليلي كتعويذة حزينة تقدم إلى القمر الأصفر. فكر باسما وهو يتذكر هذه التفاصيل الصفراء جدا التي انطبعت في وجدانه كضوء مصباح ضئيل: هل تكون البلدة (م) أورشليم المغاربة الجديدة؟ وتخيل بخيال لا يخلو من جنون وتهور، قرية قديمة تتكون من منازل طينية يلتصق بشبابيكها العشب اليابس، والضفادع تنهشها بلا رأفة ولا شفقة.. يا له من مشهد خرافي لن يصدقه عاقل حتى ولو شط به الخيال! لعل الإسكافي يرزح تحت شباك هواجسه، وشباك ثقافته السمراء التي تمتزج فيها السماء بالأوحال. فليتريث في الإصغاء إلى هذه الحكايات الطينية. إنها مثل الطب البدائي الذي اصطدم به أول قدومه إلى هذا البلد. لم يتصرف أمامه بعنجهية وصلف وازدراء بل تصرف كتلميذ نجيب يبحث أن يفهم و يتعلم ما وجد إلى ذلك سبيلا. ولهذا أحرز تقدما هائلا في علاقته بالمكان وبالناس. لا جدوى من مجادلة الرجل حول

منطقية حكايته، ولا جدوى من إنكار ما يقوله إنكارا مطلقا. لن يستوعب حقيقة المرض الذي حل بالبلدة إلا بالكثير من الصبر والتأني.

وأراد الطبيب أن يتوسع أكثر في المعلومات بعيدا عن قناعات لحرش واعتقاداته، فسأله عن أمور البلدة قبل البلاء، فانطلق الرجل يثرثر كطفل ظمآن عثر على قربة ماء:

–ممتازة، ممتازة جدا.. الرخاء. المجد. الثريا. القرى الأخرى نفسها أصبحت تحج إلى بلدتنا لتنعم بالرفاه والازدهار. لم نعرف مثل هذا الرخاء من قبل..

ثم انخفض صوته وهو يقول بحزن:

– حتى وقع ما وقع!

وكان نوم الطبيب خفيفا كنوم فراشة. قطرات المطر ظلت تردد لحنها الرتيب في أذنه. أنين النافذة لم يهدأ كما لو أن شبحا يختبئ وراءها ويعشق الإزعاج. وبمجرد ما استيقظ حتى شرع في العمل بنشاط وافر. إن أول مريضين فحصهما الطبيب هما: لحرش وحرمه. وانتقل إلى دور الآخرين الذين كانوا ينتظرونه على العتبات بفارغ الصبر. تنقل بحقيبته الطبية بينهم كما تتنقل النحلة بين الأزهار المتنوعة. فحص الأجساد جميعها؛ رجالا ونساء وأطفالا، وأحيانا كان يلقي نظرة تساؤل تشي بالحيرة على الأشياء والحيوانات التي يصادفها، وكأنه يكلمها ويحثها على البوح. ومن بعض ما دونه في دفتره الطبي الصغير كان ما يلي:

حالات إعياء غير مفهومة. أجساد مترهلة. أنفاس يهيمن عليها الكسل. الأعضاء سليمة لكن الأرواح تعيسة. سماء ملعونة تقتات على بقايا الظلال.

وانتبه الدكتور في طريقه إلى البيوت إلى شجرة الدردار التي تحدث عنها الاسكافي بإسهاب. لم يكن يظن أنها ستقوم في طريقه كلافتة واضحة من لافتات شوارع المدن، أن تنبعث أمامه خفيفة كما تنبعث الأشباح في الطريق المظلم. كيف حدس أنها هي وليس

غيرها. هل يملك في عقله بورتريه الأشجار أو كاتالوجا سياحيا يعينه على التعرف على أصناف النباتات الموجودة في البلدة؟ هل شعر أن أوصاف الشجرة الماثلة أمامه تتناسب مع الأوصاف التي حددها لحرش أثناء سمرهما. لقد كان لحرش متلعثما في حديثه. كان يتحدث كمجرم يقص حيثيات جريمته دون أن يسلم من آثار الخوف والذنب. كانت كلماته كقطرات ملوثة مسمومة. أجل، لقد حدس أنها هي، فلا شجرة غيرها في الزقاق الطيني. بغريزة الطبيب الماهرة التي تشم طبيعة الأشياء وتنفذ إلى الباطن، عرف أنها الشجرة التي جرى عندها أو قربها الحوار الغريب مع الشحاذ. كانت رثة قليلا تشبه أسمال الشحاذ، لكن لا شحاذ يلتصق بجذعها. كانت وحيدة تمد أغصانها الترابية، تشرئب بهامتها كإنسان يرغب في الخروج من العزلة. وقف فاحصا وجودها الرث كمن يقف في حضرة إنسان مسكين معتل يحتاج إلى مساعدة. انتبه أفراد القرية الذين ينتظرونه بعذاب إلى وقفته أمام الشجرة. تجمع الأطفال في الزقاق كقطيع من الماعز التائه، ونظرت النسوة من النوافذ يتساءلن: ماذا يجري؟.

وجرى حادث لم يخطر على البال ولا تصوره أحد حتى في المنام. لقد عن للطبيب في تلك اللحظة أن يقوم بشيء خارق سيظل ملتصقا بذاكرة المكان. يا لها من خطوة غريبة سبقته إلى البيوت كنادرة أو طرفة تثير الاستغراب! سلوك لو تم دمجه بخرافة قديمة لما لمس المستمع خللا أو تناقضا فيها. أخرج الطبيب سماعته النحيلة من الحقيبة الجلدية التي سقطت أرضا دون اكتراث منه، ودنا من الشجرة. وأمام ذهول المتجمهرين وضع السماعة على جسد الشجرة يصغي إلى نبضها.

وقالت امرأة تتابع من الشباك ما يحدث:

-لعله يصغي إلى قلبها، فقلب الشجرة أسرار!

غرق الطبيب في سلوكه الغريب. بدت جديته واضحة في فحص جسد الشجرة الساكنة. ثم بعد مدة ليست باليسيرة، ودون أن ينتبه إلى استغراب الساكنة، التقط الحقيبة التي لحقها الوحل، ودس سماعته فيها مكملا طريقه إلى باقي البيوت كأن شيئا لم يحدث.

في مقهى محمود، تجمع الأهالي ينتظرون الطبيب الذي طلب مهلة خاصة فهموا أنها عزلة ذاتية هادئة يقف فيها مع نفسه ليرتب ملاحظاته وخلاصاته، كما ترتب الطبيعة أنفاسها بعد يوم ممطر. عزلة كي يقف على هوية المرض اللعين الذي يعشش في الروح وفي الجسد. يوم شاق قد قضاه يطوف على البيوت يفحص أهلها. لم يكن في عمله يرد على تساؤلاتهم التي لا تنتهي. لم يكن يطمئن أحدا. كان يكتفي بابتسامة متعبة ويتمتم ببعض الكلمات التي لا تشفي الغليل، ولا تشعر المريض بسكينة. ليس من عادته أن يتحدث عن الأمل الكاذب. أجل، إنه عطوف جدا، يربت على الكتف، يواسي، يجعل الأفق نظيفا لكنه لا يدس الآمال المجانية. لا يمكن أن يبتسم كغبي في مأتم. هذه هي حكمته الجليلة التي يحفظها ويطبقها حرفيا في عمله منذ اشتغاله كطبيب.

وظلت النفوس مرتابة، لأن العيون الزرقاء التي تطل من وجه الطبيب توحي بالغموض. كانوا يفكرون في البحر والبحر لا يمكن أن يقدم طمأنينة، ويفكرون في السماء التي قد تتقيأ أحيانا باحتقار، ويفكرون في الحقل الأزرق الذي قد يوحي بالمجاعة. ومن خلف الفناجين تطلعت عيونهم بفضول وقلق. زاد قلقهم وتعمق أكثر بسبب حكاية وقوف ألبير مور المفاجئ أمام شجرة الدردار، والفحص الذي حظيت به، وكأنها إنسان محترم ينتمي إلى البلدة، له نفس حقوقهم بدون تمييز أو تفرقة.

وقد قال أحدهم بسخرية مريرة:

–كان ينقصنا أن يفحص كلبي العجوز. انه أسود كالليل ويلهث إلى الأبد!

ولم يخف على أحد برم الفقيه الذي أصبح من رواد المقهى على مضض، يرقب ما يحدث. فرغم استسلامه لواقع الاستعانة بالأجنبي، إلا أنه كان لا يفوت فرصة إلا ويظهر تشكيكه في سلامة اختيارات الأهالي. وبعدما سمع الحكاية الغريبة، قال بأسى:

-أنتم لجأتم إليه ليخلصكم.. وما هو إلا أخرق مشعوذ!

وقال بلهجة أقرب إلى البكاء:

-لو فقط اكتفيتم بالدعاء.

هتف صوت مستنكرا:

- ومن قال إننا تخلينا عنه؟ إننا ندعو ونأخذ بالأسباب. فلا تعمق كربتنا!

وكان لحرش يصغي إلى ما يروج بين الناس. لقد عرف بأمر السلوك الغريب قبل الآن، فالأخبار تنتقل بسرعة الرياح وبسرعة النار في البلدة. بوق سماوي يذيع كل شيء ويطعم الآذان الجائعة! إنهم لا يعرفون سر وقوف الرجل أمام الشجرة وسر سلوكه الغير منتظر. لم يتوقع أبدا من الطبيب، أن يأخذ حكايته على محمل الجد، ويصدق قصة الشحاذ بحذافيرها. كان محايدا ساكن المحيا يتلقى القصة دون أن يفشي ما في دواخله. لكن سلوكه الذي ترامى إليه يثبت بما لا يدعو إلى الشك أنه يأخذ الأمور جميعها بجدية وصدق حتى ولو بدت غريبة موسومة بالجنون. إنه يبلع كل شيء لكن معدته ذكية تعرف أن تنقي وتغربل وتمج ما لا يصلح لها!

ولم يدروا إلا وشبح ضخم يملأ فراغ الباب. كان مصباح المقهى يرتجف ونباح كلب مشرد يترامى من بعيد. شاهدوا الطبيب مور منتصب القامة، يقف بثبات ويقين. ظله يسقط بليونة على أرضية المقهى ويمس قوائم بعض الكراسي في الركن. لقد فرغ أخيرا من عزلته الطبية البيضاء التي يحتاجها لترتيب شؤونه، وجاءهم يحمل نتائجه وخلاصاته. فهل توصل إلى شيء؟ هل استطاع أن يشخص الوحش ويجد دواء فعالا؟

وبعيون قلقه ذاهلة توجهوا إليه، كي يرحمهم بكلمة تعيد الروح.

– أرواح ظمأى أمام ينبوع ماء. ألا ترون الماء يشرق بالقرب صافيا؟

وتساءل أكثر من صوت:

– ما معنى ذلك يا دكتور مور؟ أغثنا!

قال الطبيب بهدوء عجيب لا يتناسب أبدا مع ما هم عليه من الكرب:

– صدقوني! لا شيء بكم. أعضاؤكم سليمة 100٪ ولا شيء بكم مما تظنون. إن مرضكم الحقيقي هو الحياة.. أتفهمون؟ مرضكم الحقيقي هو الحياة...!

# الطاپور

طريح الفراش يفكر في حياته وما آلت إليه. يغرق في سحابة الأفكار التي تحمله بعيدا، وتتركه محتارا قلقا دامع العينين. زوجه صفية تجالسه وتخدمه بوفاء، تبتسم في وجهه المجعد مطمئنة:

– ستتعافى وستعود إلى سابق عهدك.

وكانت أحيانا تلومه بحنان ممزوج بالجدية:

– أنت ترفض الطبيب وزيارة المستشفى!

يمتعض من قولها المتكرر الذي لا تتعب منه أبدا. تعرف كراهيته الشديدة للموضوع وتذكره به دون ملل، وتعرف أن المشكل ليس في زيارة الطبيب، ولكن في طابور الانتظار. تقول مدافعة:

–قد نأخذ موعدا ولن تنتظر!

المواعد نفسها لا تسلم كجلد يد ناعمة من الخدش. لو كان الموعد ماء لتعرض للجروح! لا أحد يحترم المواعد أو يلتزم بها التزاما، حتى الأطباء. بل إن أكثر الناس ابتعادا عن المواعيد وإخلالا بها هم الأطباء أنفسهم. إنهم يقتاتون على حاجة المجتمع الشديدة إليهم، من ضعف المرضى المؤسف لا غير. ولولا الضعف الإنساني للاقوا مصيرا سيئا ولتسولوا في الطرقات كالشحاذين تشيعهم اللعنات والحجارة. ويقول لنفسه في أسى: موعد العشاق أكثر دقة وأكثر انضباطا. ويحدجها بنظرة عتاب ويتنهد.

في خلوته المفعمة بالبخور يستعيد شريط الذكريات ويحوم بأفكاره حول مشكل قديم عانى من ويلاته وما يزال. مشكل (الطابور). أجل، مشكلة ميتافيزيقية تراكمت وتحللت وتجردت تجريدا حتى غدت أزمة فكرية لا تقل أهمية وجوهرية عن الأزمات الوجودية. هذا

ما توصل إليه وهو في أرذل العمر يكاد وهج روحه ينطفئ. ولا تحتاج خلاصته إلى برهنة أو استدلال. يكفي أن يترك الذاكرة تشتغل بعفوية وطلاقة حتى يقف على ما يقول، ظاهرا واضحا لا مرية فيه. والغريب في هذه المشكلة أنها لم تكن وليدة ظرفية خاصة في حياته، بل سبقته إلى الوجود، وكانت في انتظار ولادته، كسيدة عجوز مثرمة الفم تنتظر قدومه لتبشره بالمعاناة.

حدثته أمه عن فترة الحمل المضنية، وكانت تتأمل أصص الفل المزهر في الشباك:

– لقد عانيت في مدة حملك كثيرا. كنت مضطربة. القلق كفراشة في روحي أخاف عليها أن تحترق. كنت أخاف أن يصيبك أذى أو مكروه فكنت أقصد المشفى مرارا، أستفسر لأتفه الأسباب وأهون الحالات. ومرة اشتد وجعي فخفت خوفا كثيرا. تقلصت مشاعري من الخوف. لم يكن الأمر يتعلق بألم المخاض التقليدي لأن الموعد الذي حدده الطبيب لم يحن بعد لكنني قصدت المشفى كامرأة تتعثر في خوفها!

وفي المستشفى وجدَت طابورا من النسوة يشتكين. وكان عليها الانتظار في الطابور ريثما يحين دورها. لكن الطبيب الطيب، الذي كان يعرف مرضاه جيدا ويعرف الأحوال المتباينة، كان له رأي آخر. فعندما التفت إلى ظلها الخائف الذي يشبه غصنا يابسا في مهب الريح، وقرأ التوسل في عيونها المتعبة عطف على حالتها، لتستهجن امرأة ثرثارة سلوكه بحجة أسبقيتها. قالت الأم:

– كنت شاحبة جدا. سامحها الله! لم يكن لها حق أبدا فهي تشكو مغصا بسيطا في المعدة فقط.

وقد اكتملت صورة الطابور، أو أصبحت أقرب إلى النضج، عندما مرت الأسرة بشدائد فقد على إثرها الوالد المكافح امتيازه المالي، وانتقل إلى حي شعبي وقطن بيتا كثير الأدوار، وبالتالي كثير الجيران. كان المنزل الجديد يتوفر على مرحاض واحد ووحيد، لذا لم

يكن من الغريب أن يصبح الطابور سلوكا اعتياديا كل صباح. وكان عليه الحذر المستمر حتى لا يقع في كوارث هو في غنى عنها. كما كان عليه أن يهرول حتى لا يتأخر عن موعد المدرسة. ورغم الجهود المبذولة والحرص الشديد الذي كاد أن يتحول، مع الوقت، إلى وسواس مضن يلازمه، فقد كان كثير التأخر، وكان المدرس لا يعترف بالمبررات التي يسوقها وإن تكن صادقة مفعمة بالخوف والدموع. ينظر إليه بعينين غاضبتين ويزوي ما بين حاجبيه الكثين ويصرخ حتى يقفز من مكانه:

– أنت تكذب!

فيقول ببراءة:

– الكذب حرام. أنا لا أكذب!

فيلطمه المدرس المغتاظ على وجهه مستنكرا:

–وتصر على الكذب؟ يا لك من ولد شقي، قليل الأدب!

وحين يوفق إلى احترام الوقت. كانوا — التلاميذ–يصطفون مثنى مثنى على شكل طوابير يابسة في انتظار رنين الجرس، ويقوم مدرس كهل متجهم الملامح بطربوش أحمر بالعبور الحازم بين الصفوف كجنرال عسكري يتفقد جنوده مشهرا عصا قاسية وهو يصرخ في جنون:

– النظام. النظام...

وكان لا يتوانى عن الضرب بالعصا والرفس بالأقدام لتقويم ما اعوج منهم؛ فيتدافع الصبية كالأمواج وسط الضجيج المرتعش.

وظن أن التحاقه بالعمل سيعفيه من الطوابير وألمها، أو يخفف منها ومن وجودها السميك في حياته التعيسة، وكان يزفر حينها متسائلا:

– متى أكبر وأنسى هذه المتاعب؟

وحصل على عمل أمن له دخلا لا بأس به في زمن أزمة البطالة المنتشرة، حيث عين موظفا في إدارة البلدية، في قسم الأرشيف، وأصبح يقف في طابور طويل لاستلام الراتب، ويصغي إلى موظفين سبقوه إلى الوظيفة، يشرفون على التقاعد ويشتكون من تكاليف الحياة ومأساة الطابور تحت الأشعة المضنية. كانت ملابسهم متواضعة جدا توحي بغلاء المعيشة ورثاثة الأحوال.

-الحكومة لا تبالي بمشاكلنا، مرتب هزيل لا نحصل عليه إلا بمشقة النفس.

وقال آخر:

- الطابور داء وبيل ولعله من مقومات هذه الأمة!

وكان موظف آخر يقهقه قائلا في سخرية:

-هونوا عليكم! أراهن أن الحيوانات المنوية ذاتها تقف في طابور قبل أن تتسابق نحو تخصيب البويضة!

ويضيف متهكما:

-لذا لا أستغرب أن يكون الإنسان حيوانا طابوريا بطبعه!

وقال موظف غزا الشيب رأسه معارضا:

- في الدول العظمى الخدمات تؤدى بشكل مختلف.

فقال الموظف الساخر والبرم من طول الانتظار:

-الحيوانات المنوية هناك تستعمل نظاما آخر!

ضج الطابور بالضحك بسبب النكتة البذيئة، وخفف الحديث الساخر من تشنج الأعصاب وتوترها. وفكر في أن سنينا عجافا ستأتي لا محالة وسيقف كثيرا في نفس المكان منتظرا حتى يكل ويتعب مثل هؤلاء.

ورغم المتاعب المتوالية، إلا أن الحياة لم تخل من أيام حلوة رطبة، عاشها مبتهجا بعيدا عن كرب الطوابير وبؤسها. أيام شبيهة بواحات استظل بها في قلب صحراء ضارية، يتذكرها بنفس تطفح نشوة وهناء. ومن بين تلك الأيام السعيدة، يوم رأى صفية التي أثارت فيه افتتانا طاغيا. جميلة الوجه مستديرته. عسلية العينين، ذات قوام رشيق، متعلمة حاصلة على الباكالوريا. سعى إليها سعي المهووس الذي لا يثبط عزيمته شيء. ولحسن الحظ، مر الأمر دون تعقيدات تذكر. كانت كريمة جندي متقاعد، متوسط الحال، قبل على الفور طلبه وباركه، وتوج المجهود بالزواج، فأنجبت له أربع إناث وأربعة ذكور. تزوجت الإناث وحصل الذكور على وظائف عليا، وكونوا أسرا ناجحة، فاطمأن اطمئنانا. وكان يزور والديه في منزلهما القديم في الإجازات الأسبوعية برفقة الأولاد.

ولم يقتصر وقته على أعباء البيت والزيارات. كان يقصد مقهى زهرة الجبل للقاء الأصحاب من الإدارة والدراسة أو خارجهما. توطدت صداقته بالسيد سرحان، مدرس التاريخ، وهو شخص ذو مسحة كوميدية مواظب على جلسة المقهى. يلعبان الورق والنرد ويتبادلان الحديث في مختلف المواضيع. كانت له وجهات نظر غريبة تنم عن استخفاف شديد بأعباء العيش في الزمن الأعجف. كان يقول:

– هذا زمن نكران الجميل!

وعندما يعوج على الحديث عن الدور الشعبية والتكدس المبالغ فيه، يقول بحدة:

– الحكومة عاجزة عن توفير مرحاض للمواطنين فكيف لها أن تفكر في حل أزمة السكن؟!

فيسأل متصنعا دهشة من لا ينتمي إلى واقع البلد:

–إلى هذا الحد؟

لا يغيب عنه الأمر. وكيف يغيب وهو الذي خبر الصف المتراص أمام المرحاض أيام الطفولة، وكان الصف شبيها بفريق عسكري يجري تمارين صباحية. يتذكر المتاعب المثيرة للضحك والتي تجعله يقفز من مكانه كالملسوع. يتابع الرجل كأنما يقول أمرا خطيرا:

– ألا ترى زمننا الجاحد هذا؟ المرحاض يلعب دورا أساسيا في حياة الإنسانية، ومع ذلك لا أحد يعرف مخترعه!

صحيح. كيف لم يفطن إلى هذه الملاحظة الجيدة. ملاحظة بسيطة كنجمة خلف ستار شفاف. ينظر إليه مندهشا وهو يتابع متنهدا:

– والأجدر بجميع الشعوب أن تحفظ اسمه وتقيم له أكثر من نصب تذكاري في الميادين!

–أنت تهزل.. من؟

–مخترع المرحاض!

فيضحك ملء فمه.

ويرن الهاتف ذات صباح خريفي. كان صحبة صفية يحتسيان قهوة الصباح وينظران من خلف الشباك إلى السحب البيضاء المسالمة، عندما هلت الفاجعة تحمل نعي والده. مات ولم يكن يشكو من علة. تركه في الأسبوع الماضي في أحسن حال. تحدثا في شؤون مختلفة، وانصرف واعدا إياه بالزيارة. هاهو يرحل دون إنذار. غريب أمر الحياة والموت. هرع إلى الحي الشعبي الذي عاش فيه طفولته، وقابلته المحلات والدكاكين، ولغط الصبية والنسوة المحجبات والسافرات، وقابل بعض المعارف الذين قدموا له العزاء بنوع من الشفقة. كان مفجوعا يكاد يسقط من قوة الصدمة لكنه تماسك كما ينبغي لرجل خبر الحياة عميقا، وعرف ما فيها من حلاوة العيش ومرارته. وبصوت رصين رد على عبارات العزاء. ووجد مقاعد خشبية مصفوفة عند الباب، وسمع نحيبا يتصاعد ووجد أمه فعانقها بشدة.

هي السلوى والعزاء. اصفر وجهها، بدا شاحبا يطفح بالتجاعيد وفي عينيها آثار دموع. تمتمت:

–رحمه الله. مات من غير وجع.

وتلقى كلمات العزاء من نسوة جارات يعرف بعضهن، وتقدم إلى جثة أبيه ليلقي عليها نظرة وداع، ويفحص وجهه المشوب بمسحة الموت الغريبة. كانت مثل بلل العشب في صباح بارد. قالت أمه بصوت متهدج:

–الصبر.. لقد هاتفتك الأول لأنك أكبر الأبناء. . إخوتك في الطريق.

نظر إليها بإشفاق وعطف. بدت الخل مما كانت، وكأنها خرجت لتوها من قبر يابس. عانقها مرة أخرى فربتت على رأسه كطفل ضاعت منه لعبته المفضلة، وقال معتذرا:

–نزل الخبر كالصاعقة. . تخلفت صفية لكن لا بد أنها في الطريق الآن بعد أن أعلمت الأبناء.

فتمتمت قائلة:

– قم بالواجب.

وانصرف. تعالت ولولة مزقت الفضاء الكالح، وقصد الإدارة ليجلب تصريحا بالدفن، وكان أسير حزنه وشجنه تكاد عيناه تغرورقان بالدموع، وفحص الناس في الطريق فوجدهم بمنأى عن أحزانه وشعر بضآلة الحياة أمام الموت. كيف أمكن للإنسان أن ينخرط في متاعب الحياة دون أن يبالي بهذا الشبح الغريب الذي يتربص بكل حي، ولا يغمض له جفن أو ينسى؟ يده الشبحية لا تنسى! كل كائن حي يسعى على الأرض مهدد في أية لحظة وفي أي وقت. حقيقة عارية لا ينبغي أن تغيب. لكن ضحكة مجلجلة تمحو كل هذا التهديد في غمضة عين. ما أسخف الدنيا! وعندما ولج الإدارة فوجئ بطابور لا بأس به يسخر منه ومن حالته، فأعاده إلى كربه الوجودي القديم. حتى الموت لا يخلو من طابور

ينغص الصفو المنغص أصلا! وقال في نفسه كاظما غيظه: حكاية الطابور لن تنتهي أبدا! وتماسك أو كتم غضبه، وذكر نفسه بهيبة الموت، وقال: إن هؤلاء المصطفين أمامه قد زارهم الموت مثله، وسرق أحد أحبتهم. الموت هو الحقيقة الساطعة التي لا تبلى مع مرور الزمن، وهو الرابطة التي تشج بين مصائرهم. تقدم بخطى متثاقلة ليأخذ مكانه دون أن ينتبه أحد لقدومه. كانت السحنات غارقة في جو مأتمي، فانتظر على مضض، وأصغى إلى عبارات المواساة الزائفة التي يلقيها الموظف من خلف مكتبه بشكل آلي. كان صاحب نظارتين يمسح بين الحين والآخر أنفه بمنديل. كان أنفه جثة أخرى بارزة تُكفن بالمنديل وتنتظر تصريح الدفن! وحين حان دوره سمع نفس العبارة المعزية، نفس الجملة وبنفس الحروف الفارغة!

وسأل والدته بعد انصراف المشيعين إلى حالهم أن تنتقل إلى بيته، وقال إنه لا يجب أن تظل، وحيدة وسط الجدران، وأكد بطريقة عاطفية رقيقة لإقناعها:

– لا شيء يستأهل البقاء هنا بعد رحيل الفقيد.

ولحظته معاتبة. وقالت بصوت أقرب إلى النشيج:

– لن أبرح هذا المكان طول ما حييت. ذكرى المرحوم ستملأ وحدتي، ولا تخش شيئا فالجارات سيقمن بما سأعجز عنه!

شاحبة جدا. سأل الله أن يحفظها. لم يرغب في أن يلح عليها ويثقل عليها بالتوسلات التي لا تجدي، خصوصا وأن إخوته قد عرضوا عليها أن تقيم بينهم معززة، وتختار أي بيت تشاؤه. لكنها حافظت على عنادها وأصرت على الوفاء لبيتها القديم. وقال باستسلام:

–على أية حال، لن نتخلف عن زيارتك. وإذا احتجت إلى شيء، فعندك التلفون.

لكن بعد ثلاثة أشهر وبعد زيارات الاطمئنان، جاء النذير لينشر خبر الموت المقيت. أجل، توفيت هي الأخرى سريعا، وكأنها لم تطق صبرا عن رحيل الوالد. لا بد أنها لم تجد ألفة حقيقية بعد رحيله، ولم تستطع تكوين صداقات مع الأشياء، فتبعته غير آسفة. وولد الخبر الحزن في العائلة، واندهش موظف الإدارة، عندما رآه يقف في الطابور مرة أخرى. ترى كيف تذكره وهو الذي لا يكل من مقابلة أشباح الموت! هز رأسه في أسف وكأنه يعتذر عن المصاب المجعد أو كأنه المسؤول عن غراب الموت الذي يظلل بيوت المصابين، بيد أن حركته الإعتذارية بدت في تلك اللحظة من غير معنى، ولا يمكن أن تحذف دمعة واحدة صادقة. إنها أشبه بكلمات العزاء المضحكة التي يقدمها تاجر الأكفان لزبنائه في سوق الموت. وفكر برحيل الوالدين المحزن والإعياء يشمله من رأسه حتى أخمص قدميه. سيكون الموت قد نخر جسد الأسرة الكبيرة في فترة لا تتجاوز الثلاثة أشهر. رباه! لم ينته من حداد حتى داهمه حداد آخر لا يقل قسوة ووحشية. من أين للروح الجلد حتى تستحمل انهيار البيت الأسري؟ لكن ليتحل بالصبر والتجلد، ما من ملاذ في هذه الدنيا سوى الصبر، والصبر سلاح المؤمن كما يقال.

واستسلم للحياة بعواصفها ومسراتها حتى أحيل على التقاعد. كان يقضي الوقت وسط الأصحاب لمناقشة معظم القضايا الجاثمة بثقلها على النفوس التي لم تفق من دهشتها بعد: الأزمة الاقتصادية والارتفاع الصاروخي للأسعار والحروب التي يتراءى نذيرها في المذياع والتلفاز. وأشفق من عودة مفاجئة إلى زمن المجاعة الكالح حيث كان شراء الشاي والطحين يتم عن طريق رخصة أو ما يسمى ب"البون"، وهي مظاهر سوداء لم يعرفها إلا من خلال كتب التاريخ المدرسية أو من خلال المسنين الذين عايشوها وذاقوا مرارتها. أشفق من الطوابير المحتملة التي يمكن أن تطل من الأفق مشهرة

أنيابها الحادة. حسبه انه يعاني من طابور استخلاص مرتب المعاش كل شهر، وقد طعن في السن ولم يعد يملك القدرة على الوقوف طويلا أمام مكتب صندوق التقاعد الذي يصر على إذلال الناس وسحقهم.

وفي رحلة الجفاف هاته لم تعد مقهى زهرة الجبل الملجأ والملاذ الوحيد، بل عرف سبيلا متواترا إلى الجامع. أصبح يجد أنسا وألفة عندما يؤدي الفرائض جميعها سائلا الله السلامة والصحة وحفظ الأسرة بصغيرها وكبيرها. ومن كثرة التردد على المكان الطاهر نشأت ما يشبه مودة بينه وبين إمام الجامع. أصبح بعد كل صلاة، يجاذبه أطراف الحديث. كان الإمام رجلا طيب القلب معروفا بدماثته، يستقبل كلامه بوجه بشوش صاف. ولاحظ أنه يفوقه سنا إلا أن السنوات مرت عليه مرور الكرام، ولم تؤثر على بنيته. وأدرك من خلال نموذجه فائدة العبادة التي تحافظ على هيبة الجسد فضلا عن نقاء الروح.

وذات يوم تشجع بالبشاشة الصافية، واقترب منه يقول بفضول:

– الزحام مستشر في كل مكان. هل الطابور قدر لا راد له؟

اندهش الإمام من ملاحظته الغريبة. لكن كأي مستمع لبق يتحلى بنبل الأخلاق، ضحك وقال مداعبا:

– ستقف في الطابور يوم الحساب وستنتظر دورك أيضا!

ثم بصوت خاشع:

–نستعيد بالله من الجحيم وويلاتها!

واستعاذ بدوره في صدق. لا يدري على أي وجه استوعب كلام الإمام الملتبس. هل اعتبره مجرد دعابة للتخفيف من حدة الموضوع أم فهمه بجدية؟ لقد فكر في يوم القيامة كيوم الطوابير الكونية. واضح أن الناس سينتظمون في صف يفوق طوله سور الصين

العظيم. طابور يمتد إلى مالا نهاية. وأطلق العنان لخياله في غير ما ضابط. رأى طابورا بشريا مرعبا تنتظم فيه صفوف العراة أو حملة الأكفان البالية، ورأى شمسا مرعبة لا تمل من شيِّ الرؤوس الحاسرة. يا له من خيال مرعب لا يقدر على أن يتحمله! طرد أفكاره مستعيذا بالله من وسوسة الشيطان، وقال لنفسه: لعل الموت نفسه مجرد طابور غير مرئي، ونحن جميعنا ننتظم فيه من غير وعي ننتظر رحيلنا العشوائي الذي لا يعنو لضابط أو قاعدة. وإننا في هذه الحياة الغريبة مجرد حمقى نستميت في نسيان الدور والطابور المخزن!

دفعت صفية الباب. بدا وجهها البشوش الذي سحبه من ذكرياته.

–هه. .. استرحت؟

قال بهدوء:

–الحمد لله. لست أدري دونك ماذا سأفعل.

أخذت مكانها قربه على كنبة، وقالت في شبه عتاب:

– المهم راحتك.. لا تشغل بالك!

وقال ضاحكا ضحكة اختنقت في صدره بفعل السعال:

–للإعياء فوائد، وأولها: استرحت من الذهاب إلى راتب المعاش!

وتابع ممتنا:

–والبركة فيك.

– لا تأخذ المسألة على هذا النحو. الأمر بسيط وليس فيه عناء يذكر.

فافتر ثغره عن ابتسامة متعبة ولم يضف شيئا. وأخبرته أن الأولاد قادمون والبيت سيضج بالأحفاد، فسر لسماع ذلك، وقالت مؤكدة:

–إنهم قلقون بشأنك.. سيهرعون بعد ما سمعوا بتعبك!

فقال معاتبا:

-لم يكن هناك داع لإتعابهم. مجرد وعكة ستمر!

- قلت ذلك بلا شك. ستقوم إن شاء الله سليما معافى كما في السابق.

فردد برجاء: إن شاء الله.

# شارع السماء

عندما أسندت مهمة تمشيط الطرقات إلى الشرطي عبد الله الحسين، أحس بنوع من التخوف يعتريه؛ فهو حديث العهد بسلك الشرطة، وشاءت الصدف السيئة والحظ العاثر أن يتخرج في نفس العام الذي عرف انتشار أحد الفيروسات الخطيرة، والذي يستلزم حماية الوجه بكمامة دائمة تكاد تصبح جزءا من الوجه والهوية. كانت الإجراءات التي اتخذتها الحكومة مثيرة للامتعاض إلى درجة أن الناس تساءلوا بنوع من السخرية:

–هل ارتداء الكمامة إلزامي حتى أثناء النوم؟ ربما نلتقي أحبتنا في الحلم، ولحمايتهم من العدوى، نرتدي الكمامة المضحكة.

وكان بعض المثقفين أو من يحسب على زمرتهم الذين يرتادون المقاهي صباح مساء ويتحدثون لأجل تزجية الوقت لا غير، كان بعضهم قد ذهب أبعد من ذلك في التهكم والاستخفاف، مستعينا بمعرفة لا بأس بها بعلم النفس الحديث، كمعرفته باسم العالم النفسي: فرويد، وبعض الآليات التفسيرية، وكذا بسماعه بالعيادات الصفراء التي ينتشر فيها هواء اللاوعي الأصفر، فتجده يصلب ساقيه في المقهى ويقول شارحا:

– ارتداء الكمامة ضرورة في النوم! الأحلام رموز تزين وجودنا النائم، يتقنعُ الأنا الأعلى بقناع الشرطي العابس، وقد يوقفك مزمجرا في الطرقات ويسألك عن الكمامة، وإذا كنت بدونها ستتعرض للتقريع وأداء الغرامة، ستتحسس في حلمك محفظة النقود!

وعندما ركب عبد الله سيارته، كان يستحضر كل ما يحيط بالوباء الخطير الذي جعل الأخيلة تنطلق دون قيود للتندر والاستهزاء كآلية للتنفيس عن مشاعر الخوف. هو نفسه لم يكن يخلو من خوف. كان لا يعرف حقيقة ما يجري. يتلقى الأوامر الجافة. يتابع الأخبار العالمية في التلفاز. يشاهد المستشفيات المهترئة التي تغص بالأنين والشكوى. يسمع بأخبار الموتى الذين يتساقطون كحشرات ليلية، والجنازات الصامتة التي لا يحضرها أحد باستثناء أهل الميت إلخ.. ولا يستطيع ذهنه أن يشكل صورة متماسكة واضحة. ربما بسبب

المعلومات الشحيحة عن فيروس مجهول حملته البحار والمحيطات. وكان زملاؤه في الدائرة، يحسون بنفس الالتباس لكنهم لا يفصحون عن أفكارهم خوفا من العقاب. إن واجبهم الأول يحتم عليهم تلقي الأوامر الباردة، وتنفيذها دون جدل أو رغبة في الفهم. الفهم الأخضر الجميل الذي يلمع كماسة خضراء فوق ثوب مخملي أسود ليس من مهامهم. الفهم سماوي جدا إلى درجة لا يمكن تصورها. أمور تتعلق بالسماء والغيوم والنجوم التي تزين هامة الكون. الفهم منوط بالعرافين الجدد وصيادي المجرات.

وكان محتوى الأمر الذي تلقاه، يتمثل في فحص الصمت السائد دون إغفال شيء من زواياه. ذلك أن الصمت يمتلك الزوايا أيضا. هو جسم مثله مثل جسم الإنسان بأعضاء متعددة تحتاج إلى المعاينة المحترفة. هكذا فهم الأمر أو أفهموه الأمر الجاف. ورأى أن يتعامل مع الصمت كطبيب حاذق يجس جسد إنسان يعج بأمراض متنوعة، ولن يتأتى له ذلك إلا من خلال التجول بسيارته وإطلاق عيونه الذئبية في جميع الاتجاهات.

كانت المدينة هادئة نسبيا. المصابيح الصفراء تسكب همومها على الإسفلت. الخوف يغزو كل شيء، وكان عبد الله في تجواله المتكرر يبحث عن صوت ضئيل، عن أنة تتصاعد، عن غيمة تخرق الحظر الليلي، ولا يجد سوى بعض الصبية يلعبون الكرة أو الغميضة في الأزقة الهامشية. الأطفال وحدهم من يكسرون التعليمات والأوامر. يعتبرون أي قانون يتخذه الكبار مجرد لعب سخيف لا ينبغي أخذه على محمل الجد. وتجدهم في جسارتهم التي تستحق الإعجاب والتنويه، يتسلحون بالحذر والحيطة. بمجرد ما تظهر سيارته البوليسية يلوذون بالفرار. كان يتعامل معهم بلامبالاة وبرود. سيكون جنونا حقيقيا إن استسلم للأوامر بحذافيرها، وطاردهم مطاردة حقيقية ستدخله في لعبة تشبه لعبة القط والفأر. هم صغار لا يمكن ضبطهم تماما، ويكفي زجرهم بنشيج السيارة. وقال لنفسه:

من الصعب إقناع طفل أن يلتزم بركن ضيق في البيت، والكون فسيح يضج بالحياة والسرور. إن لعبة واحدة مهما كانت جاذبيتها قد تضجر طفلا وتدفعه إلى التمرد!

تذكر عبد الله طفولته الرمادية التي تشبه دخانا يتصاعد من مدخنة. كان والده يحشره في ركن صغير كلما ارتكب خطأ، ويلوح بعصا التربية القاسية. يده المعروقة ترتفع أعلى وتهوى كيفما اتفق. كان والده قاسيا، عابس الملامح، وعبوسه لا يفارق مخيلته حتى اليوم. هو صدى رث يتجول في كهف رأسه ويسبح في الفراغ، أو شبح حجر ينقذف في مياه ذاكرته. وفكر في أن ما يقع الآن من تجهم الأحداث وعبوسها لا يختلف عما سبق من سالف حياته، فالحكومة: أب كبير ضخم الجثة يرتدي عباءة صيفية ويخرج إلى الشارع، مهددا عياله بالانتقام! الزموا الصمت ولوذوا بدفء المنازل؛ فهو خير لكم ولذويكم!

لم تكن الساكنة تقبل حقيقة الوضع، فمهما ادعى المواطن الانضباط وزعم الخضوع، فهو في آخر الأمر طفل مشاغب، معجب بفرحة العيد وبنجمة السماء، وبالملابس الجديدة والصباح الذهبي، لا يترك فرصة تمر دون أن يعبر عن الإعجاب والفرحة. أجل، الشوارع خالية، الريح تخشى حتى أن تمس سعف نخلات تتوسط الطريق، لكن ثمة أصوات منبعثة من خلف الجدران ترفض أن تُسجن هكذا بدون مبرر واضح. إن منهم من يرى الحرية أغلى من مخاطر الفيروس، ومنهم من يشكك في وجود الفيروس نفسه، ومنهم من يرى أن الحياة نفسها فيروس شرير ابتلينا به ولا بد من مقاومته ومواجهته ولو بفيروس آخر ينجينا منها!

وعندما وصل إلى بعض الأزقة المترية وجد هواء متسخا يتسلل من نافذة سيارته. قد يكون هذا الهواء عشا للفيروس! من يدري؟ كان عبد الله يضع، هو نفسه، كمامة تغطي فمه وأنفه. الفيروس عصفور يبحث عن عش في رئاتنا وفي عقولنا أيضا. خفف من حدة الكمامة قليلا حتى يتنفس. شعر بالكمامة كيد آدمية تكتم أنفاسه حتى الاختناق. تفحص

المكان. بنايات متهالكة. سماء لا تختلف عن التبن الأصفر الذي ينتشر في الاصطبلات، وتحت حوافر الدواب. النوافذ مغلقة تماما، لكن ينبجس منها، على انغلاقها الكئيب، نور أصفر مضطرب. إنه يرى الرؤوس تتحرك. أشباح أفراد يتلصصون من خصاص النوافذ قلقين ضجرين، ينتظرون متى ينتهي الوضع وتعود الحرية متألقة. لعلهم يلعنونه بقوة ويعتبرونه السجان الغليظ القلب الذي لا يحس بمعاناتهم الطويلة، صاحب البذلة الرمادية القاسي الذي يتمشى في ممرات السجن ويحصي الأنفاس دون أن يغفل حتى محتوى أحلامهم. وساءه للوهلة الأولى أن يُنظر إليه كسجان بغيض، فظ العواطف. إحساس مرير راوده فتجاوزه بسرعة كما يتجاوز طفل عشبة علقت بنعله. نعم. لعلهم، لكن هل يدرون خطورة الوضع الذي تعيشه كل بلدان الدنيا؟ السجن أهون بكثير من الفيروس. وكي يخفف من وخز هذه الفكرة، أو يخفف من لسعة ضمير منكمش في زاوية كطفل يتعرض للقمع، قال متأففا:

– أنا أيضا سجين الواجب!

وقال أيضا يخفف من غلو هاجسه:

–على الأقل، هم في منازلهم وقريبا من أهاليهم.. ماذا عني أنا؟

فكر في أن يترجل حتى يتمكن من كنس الأزقة الضيقة، والتي لا تسع حجم السيارة. كانت الأزقة فقيرة جدا تترجم مظاهر الفقر والمعاناة، تحتوي على بنايات متقاربة جدا تكاد تتعانق من شدة التزاحم والالتصاق. هو حب الفقراء الذي يتجلى حتى في مساكنهم. حب كريم حد الاختناق! تضايق عبد الله من الظلمة المنتشرة. الأزقة مظلمة وتنطوي على الخطر، وربما يختبئ لصوص أو منحرفون في الزوايا، ويقع فريسة لحشرات مضرة لا دور لها في الوجود إلا الإزعاج .. لم يستسلم للتوجس أو الخواطر الحذرة. ركن السيارة جوار حائط قديم عليه خربشات غير واضحة؛ هي تدوينات صبيان طائشين واعترافات عشاق فاشلين.

ترك أضواء السيارة ساطعة حتى تغزو الجوانب. مشى يتلفت وراءه، وعندما ولج الزقاق سمع قرقرة نوافذ تنغلق بسرعة وصيحاتٍ كليلة تصاحبها. أدرك أن الأعين تراقبه بصبر، وأن أهل الزقاق ينسحبون كغيوم سريعة. كبار وأطفال يختبئون وراء الجدران، خائفون وغاضبون في نفس الوقت، خائفون من الوباء المجهول الذي يلتهم أقمشة السماء، وغاضبون من قرارات الحكومة التي تتوالى كزخات مطرية من دون توضيح. كان عبد الله الصبي، كلما استفسر عن شيء غامض، واجهه الأب بنظرة غاضبة نارية وأشهر سبابته ملزما إياه بالصمت والانكماش. أسعفته البطارية التي يحملها بيمناه في كشف الجوانب التي لا يصل إليها ضوء سيارته. يصوب البطارية بمهارة حتى لا تفلت حشرة أو ظل يرتعد. بدت نتوءات حجارة. بدا عمود نور خشبي معطوب. في مثل هذه الأوكار يعشش الأوغاد! كشف الضوء قامات المنازل الترابية. لا شيء هناك. لا نأمة في الممر. حتى الأنفاس انكتمت تماما. على أن الشرطي لم يسترح للصمت الوقور. بدا له الصمت كقبعة شخص ماكر. الصمت قد يخفي في معطفه أشخاصا هاربين من القانون. وقال هامسا:

– هذا الصمت لا يطمئنني!

وصدق حدسه، ففي نهاية الزقاق كشف ضوء البطارية شبحا مكوما. وقد ظنه في البداية سيلوذ بالهرب فتأهب لصد المحاولة، لكن الشبح ظل على حاله جالسا القرفصاء. توقف عبد الله على بعد أمتار منه حذرا، وعدل من وضعية الكمامة بنرفزة وهو يهتف:

–من هناك؟ توقف!

ولم يسمع جوابا. حركة الشخص بطيئة كأنه من الزواحف المتواضعة. وجه ضوء البطارية مقتربا أكثر فأكثر. من هناك؟ وانسكب الضوء على محيا الشبح الذي رفع يديه بحركة لا إرادية يقي عيونه من الضوء الصادم. كهل، يفوق عمره الخمسين تقريبا، يرتدي

عباءة قديمة بها ثقوب واضحة. وجهه كالح بتجاعيد واضحة تستوطن أسفل العينين وجوانب الفم اليابس. سأله بصرامة:

-ماذا تفعل هنا؟ ألم تسمع بالحظر؟

الكهل مضطرب، ولو كان في مقدوره الهرب لفعلها، لكن ساقيه المقوستين لا تقويان على حمله. ندت عنه همهمة يائسة:

-همم..

-لماذا أنت هنا؟

-همم..

- الخروج ممنوع. ألم تسمع؟

-همم..

مصاب بالخرس،لا يقوى على الكلام. ملامحه جافة كملاءة تعرضت لشمس حارقة. خيل إليه أنه يسمع آهات وتوسلات داخلية لا تجد طريقا إلى التعبير. جفاف في الحلق وريق محترق بسبب الخوف.

-البطاقة؟

ارتبك الكهل وتحركت يده المرتجفة يتحسس ملابسه الرثة، ليكتشف أنها بدون جيوب، ويتذكر في الوقت نفسه أنه لا يملك بطاقة. ومتى امتلك بطاقة؟ هو غير موجود أو في حكم العدم. وحتى إن وجد فهو مجهول، ولا يمكن للحكومة أن تعرف عنه شيئا. إنه أحقر من أن يعرف، من أن يكون رقما منسيا في ملفات الحكومة. تمتم بكلمة اعتذار لا معنى لها. وسأله عبد الله:

- وأين تسكن؟

- شارع.. شارع السماء!

جملة بطيئة يحف بها ريق الرجل. واضح أنه لم يعش مثل هذا الموقف من قبل. كانت الحياة تخفيه عن الأنظار كما تخفي البنايات منظرا عشبيا. كانت الصدف العشوائية تخفيه عن المناسبات الحرجة، وكشف هذا الفيروس القادم من وراء البحار والمحيطات وجوده الهش، وعباءته التي تستوطنها الأتربة والحشرات، وكشف ضآلته في الكون. وقع كجرذ مريض في يد البوليس. السماء! لكن ما هذا الشارع؟ انه على معرفة جيدة بالأحياء والأزقة والمنعطفات، ولم يسبق له أن سمع بهذا الاسم. كانت لفظة السماء مثيرة للعجب والدهشة في صباه. ظنها في طفولته المبكرة قماشا أزرق يرفرف في الهواء ولا يجب مسه بسوء. كان الشتاء يشعره بالأسى، لأن سحبا ثقيلة تكتسح القماش الأزرق. وبتوالي سنوات طفولته أخذت السماء المحفوفة بالدهشة، تأخذ أبعادا أخرى هي أقرب إلى الرهبة والحذر، فالزرقة البسيطة غدت مخيفة وغامضة كزرقة الليل وزرقة محيا الجوع وزرقة الإحساس بالبرد. وفي درس الأخلاق كان المدرس ذو اللحية البيضاء يشير إلى السماء ويحذرهم من جريرة الكذب، فأصبح يخاف من الوعيد الأزرق الذي يتلفظ به المدرس، لأنه كان يسمح لنفسه بالكذب بخصوص سرقة بعض الحلوى والشوكولاته.

وسأل سمير زميله في الصف:

–هل سيعاقبنا الله بسبب شوكولاته؟

فهز سمير كتفيه باستهانة. كان جريئا جرأة غريبة لا تناسب عمره.وكان لا يأبه بشيء،ويعتبر المدرس ذا اللحية البيضاء مثل رجل الثلج المضحك!

– نعم.. نعم.

وسأل عبد الله مرة أخرى متشجعا:

– ولكن أين الله؟

فرفع سمير رأسه أعلى بحركة آلية، وقال بلا اهتمام:

-هناك.. هناك..

-أين؟

-هناك!

وأشار بسبابته إلى السماء وهو يضحك:

-هناك.. .. هناك..

عندما وجه عبد الله بصره إلى الأعلى وجد صفحة السماء صافية لا غيمة تكدرها. كانت ثمة شمس ربيعية لطيفة لا تؤذي الأعين. حدق مليا، عله يرى إنسانا كبيرا عملاقا يتربع على عرش بلوري عجيب، إنسانا أكبر من الكون، هو الله القوي العظيم، لكنه لم ير شيئا. ولم يكذِّب زميله سمير بل شك في صدق عيونه، وقال معزيا نفسه: ربما سمير أقدر مني على الرؤية، لأنه يملك نظارتين طبيتين!

السماء مبتلة في وعيه. السماء عشبة زرقاء. السماء دفتر الله. وقد ظل حائرا بسببها وبسبب شغبها الأزرق؛ حتى تجرأ في مناسبة لا يذكرها، وسأل والده عن حقيقة الله والشيطان، وهل توجد بالفعل خصومة بين الطرفين كما يقول المدرس. والحق أن والده، وكعادته في الأمور الشائكة لا يلين جانبه ولا يتسم بالصبر، فسرعان ما نهره قائلا:

- أهذا ما تعلمه لكم المدارس؟ الله في السماء وكفى! ولا تجهد عقلك الصغير في الأمور الكبيرة!

ولحسن الحظ لم يلجأ الأب العصبي إلى العصا، أو إلى الحزام الشرير الذي ينتهي بإبزيم حديدي يعلوه الصدأ. ولى عبد الله على عقبيه ولم يعد إلى مثل هذا الحديث. آمن أن الله في السماء وأن رؤيته مستحيلة ونسي المسألة. وها هي السماء تعود إلى ذهنه من خلال جواب الرجل الخمسيني المذعور:شارع السماء! ترى أين يقع؟ هل في حي الحسنية أم

شارع الداخلة أم حي الخرابشة أم ماذا.؟ استعرض الأحياء والمناطق جميعها أمام الرجل الذي ظل جامدا يتمتم بكلمات مبهمة ويلقي نظرات خرساء حزينة.

وبعد يأس، قال عبد الله:

-تعال معي!

الكهل في المقعد الخلفي مسلوب الوجود مستسلم لأمره. لاشيء يثبت أنه يعي حقيقة ما يجري. انه مجرور إلى مصيره كعربة يد مهترئة. فحصه عبد الله من خلال مرآة السيارة. ملامحه شاحبة. انتبه عميقا إلى التجاعيد المنتشرة والشيب الذي يكلل هامته بإكليل أبيض قبيح لا وقار فيه. حالته تثير الشفقة. في عمر والده أو ربما أقل. كان هيكلُ والده صلبا ينطق بالصحَّة والعافية. يقف شامخا كنخلة في فناء مترب ٍ ويتوعد. يتذكر عبد الله سنوات طفولته بنوع من الخوف الممزوج بالحنين. كانت أياما مرعبة حقا لكنها لا تخلو من مناسبات جميلة عندما يقرر الأب أن يتنازل عن عرش قسوته ويبتسم في وجوه أفراد الأسرة. كانت الابتسامة عيدا يستحق التمجيد والاحتفاء به! وربط بدون إرادة منه بين والده والكهل التائه الذي يجلس في المقعد الخلفي. أحس بالرثاء والشفقة، كان من الممكن أن يكون هذا الكهل الكسير الخائف والده الجبار وقد حطمته السنين. إن الصدفة فقط من تتحكم في تدبير المصائر وهي. هي الفيصل الوحيد في توزيع الحظوظ!

- من فضلك يا سيدي! أنزلني هنا!

هل تذكر بيته المجهول؟ لكن لا مباني هنا ولا بيوت. هل يقطن في جحر؟ ما معنى كل هذا؟ ما الذي أيقظ المشاعر والذاكرة وحفزها بعد فتور وتعب وصمت؟ الشارع واضح وضوحا مقلقا. انه خال تماما، وخلوه أمر طبيعي بسبب الحظر الليلي. ثمة مقعد إسمنتي في زاوية تحف به أعشاب قليلة تستحيي من وجودها الشحيح. هل هذا هو شارع السماء؟ لكن ليس هناك أية لافتة تشير إلى محتوى السماء أو حتى إلى زرقة مهملة. فمن

أين أتى الكهل المتعب بهذه التسمية الغريبة؟ هل يتوهم كثيرا فاختلط الأمر عليه ولم يعد يميز؟ هل غرق في أخيلة صعبة غدت، مع الوقت، واقعه الجديد، وعجز عن العودة إلى الحقيقة؟

أوقف عبد الله السيارة بجوار الرصيف. فتح الباب للرجل الكهل حتى ينزل، وقد نزل ببطء. قال له كي يتأكد:

– لكن لا أثر للبيوت. أ أنت متأكد أنه المكان الذي تريد؟

تنهد الشخص بقوة، تنهيدة من خرج للتو من محنة عظيمة أو تجربة بغيضة.

–أين بيتك؟

نظر الكهل إلى الجهة المقابلة وأشار بيمناه صادقا:

– هناك، هناك..

والتفت عبد الله إلى حيث أشار. لم يجد شيئا. ثمة زرقة عارية لا بيت لها.

# سؤال أزرق

يرن في ذهني سؤال، كجرس مهترئ معلق في عنق شاة عجوز. سؤال يشبه إبرة سامة تنغرس في جلدي فأستسلم لوخزها، ولا أجد من تسلية سواها متجرعا المرارة والضجر. وهذا السؤال بكل بساطة هو: لماذا أنا تعيس تعاسة كاملة تلوح كسحابة أو كنفاية في عيوني؟ تعاسة لا يمكن أن تخطئها العين، تسم كل شيء يمت إلي بصلة: كشكلي، ملبسي، مشيتي وحتى سعالي. أستيقظ من النوم أو ما يشبه النوم فأظهر تعيسا. أنظر من النافذة، فتتلبسني الغيوم الرمادية. أجلس في المقهى، فينكسر ظلي على الأرضية ككدمة زرقاء تكلل عين ضحية في عراك. أبتسم متفائلا حالما بغد أفضل، فيظهر شبح الحزن مقهقها في نظرتي. لماذا أنا تعيس بهذا الشكل العنيف الذي يشبه لكمة مقاتل لا يرحم خصمه؟

وقد تعمق إحساسي هذا عندما انتبهت إلى شخص يجلس قبالتي لا أعرفه، وينعم بسعادة واضحة لا لبس فيها. سعادة تبدو كمظهر من مظاهره، وكحركة من حركاته، ونفس من أنفاسه، ولن يستطيع أحد أن يماري، مهما حاول من جهد، في حقيقة النعمة الجلية. إنه سعيد، وعنوان السعادة يتناسب مع كل شيء فيه. راحة خضراء، وفرحة معشوشبة تسيج وجوده كما تسيج الورود شجرة باسقة في حديقة. ولعلني انتبهت إليه فقط لأنه سعيد ولأنه نقيضي في كل شيء. كنا في طريقة توزيع أقدارنا كمن خُلقا من طبيعة مختلفة: جُبلتُ من طينة تافهة نفرت منها الآلهة، بينما جُبِل هو من طينة ذهبية ينبجسُ منها النور المبارك. كان يكشف ببساطة ضحالة حظي من الحياة، وما قدر لي من تعاسة في غفلة مني أو دون معرفة بما ينتظرني. فعلا، يبدو أننا نركل بطن الأم، نتثاءب فوق سرير العدم كتنابلة محترفين، نتمدد في فراغ الرحم وننتظر، في محطة مجهولة، قطار الولادة الذي سيحملنا إلى بقعتنا المقدرة وحظوظنا الحتمية. فماذا كان حظي طوال انتظاري ممددا في الرحم؟ صفر. أصفار متراكمة دون جدوى، كتلك الأصفار التي تسبق

رقم 1 من جهة يساره. كان حظي كحظ الصخور من اللطف، وحظ الصحاري من الماء، وحظ الغيمة القلقة من الاستقرار. كان حظي ورقة يابسة، قلق عقارب الساعة التي لا تهدأ. ولم أستطع للحظة واحدة أن أفلت من المقارنة المتكررة بيني وبين الشخص السعيد، أخذت أعيد الاسئلة في ذهني كرنين الجرس وكالصلاة الشقية التي يلوذ بها المنكوب: لماذا هو سعيد سعادة لا يشوبها شك؟ لماذا تنام السعادة في عينيه كقدر وقرار؟ وتوالت أسئلة كثيرة من نفس الصنف بصيغ مختلفة جعلتني أهتز قليلا في مكاني كمجذوب يرتعد جسمه، وحاولت أن أعقلها ما أمكن حتى لا أبدو للناظرين مخبولا فقد السيطرة على نفسه. خفت أن أفقد القدرة على التحكم فأتحول إلى فارس يمتطى حصانا مجنونا ويسقط أرضا في مشهد يثير الرثاء. كنت أسأل في قرارة نفسي: هل تسكن السعادة في المقعد المقابل؟! هل هي ريح مميزة تهب كأنثى لعوب، وتسم أتباعها بعلامات؟ هل نعمة السعادة وليدة نظرة خفية؟ خطوة فريدة في الحياة لا يخطوها إلا من اختارته الحظوظ بسخاء؟ إننا نشترك، أنا والشخص السعيد، في الكثير من الأمور فلماذا حظه أفضل من حظي؟ ما ذنبي حتى أجازى بالسواد والعتمة ويجازى بالنور والانشراح؟ إننا في نفس المكان ونعيش على نفس التربة. لنا نفس المجلس، ونفس الشارع الذي يسيل ببطء، ونفس النوافذ الزجاجية التي تجاورنا، فلماذا نفترق بقسوة في حظ السعادة؟!

وأخذت أتفحصه محتارا: يجلس جلسة هادئة، يضع رجلا على رجل، تجري على شفتيه ابتسامة نصر. عيونه واسعة تطل منهما نظرة واثقة إلى الحياة؛ نظرة من لم يذق بؤسا أو عرف انكسارا. يرتدي بذلة زرقاء وربطة عنق. شعره الأسود الناعم يدل على العناية الصباحية أمام المرآة. يا للسعيد! مجلس باذخ. صباح مترف. لمثل هؤلاء تقال حقا: صباح الخير! وليس لأمثالي من البؤساء الذين يركضون في الشوارع كالدواب تجلدهم المتاعب. آه.. إننا نحيي بعضنا البعض من باب اللياقة والأدب. نهتف في كل صباح وبنفس الريتم:

صباح الخير! لكن القلب مقفل، والروح تتثاءب في ضجر. ليست هذه التحية التي تخرج من أفواهنا ثقيلة وبليدة إلا علامة على الفشل الكوني. كم أود أن تكون تحيتي مرآة صادقة تعكس ما أحسه دون تنميق، فأصرخ وأواجه الترهل الوجودي والرياء الفاضح. وإذا بادرني زميل أو زميلة في العمل بالتحية الرتيبة:

–صباح الخير. كيف حالك يا أستاذ؟

انفجرت صارخا:

– صباح الشر والجحيم. صباح الزلازل والبراكين التي ستستيقظ في معدة الأرض وتجر العالم إلى الهاوية!

هكذا أفرغ جام غضبي، وأتخلص من ثياب الأدب والنفاق، وأشفى من التهاب الروح وبذاءة الأحلام، وأعيش نفسي كما هي، بعيدا عن الأصباغ أو الإضافات التي يشترطها المجتمع المريض. لكن نحن نفضل، وللأسف، العيش خارج وضعيتنا، نتلفع بإهاب متكلف غير إهابنا الحقيقي. نفضل أن نحيا كالخفافيش التي تدعي فضيلة الضوء. نستمر في الاختباء، نتكدس كالجبناء وراء العبارات والمجاملات والأقنعة. وكمزورين حقيقيين نلهث خلف الاستعانة بالقناع دائما، لا نتردد في حالة الغثيان العميقة أن نجيب بتصنع وبلاهة: بخير.. بخير، الحمد لله. ونحملق في الهواء، ملامحنا تكاد تفر منا من أثر القرف والتعب.

وكان الرجل يتابع الإحساس المجيد بسعادته، يستلذ بها وكأنه يطالع أسرارها النقية في كتاب خاص بثمار السعادة، كتاب السعادة السري الذي عثر عليه في أحد الأدراج وعلى غفلة من الجميع. كان يشبه، في سعادته البديعة، لصا فظيعا ترك الحشود نياما وتسلل على أطراف أصابع قدميه إلى الغرفة الخاصة بالحظوظ، ليسرق الحظ السعيد الذي جاء مفصلا حسب مقاسه، منسجما مع أنفاسه وحركاته. كان وحده المحظوظ بيننا، يرتشف القهوة ويتنفس الهواء الطري، يملك الحق في أن ينظر إلى الشارع الطويل وينعم بظل شجرة

بعيدة لا تمت إليه بأية صلة، وكأنه يتحكم فيها من مجلسه الملكي. أجل، انه سعيد جدا، لا يتحرك الكون إلا وفق أوامره ومزاجه ورغباته. أما أنا وغيري من البؤساء الذين لن تغفر لهم الأرض زلة الوجود وزلة الخروج من رحم مظلم أشبه بكهف تاريخي، فيكفي أن نجلس مستندين على جدار القنوط والتبرم ونسبح في بركة الضجر.

ما سبب السعادة البادية؟ هل البذلة الزرقاء التي يرتديها؟ زرقاء هي كشفة البحر الغليظة أو مثل خد غيمة صافية لم يسبق أن صادفت خدشا. تبدو متناسبة مع قسمات وجهه؛ أنف أقنى، وجبين عريض، وهدوء واضح ينم عن حالة نفسية سوية. وفكرت بجدية في أنه لو تصادف الآن وظهر رسام متجول قرب المقهى، يبحث عن قوته في ملامح الزبناء لحط الرحال عنده، ولوقف صامتا ينظر بدهشة إلى السعادة المتجلية التي تغلف كل شيء حوله، ولتساءل وهو يؤدي حركة مسرحية أقرب إلى حركات المسرحيين الهواة الذين يسوحون في الشوارع بمعدة فارغة:

– هل أرسمك؟

وربما ارتفع حاجبا الرجل السعيد كمن باغته السؤال وباغتته المبادرة، لكنه سيبتلع الدهشة مبتسما وسيسأل بتواضع:

–لماذا؟ ألم تجد غيري ممن يمكنهم أن ينشطوا حركة الخيال ويثيروا القلوب والأرواح؟ إن المقهى ليعج بأصناف البشر الذين لا بد يعجبهم أن يحظوا ببورتريه أنيق وجميل.

ويكمل الرسام المتسول بنفس حركته المسرحية:

– اعذرني يا سيدي. لكنك مثال حقيقي للفن الراقي.أنت سعيد سعادة حقيقية لا أظن أحدا اقترب منها أو حتى شم رائحتها في أشد مناماته جنونا. إنك يا سيدي، والحق يقال، سعيد سعادة غير مسبوقة تلقي بظلالها حولك. وموهبتي لا يمكن أن تكون ذا

شأن، أو يعلو كعبها إذا لم تكن في خدمة هذه السعادة الواضحة.. دعني أحرك ريشتي اللطيفة بعفوية الفنان العابد، وأقتنص هذه اللحظة الوافرة التي تلوح على محياك النبيل!

وليس أدب الرسام الجم أدب فاقة وعوز، ليس تملقا يتقنع به الرجل حتى ينال هبة. هو نابع من القلب والوجدان كالصلاة في المعابد والهياكل. كما أن الشموس التي سيرسمها الفنان لن تكون من قبيل الخيال الرخيص. هي شموس حقيقية لا أثر فيها للتزلف التجاري. سيتحلى الرسام المتجول بصفة الفن النبيل الذي لا يذعن للإغراءات المادية، وسينجز بورتريه السعادة بدون أي مقابل. روحه الفنانة المتعطشة إلى الأعالي ستنصرف عن كل ما هو بذيء ومنحط، وستأبى أن تتاجر بقيم الجمال. وستكون النتيجة: لوحة مجانية لتصوير السعادة الصافية التي تترقرق كماء نافورة. السعادة القادمة من فراديس إلهية والتي لا يتذوق ثمارها النادرة سوى من أجهد نفسه وروحه في سبيلها كالقديسين والمتصوفة. سيرسم الرسام الرجل السعيد في جلسته الوقور، وسيضيف هالة القديسين البيضاء إلى طلعته المبتهجة. ستتحرك ريشته رشيقة كعصفور بريء في حقل، مدفوعة بقوة إلهية خفية لتضيف ملائكة إلى فضاء اللوحة، فتصوير السعادة لا يمكن أن يتم دون ملائكة يطيرون عبر القماش.

وأكدت لنفسي أن أسبابا عديدة يمكن أن تجعل هذا الشخص سعيدا سعادة لا يقترب منها الشك ولو بنصف ذراع، كالمال، أو العمل الممتاز، أو السيارة التي ترن مفاتيحها كرنين الذهب، أو المرأة الجميلة. نعم، ربة البيت التي تجهز جسدها كل ليلة ككعكة بيضاء. وأنا لا حظ لي من كل ما سبق ذكره إلا السخام العالق بالقدر. لم أنل في حياتي سوى وظيفة فقيرة في مكتب حقير تعشش فيه الأتربة والحشرات المقيتة، استقبل الطلبات التي لا تنتهي. وأثناء التنقل من البيت إلى العمل، لا أجد من يخفف عني كرب زحام الباص الشديد والروائح النتنة التي يسببها العرق. كان مراقب التذاكر يتأفف ويسعل

لاعنا الجنس البشري القذر من أعماق قلبه. وبحركة عصبية يغطي أنفه الضخم بمنديل ويفحص التذاكر المبللة بالعرق.

وأثار انتباهي المفتاح الأنيق الذي يستكين على الطاولة، مفتاح سيارته يلمع لمعانا مثل البرق الذي يجرح ستائر النوافذ. ركزت نظري عليه كذئب يفحص فريسة رشيقة يتعذر اللحاق بها. لم أستطع أن اقرأ ماركة السيارة. لكن يبدو أنها مستوردة ولا يحظى بها او بمثلها إلا علية القوم. مقبض المفتاح أزرق مثل البذلة. هناك تواطؤ أزرق واضح. تهيمن الزرقة على الأشياء. بحر يتناثر مزقا أمامي. اللون الأزرق يهيمن على حديقة سعادته. من البذلة الأنيقة إلى مقبض المفتاح.. فهل السعادة زرقاء؟ جزء لا يتجزأ من قماش البحر؟ عنصر سماوي لا يمكن أن يحظى به إلا قلة قليلة نالت رضا السماء وبركاتها؟

وتوقف رجل بحقيبة سوداء قرب الرجل السعيد، وحياه باحترام شديد:

-مرحبا سيد عبد الحميد غافر!

غافر! يلقب بغافر. يا للمفاجأة! ظننته من النوع الذي ينفلت من الأسماء ولا يرضى بها كرداء. لا يرضى بالنعوت التي قد تحد من حيويته الطاغية ومن انطلاقته الصباحية.

قال غافر دون أن يتخلى عن سعادته ولو للحظة واحدة:

-أهلا غنوش! تفضل بالجلوس.

لم تتغير الابتسامة. تلقى التحية التي يبدو أنه معتاد عليها بهدوء. إنه يتلقى التحايا من الجميع. وما هذا المتحدث إليه إلا واحد من مستخدميه الذين يكيلون له المدح ولا يدعون فرصة تمر دون أن يبذلوا الولاء التام. غنوش: بسيط الهيئة، يحوم ككلب حول ولي نعمته. حتى الحقيبة الجلدية التي يحملها متباهيا، لا يمكن أن ترفع قدره أمام السلطة الطاغية. حركاته. شكل وقوفه المجعد كجذع شجرة. طريقته في الكلام تجعله مثل كاهن في معبد يقف موقف الخضوع التام أمام عرش السعادة، أمام صاحب الشركة الكبيرة.

شركة ضخمة تصدر السعادة إلى كل بقاع الأرض. والسيد غافر يدري خطورة شأنه وقوة مركزه، يتكلم بأريحية، وتشعر به عارفا جيدا بحركات غنوش، هذا المتذلل الخائف من النور، هذا المتملق أو المتزلف الحقير الذي يشبه القطط التي تتمسح بقوائم مقاعد أسيادها طلبا للفتات. إنه يعرف أن ظهور المستخدم ما هو إلا ظهور مقصود. تعمد الظهور في الشارع كي يقابل سيده، ويحييه حتى يحظى بشيء من شعاع السعادة.

–معذرة. معذرة.. صباحك سعيد. أنا مستعجل. . رأيتك صدفة فقلت أحييك يا صاحب السعادة!

وقد عاد السيد غافر إلى هدوئه السماوي بعد انصراف غنوش الذي أدى التحية، كمن يؤديها لعلم وطني في ساحة الاحتفالات العسكري. اكتسب غنوش ثقة وقوة، وكأن حديثه مع السيد أكسبَهُ صفات جديدة لم تكن موجودة فيه، أو كانت لكن بنسبة قليلة فتقوت وازدادت حضورا. فهل يمكن للفرد أن يتغير بسبب التحية؟ هل أصبح الرجل موزِّعا لأسباب السعادة؟ لقد انصرف غنوش مفتخرا مرفوع الرأس كجندي خرج منتصرا من ساحة القتال، أو فارس صرع خصمه في مبارزة. لم أر مثل هذا التحول الغريب إلا في أماكن العبادة أو الأضرحة التي يتمسح بها المرضى فيخرجون من زيارتها بتحسن وعافية. السعادة عدوى. هذا هو السر الجليل الذي انكشف للتو. وتساءلت كمن يبحث عن دافع، أي دافع للفرح: ماذا لو دنوت من مجلس السيد؟ قد تهب رياح السعادة ويصيبني بعض منها كرذاذ المطر. الابتسامة ثمرة تتطاير وتمس الناس وتغير مجرى حياتهم. وتحسرت على حظي اللعين، وعلى حياتي الباهتة التي لم توفر لي حتى فرحا مختلسا. وتفحصت البذلة الزرقاء مرة أخرى. تفحصت المفاتيح الزرقاء. ربطة العنق التي تزهر كزنبقة. تفحصت الحذاء الأسود اللامع، تفحصت الطاولة، الفنجان، الابتسامة العريضة التي تدل على الفرح الصافي. أين حظي من كل هذا؟ قلبي أشبه بطاحونة مهترئة يديرها عجوز يشكو

تعاقب السنين. وقلت بأسف: لو كنتُ المسيح لما شكوت ألم الخشبة، فعذابي سيكون على الأقل ذا معنى وفائدة. أما الآن فلا أظنني إلا مسيحا مجانيا أتعذب عذابَ ذبابة، ودمي لا يغسل ذنبا واحدا!

وأحسست بالضيق. زفرت لهبا. كان الضيق يتصاعد داخلي ويتطور إلى درجة يقترب فيها من كتم أنفاسي. تحول الضيق إلى حقد أسود. كان الحقد موجودا في البداية، لكنه لم يكن جلي القسمات، فاتضح الآن مثل شخص عاش في الظلمة طويلا ثم خرج إلى أشعة شمس فاترة!

نظرت إلى السيد غافر، رمقته بنظرة حادة، كسهم ناري ينغرس في عنقه، أو في أعماق رئته. كانت سموم نظرتي جلية، كانت مشاعر جهنمية تثب خارج جسدي كسحابة وكحمم حارقة. وشحذت حواسي كلها لأفحص شخصا آخر دنا من سي غافر. قلت: هذا" الغافر" لا يتعب من تلقي التحايا الطرية. جميعهم يتقربون منه من أجل الحصول على حصة السعادة. وبدا لي أن الشخص الجديد لم يكن مستخدما مثل سابقه. كان ذا أهمية كشفتها طريقة الترحاب والود. هو على الأرجح من معارفه المقربين. اعتدل السيد في جلسته ودعا ضيفه إلى الجلوس. أيكون من عائلته الجليلة. أيكون سعيدا آخر. يا لها من أسرة خطيرة مختصة في إنتاج السعداء!

دار الحديث بينهما باقتضاب، جملة مقابل جملة أو كلمة يتيمة مقابل نظيرتها. حديث كحوار سينمائي أو مسرحي، تتخلله ضحكات قصيرة وتلويحات دافئة بالأيدي. تابعت الحوار كالمخرج المتخفي الذي يضع قبعة عمل ويعمل على أن تكون المشاهد في غاية النضج والاكتمال.

– تناول قهوة معي!. لابد..

–لقد غبت كثيرا. . كيف حال العائلة الكبيرة؟

– هم بخير. لكن العمل لا يترك لي فسحة.. بالكاد أسرق جلسة في المقهى.

وباهتمام:

– أنت تعرف العمل في الشركة.

–الأولاد؟

–هم بخير.. . الأولاد في الخارج! آنت تعرف أنهم هاجروا للدراسة والعمل. لا خوف عليهم!

الأولاد في الخارج، الزوجة المليحة صاحبة الابتسامة المشرقة في البيت؛ مستقبل زاهر ونجاح باهر. لا يحس بأدنى قلق؛ عجيب أمره حقا. الأخبار العالمية لا تطمئن أو تبعث على الأمان. الحروب مشتعلة وقد تصبح نووية في أية لحظة. روسيا مشاكسة، وأمريكا لا تتوانى عن لعب دور الثعلب الماكر الذي يتحين الفرصة. أما الفقراء فيتفرجون بشغف وحب رغم معرفتهم المسبقة أنهم لن يسلموا من الشظايا. يتقافزون كالنسانيس في الغابة متمنيين الهلاك التام للأرض. إنهم في كل ركن وشبر يئنون ويسخرون ويتمنون الهلاك، فمادام لا سعادة في الانتظار، فلينزل الشقاء على الجميع! هذه هي أمانيهم المتوحشة والواقعية أيضا، بيد أن الرجل السعيد كان بمنأى عن كل مشاكل العالم. إنه يعرف أين أرسل أبناءه. هم بأمان. المال يوفر الأمان. لا يسمح لذبابة واحدة أن تلسع وقته. وجدت نفسي أشتعل غيظا وحسدا. حسدته على ما هو فيه من نعم لا تحصى. أنا الشقي الذي لم أر نعمة واحدة تقترب مني ولو على استحياء. مجذوم أكابد الجذام المطلق، والكل يفر مني فرارهم من الوباء. تذكرت كيف لم أكن مهيأ لإنشاء صداقة أو معرفة خالية من النفاق الاجتماعي. ما أتعسني! ووجدت نفسي أشرد ببصري بعيدا عن غافر وسعادته، وأرقب الناس والأشجار والسحب التي بدت، في تلك اللحظة، اصطناعية زائفة لا ماء فيها مثلها مثل الوردة البلاستيكية العاجزة عن إنجاب عطر أو شذا.

وسمعت غافر السعيد يملي بعض الأرقام ضاحكا. اندلقت الأرقام من فمه كأعشاب مشذبة. هو رقم هاتفه! يقدم الرقم لقريبه الذي يهم بالمغادرة. رقم ملون يحرك زعانفه كالسمكة الملونة في حوض ماء. قدمه ليتصل به لاحقا من أجل خدمة يسديها أو من أجل ترتيب لقاء عائلي. لمعت عيناي. تنهدت بعمق. أحسست بي أسترق السمع رغما عني وعن إرادتي وأسجل الرقم بتفاصيله؛ بجميع ألوانه الخفية. انطبع تماما في الذاكرة مقرونا بتوابل الحقد والانتقام.

هذا رقمه! هذا هاتفه الذي يرن كلما قصده أحد من العائلة أو قصده شريك من شركاء العمل. حفظته حفظا تاما كأغنية مترية في بار، أو ترتيلة في زقاق. حفظته كما تحفظ الأغذية في قبو. شعرت بالأرقام ترقص باستفزاز في عقلي. بدت زرقاء كالبذلة التي تسيل في الشارع. فكرت. هذا السعيد، هذا الرجل الأزرق المطمئن الذي لا يدري عن التعاسة شيئا، ولا يدري أي شيء عن غابات البؤس. هذا الذي وضعته الأقدار مسيجا ضد أي تنغيص. أليس من العدل أن يكون مثلنا ويذوق ولو مرة واحدة شيئا من التنغيص حتى يحس ببؤس الكون؟ لماذا قدر له أن يستيقظ صباحا ويسمع الأخبار الحسنة فقط؟ ويطالع أصص الزهور فقط؟ ولا يسمع إلا الموسيقى الفرحة التي تغازل الأعصاب؟ لو كان بالإمكان لدققت عنقه غير مبال، لكنت عاصفة رملية تقلب طاولته، لكنت مدية تطال بذلته الزرقاء.. إلخ..

وقمت إلى دورة المياه وفكرة تلمع في رأسي. استقبلتني امرأة مسنة على كرسي خشبي تنظف القمامة البشرية لقاء قطع نقدية قليلة. زكمت أنفي رائحة القاذورات. الكون بجلاله ووقاره لا يختلف عن المرحاض! المرحاض الكوني الذي وجدنا أنفسنا فيه تحف بنا القاذورات. وها هي المرأة العاملة لا تدخر جهدا في طرد الروائح بالصابون ومساحيق التنظيف. لقد لاحظت اضطرابي، وظنتني ملسوعا بسبب رغبة التبول، ولم أدع لها فرصة

إرشادي لمعرفتي الجيدة بالمكان. هرعت صوب الحجرة الفارغة. كانت ضيقة جدا في حجم زنازين الطغاة! أغلقت الباب ووقفت أتأمل ظهره الأخضر. الباب سحلية مضحكة تنبت في زاوية حديقة. وجدت سطح الباب المصبوغ بالأخضر كمجلة معلقة على جدار بها كتابات مختلفة، بعضها: سباب وشتم، وبعضها مجرد كلمات نابية، والبعض الآخر: رسائل مقتضبة من مجهولين إلى مجهولين. جرت عيناي سريعا على المساحة القذرة حتى عثرت على زاوية في يسار الباب مخصصة للإعلانات الداعرة، كتب عليها بخطوط مختلفة ما يلي:

هناء مومس، الرقم: 1235678

ليلى بائعة هوى، الرقم: 879234

أحمد لوطي، الرقم:3432789

إلخ..

وأخرجت قلما من جيب معطفي. تذكرت السعادة الوافرة. تذكرت البذلة الزرقاء. السيارة الفاخرة التي تنتظر كامرأة. تذكرت الهواء المتموج والحظ الذي يوزع بطريقة هستيرية. وبيد مضطربة أضفت إلى اللائحة اللعينة اسم غافر ورقمه. كتبت جواره بخط واضح لا التباس فيه:

قواد محترف يؤجر شقة! السعر مناسب..

ندت عني ضحكة سعيدة وأنا أتصور المتاعب المنتظرة!

# جرابِ الفرحة

استفاقت مريم من النوم وتثاءبت في مكانها كعصفور صغير في عشه. كان الجو باردا حتى أنها تمنت العودة مجددا إلى النوم لتنعم بالدفء والأحلام. ورمت عنها اللحاف بتثاقل، وهي تصغي إلى شبه ضجيج قادم من المطبخ. الجدة نعيمة استفاقت في وقت سابق لتعكف على ترتيب الأواني بحركة متباطئة. ربما كان حريا بها – قالت لنفسها– طرد الكسل والالتحاق لمساعدتها.

لقد اعتادت على الجدة الطيبة ولم تعرف ملاذا آمنا سواها. أدركت مبكرا وبصورة متقطعة، أن لا أهل لها غيرها، بعدما فقدت والديها. وكان مشهدها وهي عائدة من عملها اليومي أو وهي تداعب قميصا شتويا قرب نافذة؛ كان مشهدها هذا كفيلا بتعويض أي نقص مهما كان نوعه أو وقعه. أحبتها واعتادت على وجودها الجميل الطيب، ولا يمكن أن تتصور حياتها دونها حتى في الحلم.

وتثاءبت مرة أخرى، وهي تفرك عينيها بيديها الصغيرتين، وتطلعت في كسل إلى أغراض الغرفة مقاومة رغبة ملحة في النوم. وحين غادرت فراشها أحست برجفة خفيفة مبعثها نافذة مكشوفة مكسرة الإطار، فحثت خطاها في الممر الفاصل بين الغرف لتجد الجدة في المطبخ تمسح إبريقا قديما. تقدمت نحوها وطبعت قبلة على جبينها وهي تقول:

– صباح الخير يا جدتي.. استفقت كالعادة باكرا!

فردت الجدة بصوت خافت:

–صباح الخير يا بنيتي. ما الذي دعاك إلى الاستيقاظ الآن؟

انكمشت الطفلة على مقعد ولم تجب. ثم قامت بعد دقيقة لتطل من نافذة بسيطة تكشف جانبا من الزقاق. يبدو الطقس عنيدا لا يخجل ولا يرعوي. ما زال يحتفظ ببرودته. أسابيع مرت وكميات الثلوج كفرو دب تدثر الشوارع وتمتزج بالوحول. كانت معتادة على أن تجلس لساعات ترقب تساقط الثلوج من نافذة المطبخ، وتبحث عن نهار مشمس

يسمح بلقاء رفيقاتها. كانت الجدة تجلس جوارها أيضا ترقب الغيوم الكثيفة وتسليها ببعض الكلمات الحانية أو بأنين الأواني أو بسعال طفيف. كانت مريم الصغيرة تبتسم في وجه الجدة دون أن تفلح في إخفاء ضيقها وتبرمها من الجو البارد.

قالت دون أن تتوقف عن مراقبة الزقاق:

– أظن أن الجو سيتحسن. شعاع يتسلل من وراء غيمة!

وفحصت الجدة الزجاج تبحث عن الشعاع النحيل المتسلل. كان الزجاج غير واضح تماما مما دفعها إلى أن تقوم نصف قومة بطيئة وتمسحه بكم معطفها الثقيل.

– أين هو الشعاع؟

فأشارت الطفلة بأصبعها الدقيق وهي تقول:

– هناك.. نقي ويبدو كمقدمة دفء سعيد!

ابتسمت الجدة، وعادت لمجلسها تعكف على الإبريق وتلحظ وجهها على صفحته. تجاعيد في زوايا الفم وأعلى الجبين. نبست هامسة:

–أرجو ذلك. فهذا يعني أنني سأخرج هذا النهار للعمل!

وزفرت بعمق قائلة:

–أيام الشتاء صعبة، وتحتاج إلى التزود.

فكرت الطفلة في كلامها. هذا صحيح. تتذكر الأيام المنصرمة التي تساقطت فيها الثلوج بكثافة وأعاقت حركة المارة في الفيلاج. كانت تقضي وقتها في الإصغاء إلى حكايا الجدة التي تخرج دافئة من فمها المثرم، أو ترنو من النافذة تتفقد الأزقة الممتلئة عن آخرها بكثافة بيضاء. كانت تفحص بقايا أقدام غاصت في الثلج المتراكم. لم تكن سوى أقدام راشدين خرجوا، على مضض، لقضاء مآرب ضرورية والرجوع سريعا إلى البيوت. كانت تحب منظر الثلج الذي يذكرها بقبعة بيضاء صافية لا تظهر إلا في الحكايات. كان يبدو

كحلم غامض أو ككتاب أبيض، وكانت في نفس الوقت لا تحب عواقبه المملة التي تجعلها غاضبة لساعات أو حتى لأيام، كأن تسجن في البيت طويلا أو تظل مظلمة النفس والطوية لا يزور وقتها شعاع.

قالت وهي لا تحيد عن ملاحظة البقايا البيضاء:

-أتمنى أن يكون هناك دفء!

الدفء ضروري كي تخرج مسرورة إلى المحلات الملونة وتنعم بالأقمشة المعروضة، تشتري ما يبدو لها مناسبا. إنها تحتفظ ببعض الدراهم التي نالتها من الجدة في مناسبات متفرقة، وترغب في إنفاقها سريعا. لقد ضاقت ذرعا بها، لكن سوء المناخ يحول دون تلبية هذه الرغبة اللذيذة. ولم تكن آمال الجدة نعيمة مختلفة كثيرا عن آمال الطفلة البسيطة. هي الأخرى لا تطمح إلا في اعتدال الجو حتى تصرف بضاعتها الفقيرة. كانت لا تعرف الراحة رغم تقدمها في العمر، تعمل وتكد حتى تظفر بالقوت.

وظلت مريم موزعة الحال بين مراقبة الدفء المتسلل والجدة العاكفة على عملها. النقود تستقر في جيب معطفها الشتوي القديم؛ قطع معدودة لا تدري إن كانت ستمكنها من اقتناء شيء ذي بال. لكن تجعلها تحلم. يكفي أنها تحلم وتدفئ أخيلتها. ورنت من خلف النافذة تفحص أضواء صباحية ناعمة كشفت مساحات ضبابية. ثمة حركة غير معتادة تدب في الأزقة. لاحظت أن أفرادا اغتنموا فرصة الدفء الواهن فخرجوا متطلعين متفائلين. وظهر أشخاص أربعة بملابس موحدة في الزقاق حدست أنهم عمال البلدية، عكفوا بنشاط على جمع الثلج من الطرقات حتى تتمكن العربات من العبور. هو الدفء اللذيذ الذي بزغ كيقظة الربيع المفاجئة. عادت الحركة إلى الأزقة. لم يعد السكون يخيم على الفيلاج. أشعة قوية مزقت طبقة البرودة فاندثرت الكآبة البيضاء.

والتفتت الطفلة بسرور إلى الجدة التي نظرت من النافذة إلى البهجة الطارئة. بدا وجهها مشرقا، وزينت ابتسامة ثغرها المجعد.

– لقد أشرقت الشمس أيتها الجدة الطيبة! أرجو أن يدوم ذلك طويلا.

فأطرقت الجدة رأسها موافقة، ورددت:

– أرجو ذلك!

وكأن الجدة استفاقت للتو. دب النشاط في أعضائها وتركت الأواني جانبا، وأعدت بضاعتها الفقيرة هي عبارة عن ملابس الخردة. وكانت تهرع إلى الشباك تطمئن على حالة الجو، تخشى أن يطرأ تغير غير محمود يحطم آمالها. نقلت الطفلة بصرها بين النشاط الذي تعرفه الأزقة وحماس الجدة التي سألتها:

– ألن تستغلي الوضع وتذهبي إلى المدرسة؟

لقد انقطعت عن الدراسة بسبب المناخ السيئ. طقس قاس لا يستحمله جسدها الصغير. كان المدرسون أنفسهم، وهم عبارة عن موظفين غرباء من المدن، يتخلفون عن المجيء معتذرين عن ذلك بسبب الطرقات المسدودة والمسالك التي يتكدس فيها الثلج. وكان الأطفال الصغار يجدون في تخلفهم فاكهة لذيذة وتسلية مفيدة لا تختلف في قيمتها عن قيمة العلم، فالأمر في الأخير يعني: الجلوس في البيت قرب الموقد والإصغاء إلى الحكايات التي ترويها الأمهات والجدات، والتي تخلق الدفء وتوقد قناديل عواطفهم. لم تكن الجدة تدخر جهدا فيما يخص هذا الأمر، فهي تروي العجيب من الحكايات فتصغي إليها منبهرة حالمة. وها هي تذكرها الآن بالمدرسة التي هي ذكرى تشبه لسعة نحلة. إنها سعيدة الآن بالشمس الطرية، وترغب في جولة شهية بعيدا عن تعب التحصيل.

أجابت متكاسلة:

–لا!

وهزت الجدة كتفيها كأنها تقول لها: كما تشائين. وبعدما فرغت من جمع أشيائها، اتجهت خارج المطبخ بالبضاعة:

– أراك لاحقا.

وردت الطفلة:

– مع السلامة.

سَمعت أنين البابِ الخشبي. غادرت الجدة. لم يكن ممكنا مشاهدتها في الزقاق تحمل بقجة الملابس، لأنها تسلك اتجاها لا تطاله النافذة. الأشعة لا يعتريها كدر، وسواعد العمال عاكفة على تنظيف الطرقات. ثمة عربات بخيول تعبر وضجيج أناس يتصاعد. الأطفال تشجعوا وخرجوا إلى الأزقة يبحثون عن بقايا الثلج للتراشق. قالت لنفسها ينبغي أن تغادر حالة الخمول، وتتشجع كغيرها، وتلقى أشعة دافئة طيبة.

في الزقاق الممتد، وطأت بقدميها الصغيرتين بياضا طريا. دهست قطعا ثلجية آخذة في الذوبان فأحست ببرودة تتسرب إلى قدميها عبر نعليها القديمين. لم تبال بالأمر ففي شعاع الشمس العزاء. رمقت مظاهر الفرح الخجولة، ابتسامات تلوح وتحايا تتردد وأشعة تتسرب. وتوجهت صوب المحلات التجارية التي تعرفها تمام المعرفة. تحسست قطعها النقدية لتطمئن. أحيانا تخاف أن تختفي نقودها بفعل فاعل خفي لا تدري كنهه، كالعفريت مثلا أو الروح الشريرة أو الساحرة التي تزمجر في قصرها البعيد. ولذلك فهي لا تطمئن إلا عندما تتفقد نقودها وتجدها مستقرة آمنة في قعر الجيب. وفحصت محلا يعرض ملابس زاهية ودمى تثير الخيال. فكرت فيما تملكه من نقود. لا شك أنها لا تكفي لشراء دمية. الدمية الشقراء ذات الملابس الملونة والنظرة الهادئة، فانصرفت عن الدمى بحزن لا لون له، وكان حزنها طفيفا كعصفور حزين يبحث عن قوت ولا يجده.

ونسيت حزنها سريعا حين استوقفها جراب جميل يلوح من خلف زجاج الواجهة. ركزت بصرها على الجراب المصنوع من قماش مطرز برسوم، هي عبارة عن أرانب وزهور وردية وبنفسجية. وتصورت نفسها كرسم جميل ينمق الجراب البسيط، أو أنها تتأبط الجراب وتجول به في جنة عامرة بالثمار. أحست بإحساس غريب هو أقرب إلى السرور والدهشة. لقد فتح الجراب خيالها على دنيا دافئة عامرة بالألوان، وتمنت لو تحصل عليه بما لديها من نقود. ليس بجراب بسيط. انه أشبه بمعرض دنيا طفولية أو سيرك صغير منقوش على لوح خشبي لطيف الملمس. ولاح لها شخص يتحرك في المحل، يرتدي سترة أنيقة وعلى ملامحه آثار الدفء والكسل. هو صاحب المحل بلا ريب. وجيه المنظر يتباهى بسلعه المعروضة التي تمارس فعل السحر على المارة، فتجذبهم جذب المغناطيس للحديد. دفعت الباب الزجاجي متشجعة. وبمجرد ما خطت الخطوة الأولى حتى أحست بدفء المكان. حدجها الرجل مرتابا، فاستجمعت قواها وسألت:

– كم ثمن ذلك الجراب؟

لا يصدق ما تقوله. كلامها: تراب تلقيه في الجو، فيعمي الأعين. اعتبر كلامها مجرد مناورة لصة تنصب له الفخاخ. سأل بصوت خشن:

–أي جِراب؟

فأشارت بأصبعها إلى واجهة المحل حيث الأشياء معروضة تحت إضاءة خفيفة:

– ذاك. المزركش بألوان مضيئة. ألا ترى تلك الأرانب المصورة؟

وشرحت بأسلوب حماسي:

–الزهور والدببة! أقصد ذلك الجراب المطرز بالرسوم الجميلة.

فقال التاجر غير مهتم:

–بخس الثمن، ورغم تفاهة الثمن فلا أظنك تملكينه فاذهبي الآن!

وكنوع من التحدي بسطت قطعها النقدية أمامه تعدها بافتخار:

–وهذه أليست كافية؟

عدها سريعا بعين خبيرة، ثم سأل متشككا:

– من أين حصلت على هذه القطع؟

مرتاب لأن منظرها يوحي بالفقر. يظنها شحاذة شاحبة تتأبط الباب والأزقة، ولو كانت حسنة الهندام موردة الخدين لظنها تنحدر من عائلة ميسورة، ولخالها زهرة تتفتح في نهاية غصن!

– هل سرقت هذه النقود؟

أحست بالغضب يعتريها. إهانة لا مبرر لها. وهتفت محتجة:

–وهل هذه الدراهم القليلة تستحق أن يمد إليها الإنسان يده؟ إنها ملكي.

توقف البائع المغرور للحظة يفكر. كانت آي الدفء واضحة على خديه. ألقى نظرة شاردة يتابع عابرين داسا بقايا الثلج، ثم مضى إلى الجراب يهز كتفيه في لامبالاة.

أحست بشعاع يغسل وجهها. لقد حصلت على الجراب المنمق. تحسسته للحظة وقلبها ينضح بالأمل والتفاؤل. رسوم جميلة موزعة على زواياه. أرانب تنط ودب باسم وزهور مختلفة الألوان. مشت بخطى متأنية. الجو صحو والغيوم البيضاء لا تثير أي توجس. وتابعت السير ترمق الوجوه الباسمة على سطح الجراب. ليس بقماش بسيط تمر عليه الأعين مرور الكرام. إنه لافت جدا بألوانه الموزعة بين الأحمر والأصفر والأخضر والكستنائي. حديقة مثيرة تدعوها إلى التخيل والسفر والحلم. داعبت قدمها بقايا الثلج وتأبطت الجراب. كانت يدها الصغيرة تشبه عنق سنجاب أبيض فاجأه ربيع متوتر. قالت لنفسها: إن الجراب قادر على أن يقي حلمي من هبات الريح!

وبعد سير يسير، انتهت إلى حديقة الفيلاج، حديقة ألفت رؤيتها خلال التنزه أو أثناء ذهابها إلى المدرسة. هي أفقر بكثير من حديقة الجراب، فارغة كئيبة لا تترك أثرا طيبا ولا يمكن أن يسعد بها الأطفال. بعض الشجيرات تقوم في الوسط باهتة، وتتوزع في الجنبات مقاعد حجرية مبللة لا تصلح للجلوس. كانت مكانا يوحي بفراغ قوي كاسح أشعرها بالوحدة. مشت على العشب تعبث ببقايا الثلج، وإذا بها تتوقف للحظة كأن شيئا أجبرها على التوقف. لقد انتهت إلى أسماعها أنات متقطعة تشبه إلى حد ما خشخشة الأوراق. لا ليست خشخشة. إنها أشبه بنحيب خافت. ومشت ببطء تنظر ما بين الأشجار المتوالية عبر الحديقة في غير ما اطراد، حتى لمحت جانبا من مقعد خشبي قديم، يجلس عليه طفل صغير في مثل عمرها أو أقل. كان منكفئا على نفسه يشهق. يا للصغير المسكين! انفطر قلبها. ترددت في الدنو منه. ثم تقدمت أخيرا منه تسأله بفضول:

–ما بك؟

وكأنه تعرض للدغة عقرب فانتفض جسمه:

–من أنت؟

مجعد الشعر، يملك عينين سوداوين تعكسان سحبا حزينة تعبر فوق سطح كوخ.

–لا تخف! أنا مريم... سمعتك تبكي..

نظر إليها مليا، وأشاح بوجهه بعيدا. لا يرغب في الكلام أو لا يرغب في أن يواسيه أحد. دموع طفل يشهق. يتألم وسط حديقة فارغة. فكرت في أمر الجراب الذي تتأبطه، ووجدته مناسبا جدا، ليس فقط لجمع الثمار الطرية بل لجمع الدموع الصافية. ولم ترد أن تثير فيه مشاعر البؤس، فنظرت بعيدا تهمله قليلا وتقدم له فرصة ليلملم كيانه.

– وما اسمك؟

لم يستسغ تدخلها في عزلته. هي عزلة بكاء. نظراته تشي بانزعاجه. واضح ذلك من خلال حركاته المتشنجة. لكنه أجاب باستسلام:

-حسام.. لماذا؟

ابتسمت وتشجعت بإجابته:

-حسام!

و دنت أكثر منه. علق العشب بخفها فقذفته بحركة مضحكة. جلست قربه على المقعد الخشبي. لا تستطيع حقا التعرف على نوع الشجرة التي تكرمت أمس ومدت النجار بالخشب كي يصنع المقعد ويقدمه لبلدية الفيلاج! كان المقعد مبتلا. الخشب لم ينشف بعد. لا شمس في الأفق أو ربما شمس باردة تنظر باستحياء.

سألت بعد تردد:

-نلعب؟

-كرة الثلج؟ لا.. أحس بالقر.

يبكي بسبب البرد. البرد شوك وردة تشرئب بعنقها، ترغب أن تتحرر من أصيص الخزف البارد. البرد يعض عظامه ولا يفصح عما يعتريه. خجول أكثر من اللازم أو معتد بنفسه أكثر من اللازم.

ولم تشعر إلا وهي تتخلى عن جرابها بحركة بسيطة عفوية. نزعته عن كتفها الصغير برفق. بدا الدب على سطح الجراب باسما. ربما يبتسم لها!

- لا داعي للحزن.. سنجمع الثلج في هذا الجراب. سنجمع الأحلام والضحكات أيضا!

نظر الصبي مندهشا. أحس بحرج خفيف أشبه برذاذ المطر أو غبار صيف نثرته ريح. قال كأنه لم يفهم ما تعنيه:

– ما هذا؟

– سنجمع الثلج فيه.

– الثلج؟ شكرا.. ..

تحسس الجراب. ناعم الملمس. جراب الصياد الذي يغامر من أجل السماء المقبلة. الأرانب والدببة والزهور في غاية البهاء. منذ مدة لم ير مثل هذه المشاهد الملونة. حتى أحلامه التي تداهمه في نومه باهتة. في الحلم قد يرى نفسه يبكي ويذرف دموعا. دمعته عتيقة كصورة بالأبيض والأسود. الجراب، وبخلاف الحلم، يعرض حديقة غنية لا مثيل لها!

– نلعب؟

ابتسمت مريم. راقبته. رددت بفرح:

– نلعب!

# الجِريمة قد تطل من الكأس

كانت ليلة السبت عند المحامي المرموق: شريف الريسوني ليلة مختلفة تماما عن باقي الليالي. استلقى على الأريكة المريحة في بار المطحنة الصغيرة، وظل يفكر في أحداث يومه التي طالت وتمططت كمادة لينة تستجيب لعنفوان يد خزفيٍّ خفي. وركز أحداث اليوم في حدثين اثنين مزعجين لا غيرهما: الكناس الصباحي المنحوس والزائر المجنون الذي زار مكتبه. وهذان الحدثان بلا مبالغة ولا غلو هما سبب الكرب الذي هو فيه، والذي تعمق وازدادت وطأته بسبب حرارة غشت المشتعلة، حرارة لم ترحم أعصابه حتى أوشك أن يصف يومه الحار بيوم القيامة، وذهب به الخيال حد الشطط، فاستحضر فرن جهنم الأبدي العتيق الذي تتطاير شرارته، فترهب الناس جميعا بدون استثناء!

كانت الحرارة مفرطة بالفعل. لم تكف الشمس الملتهبة عن جلد ضحاياها بسادية. بدت الكائنات البشرية التي صادفها توشك أن تتبخر، أو كأنها معرضة لنيران قاسية في حفلة شواء. كانت الأنفاس تتزاحم والأجساد تنحشر في الملابس بصعوبة، والكلمات تخرج من الأفواه كأسماك ميتة يلفظها البحر؛ ممزوجة بروائح كريهة تثير القرف والاشمئزاز.

ورغم أن الليل قد حل بأثقاله، إلا أن الحرارة حافظت على مستواها بعناد. سرى هواء في الجو، لكنه سام وخشن يلفح الوجوه. وجال ببصره في البار الفسيح الذي يعج بالكراسي والطاولات والمرتادين، ولوح للنادل كي يحمل إليه النبيذ المحبوب ويروي ظمأ وحشيا يحرق أحشاءه. هذا البار ملاذه في المساء. عندما ينهي شغله يهرع إليه حتى يهنأ بجلسة مريحة بعيدا عن الضوضاء ومشاغل الحياة. ويفكر في أن ما يجعله متعلقا بهذا البار هو طبيعة زبنائه: رجال أعمال محترمون أو موظفون بلغوا شأوا بعيدا أو أطباء مشهورون. وكانت سعادته بهم وبالمكان، لا تعني السعي خلف إنشاء صداقات اجتماعية معهم. لقد ظل بعيدا عن كل هذه الاحتمالات التي لا تروق له، وفضل المحافظة على راحة بيضاء وبال خال من تعقيدات العلاقات الإنسانية. كان يكتفي في علاقته بهم بالتحية المجاملة

أو الابتسامة الودود أو تلويحة اليد الممتنة. حتى النادل أو البارمان لم يوطد علاقته بهما. حرص كثيرا، وعن وعي، على أن تظل المسافة نفسها بدون تقليص. مسافة بيضاء محايدة لا تقلصها تحية أو ابتسامة مودة .

وزفر في ضيق.أطياف اليوم المشحون تحاول أن تغزوه، وهو يقاوم مقاومة مستميتة تكشفها تقلصات ملامحه. فحص قدح النبيذ والقارورة التي وضعها النادل. غالبا ما كان يتضايق من مشاكل عش الزوجية، وهو عش جاف يخلو من الحنان، لأنه ابتلي بزوجة تنهكه بالكلام والثرثرة. أما اليوم فهناك كرب آخر شديد يضايقه ولا يرغب في تذكره ولا حتى البحث عن وسيلة عملية للتخلص منه!

وشعر بالحرارة تشتد. ولم تكن حرارة الصيف بل حرارة من صنف آخر انبثقت من بطنه حارقة وصعدت حتى مست دماغه، بعد أن أتى على كامل القدح بجرعة واحدة. أحس وكأن عبئا ثقيلا بحجم متاعب الدنيا ينزاح عنه، وتراقصت همومه أمام عينيه كفراشات ربيعية. بدت همومه منفصلة عنه لا تمت إليه بصلة، وبدأت الأشياء في التحول السحري لترتدي لباسا سارا بهيجا. ترى كيف حصل هذا؟ كان ينفخ قبل قليل متأففا. كان يغزل ثوب الضيق بصبر من لا يطيق نفسه. أما الآن فالأمر مختلف. كل المتاعب الجهنمية أخذت تشحب وتضعف حتى اختفت مخلفة غموضا جميلا. انتبه إلى مرتادي البار الذين يتحدثون حوله، يتبادلون قصص النهار، وهي قصص كلها ويا للغرابة! ترتدي ثياب المسرة بلا استثناء. قصص لا تحمل قي طياتها حزنا ولا غما ولو كانت طبيعتها محزنة! للخمر قوة هائلة جبارة، قوة التحويل والعبث بمحتويات الأشياء. الحزن نفسه يسكر ويرقص! الشكوى نفسها تنتهي بفرقعة ضحك! وبدت زوجته في حقول خياله بلباس صيفي تنتظره على السرير، وبعد وقت ليس باليسير يحاصرها اليأس فتستلم وتنام. لم يعطها فرصة للشكوى. هذا أمر حسن وممتاز! ابتسم وكاد أن يضحك. لقد انتقم منها بغيابه

عن البيت. منعها من ممارسة حقها في التعبير وتكدير صفاء روحه! وتساءل في نفسه: هل كل هؤلاء الذين يترددون على الحانة، يعيشون نفس مأساة الزوجة التي لا يهدأ لها بال حتى تحول المائدة إلى مأتم ونواح؟ نعم، لعلهم كلهم مساكين لا يجدون راحة ولا نعيما إلا في حضن الطاحونة التي تستقبلهم أحسن وأجمل استقبال. وانتبه لأول مرة في حياته إلى اسم الحانة. كاد يصرخ بسبب الاسم. وجده غريبا يعج بمفارقة. والغريب أنه لم ينتبه إليه في حالات الصحو الطويلة. ها هي الخمر ترقص في عقله مشاغبة، وتدله على محتوى الاسم العميق. ألا ما أعجب تأثيرها! تفتح نوافذَ في الروح. تنبه إلى أشياء تغيب عنا في اللحظات العادية. لا بد أن من فكر في هذا الاسم عبقري فذ. صاحب الحانة عبقري استعار الاسم من آلة الكون. الكون طاحونة ضخمة تطحن الإنسان دون أن تبالي بآلامه. الإنسان لاشيء في منطق الكون الجبار. مجرد نفاية حقيرة على رصيف المجرات. وندت عنه قهقهة استجابة لخاطره العجيب حتى لفت انتباه الجالسين قربه وضحك بعضهم تعقيبا على قهقهته. لم لا يناقش اسم الحانة معهم، ويشاركهم تصوره الذي توصل إليه أو بالأحرى اكتشفه؟ لأن اسم الحانة موجود سابقا كقانون الجاذبية ونظرية كروية الأرض، وكل ما فعله هو أنه اكتشف دلالة الاسم كما اكتشف نيوتن الجاذبية! سيناقشهم ويميل برأسه عجبا وغرورا، وسيتحدث عن الزوجات والمجرات والنفايات الكونية. لكنه تردد وأحجم. عاد إلى صمته رفقة قدحه، وقال مفكرا: ها هنا في هذا المكان؛ بار الطاحونة الصغيرة يتم طحن الكائن البشري بكامل همومه ومشاغله، وخلق كائن جديد لا يعرف حزنا ولا تعبا. ها هنا فقط تتحلل جثث الأحزان. من كان يظن أني سأحصل على هذه المسرة؟ من كان يظن أن هذا اليوم الشاق المليء بالمحن سينحل في ذهني كسحابة طرية ويختفي. وتذكر الأحداث، وما تحمله من مخاوف، فبدت تافهة كفقاعات الماء لا وزن لها. الطاحونة بأقداحها المجيدة تطحن كل شيء.

وطاف بخياله حول الحدثين المزعجين المرتبطين ارتباطا وثيقا، وكأنهما صورتان متجاورتان في كتاب صور عتيق. تذكر الكناس الذي صادفه صباحا والزائر المجنون. لقد أصبح الكناس الذي خلف امتعاضا في الصباح، أصبح بفعل كرباج الخمر الذي لا يرحم، في غاية التفاهة والحقارة. تخيله ممتقع اللون يهرول مفزوعا ويختفي خلف شجرة صغيرة. كانت أقدامه رثة كأغصان يابسة، يكنس الغبار وعلى وجهه ابتسامة شاحبة. أضحكه المشهد المتوهم، وانتقل متشجعا إلى مصدر كربه الثاني وهو الزائر المجنون ذو الشارب الكث الذي اقتحم مكتبه كزبون، ولم يكن سوى حشرة مزعجة تنفث سموما. واستحضر حكمة قديمة مضمونها: اضحك مما يثير هواجسك واسخر منه! وقد نفذ الحكمة حرفيا، دون أي تعديل أو تخفيف من بريق فائدتها، فجعل يعبث بالشخص المجنون عبثا ما بعده عبث، مستفيدا من حيوية الخمر. كان شارب المجنون الكث يهتز كذيل حيوان تافه بفرو خشن، وفي لحظة ما وجد الذيل الحيواني يندس في قدح النبيذ الذي يحتسي منه، فضحك غير مصدق خياله، وقال لنفسه: لقد سكرت!

وكجزء من الاستهانة من الحدثين البغيضين، استعاد شريط يومه مستغرقا في التفاصيل المملة. لقد علمته الخمر، أن يرى أحداث يومه كما هي، تمر أمام عيونه مسالمة لا تترك فيه انفعالا ولا عصبية. أن يكون محايدا يتفرج على أحزانه الكثيرة ويسخر منها وكأنه لا شأن له بها. وهكذا تذكر استيقاظه مبكرا دون حاجة إلى منبه ينتزعه من ملكوت النوم. ألقى على زوجه نظرة حذرة؛ فوجدها كقربة سمينة تغط في نوم عميق، واعتبر نوم الكائنات فضيلة وجودية؛ تقينا من الوقوع في الكثير من المواقف. وتخيل بالمقابل سكرتيرته منى الصالح تحمل إليه فطور الصباح بلباسها المغري والابتسامة ترقص على شفتيها والعطر المتوحش يسبقها؛ فشعر بحيوية دفعته إلى مغادرة المنزل سريعا. على أن هذه الحيوية لم تستمر طويلا؛ فقد اصطدم بالكناس في الشارع. كان في الحقيقة يتشاءم منه ولا يستسيغ

أن يقابله باكرا. ورغم حداثة عقليته إلا أن بعض الحوادث التي عاشها بعد مصادفته الكناس جعلته يربط بينها وبينه معتبرا إياه شخصا منحوسا. ومن بين هذه الأحداث: أنه خسر قضية سهلة لا تتطلب مجهودا، تسمر في المرافعة أمام القضاة الثلاثة كالأبله وابتلع لسانه كأنه يعاني من الحبسة. وفي حادثة أخرى، انحرفت سيارته الجديدة عن الجادة، وكادت تصطدم بشجر السرو لولا الألطاف الإلهية. ومرة ظل مكتبه فارغا طيلة اليوم بلا زبناء ولا حتى ضجيج القطط الذي يعرفه سلم العمارة، وهي حالة لم يسبق له أن عاشها طيلة مشواره المهني.. وأمام الحوادث المتكررة، لم يجد شريف الريسوني من طريقة مثلى غير أن يتجنبه. لكن يبدو أن حذره الزائد من إيقاظ زوجته جعله يغفل موعد الكناس ووقع ما وقع.

كان ظل الكناس منسكبا على الأرض كبقايا نفاية. كان ظلا بنتوءات حادة كمكنسة قديمة، أو كلحية راهب قروسطي لم تعرف موسى الحلاقة. توجس المحامي من وجوده. لم يلق التحية أو ينظر ناحيته. أهمله بعنف، وتمتم:

-اللعنة! كيف غاب عني أمره!؟

أحس بخبث الكناس الذي استشعر، على ما يبدو، تهربه. ثمة ابتسامة بلهاء تسقط من محياه أرضا وتحدث صدى جارحا. ابتسامة وقحة كجرة تنكسر. سمع المكنسة تتحرك فوق الرصيف ببطء، والغبار يتطاير. تعمد حركة المكنسة. يا لها من إساءة يرفض قلبه مغفرتها!

وفي السيارة، كان عقله يحاول مضغ الإساءة. إن مجرد ارتمائه صباحا على رصيف مروره إساءة لا تغتفر. عادت إلى ذهنه مجموعة الحوادث التي كان سببها النحس فوجف قلبه. ترى ماذا ينتظره؟ ماذا في الأفق؟ لم يستسلم للخواطر. حاول أن يكون عقلانيا. محرك السيارة سليم، وثمة زقزقة عصفور قادرة أن تبعث الأمل في سمائه، وعطر منى الشيق.؟

أجل عطر منى قادر على كنس نحس الدنيا، ولا يجب أن يغفل العزاء الذي يقدمه بار الطاحونة الصغيرة.

وانطلق بسيارته صوب المكتب حيث داهمه عطر السكرتيرة. شعر بانتعاش. بيد أن تفاؤله جف عندما لاحظ اضطراب منى غير المبرر. وفي المكتب، وجدها قربه تهمس باعتذار:

-هناك شخص في الانتظار.

فالتفت إليها مندهشا، وكأنه يسأل كيف؟

- أصر على انتظارك!

كانت منى تضع نظارتين أنيقتين وترتدي تنورة قصيرة تنحسر عن ساقين مدمجتين. زفر مندهشا:

-زبون؟

-لا أدري. هو شخص أنيق الهندام ولا يظهر عليه مظهر رجل قروي!

أغلب الزبناء من الريف يفدون من أجل شكاوى ساذجة تتعلق بالأراضي والأملاك، نزاعات متفرقة هنا وهناك: سرقة بقر. ماعز يقتحم حقلا في ملكية آخر، ملاسنات أفراد تنتهي بالملاكمة، الخ ..قال حازما:

- إذن دعيه يدخل.

كان الزائر طويل القامة، مستطيل الوجه ذا شارب كث، يرتدي بذلة سوداء أنيقة وكأنه في حفل زفاف. ولج الحجرة وهو يلقي تحية مبعثرة، وجلس على الكرسي دون استئذان واضعا رجلا على رجل، واندفع يقول كالسيل:

- يا أستاذ! أنا قصدتك في مسألة.

هذا إذن سر ارتباك السكرتيرة. كان وقحا معها أكثر من اللازم. لا يبدي احتراما ولا ينتقي ألفاظه بحرص شديد. ترى ماذا يخفي وراءه؟

-نعم ..أنا في الخدمة. ما الخطب؟

وانطلق الرجل يكيل المدح والثناء بلسان ثرثار. تكلم عن المحاماة كحرفة تجارية وقال: إن المحامي يعمد إلى صناعة اسمه بشتى الطرق، لا يخجل ولا يرعوي ولا يتصف بالذوق والشرف. اسم المحامي مثله مثل تلك اللافتة الصادمة التي تعلقها الشركات التجارية تصدم المارة برائحتها وألوانها. يعكف العامل على كتابة اسم الشركة بعناية. يصبغ، يمحو، يعدل، يعيد تركيب الحروف كطفل مدرسة الابتدائية. يكرر الخطوط مرات ومرات مستعملا الألوان البهلوانية: اللون الأزرق والأخضر وحتى البرتقالي.. والغاية الجليلة: أن ينطبع اسم الشركة في ذاكرة الناس، أن يستقر كطحلب بحري. وفكر شريف الريسوني في مغزى الكلام وفي الخبث المندس في العبارات. الرجل أنيق وكلامه مليء بالمتاهات. فهل يقصده في مشكل عائلي؟ هل هو نجل أحد الوجهاء سقط في ورطة ويبحث عن حل قانوني؟ ونظر إلى الرجل يشجعه على التعبير دون مواربة. لكن الرجل استمر في ثرثرته. حكى عن الكيفية التي اهتدى بها إلى المكتب. اسمه يلمع في سماء المقاهي والنوادي، ويتردد على الأفواه كما تتردد الأذكار والصلوات. أراد الريسوني مقاطعته بلباقة، لكنه أبى أن يهمد واستمر يثرثر. واعترف الرجل أخيرا، أنه إنسان بسيط، وليس من ذوي الأملاك، ولا يحمل قضية أساسا، ومشكله الوحيد انه ليس غبيا حتى تنطلي عليه خدع المجتمع!

وفي أسلوب أشبه بالهمس قال:

-هذه البذلة التي تراها. أتظنني تكلفت عناء ثمنها. كلا.. لقد سرقتها من أجل المقابلة! مقابلة محام محترم في مكتب محترم يقتضي بذلة محترمة!

واندهش الريسوني من جرأته . لم يخجل من السرقة. تذكر الكناس وظله. أي نحس هذا؟ أيكون نحس الكناس قد تجلى في هذه الزيارة المشبوهة؟. وضحت حقيقة الرجل. لص لا يتورع عن الاعتراف والافتخار

– لم لا؟ من حقي أن أحظى ببذلة محترمة. أن أتمشى في الشارع الرئيسي ناعما بالأضواء. أن آكل أفخم الأطعمة في أفخم المطاعم. يا أستاذ! كلنا نتيجة بطن متكورة. فلم هذه الفوارق وهذه الحظوظ؟

وكأنه حدس أن المحامي سيذكره بالقانون، فأضاف باستهتار:

–لا تضخم الأمور! إن المسألة لا تحتاج إلى تمويل. الفقير سجين حتى ولو كان خارج السجن. هذه مجرد بداية فقط. وسترى عجبا!

ولم يدع غرابة إلا وعاج عليها بمكر. كان في كلامه الغريب كفنان غريب ينقب عن القمامة الغريبة أينما كانت ويجلبها معتزا. قفز يمينا ويسارا في حديثه. بدأ ظل الكناس ينسكب على عشب الوقت. النحس دائرة تضيق، فمتى ينتهي الزائر من هلوسته؟

وظهر أنه سيفصح عن هدف زيارته، فهمس بحذر:

– أرغب في استشارة قانونية. معلومات فقط. وأنت أستاذ قانون وأدرى ببواطن القوانين.

فسأله المحامي وهو يزفر:

–حول ماذا؟ تكلم !

لكن الرجل عاد يطنب حتى دار رأس المحامي. ولولا النسمات الطازجة التي جادت بها الصبيحة من خلال شيش النافذة لصرخ مغتاظا. ضبط أعصابه أمام الرجل المجنون الذي اتهم أرباب القانون بالفساد والانحلال والتفسخ، وقال: إن نجاح المحامي كامن في ذكائه، وفي الاحتيال على القانون!

وظن الريسوني أن الرجل يومئ إليه بوقاحة. وسمعه يختم محاضرته بتهكم:

– ما المحامي إلا محتال آخر و احتياله قانوني !

واستطرد مؤكدا:

– سرقت بذلة.. أما المحامي فيسرق أمة بالقوانين!

وبدت نظرة اعتذار في عينيه الضيقتين، وكأنما لم يقصد سوءا وتساءل :

–ما الجريمة في نظر القانون؟

وشرح المحامي رأي القانون في الجريمة مصمما على إنهاء الزيارة، إلا أن الرجل لم يلتفت إلى محاولته:

–لك جزيل الشكر. لكن لم توضح لي الحيل والألاعيب.

وقال المحامي في نفسه متأسفا: يا له من يوم لا ينتهي! أما كان من الأفضل أن يكون هنا قروي ساذج يحمل شكوى بدلا من هذا الثرثار الذي لا يعرف أدبا ولا حدودا. عادت إليه ذكرى الكناس المنحوس. أشفقَ على نفسه من الأوقات المقبلة. النهار لا زال في بدايته. إذا كان الصباح بمثل هذا السوء، فكيف تكون الظهيرة؟ تصور شمسا ملتهبة كوحش ناري تقترب ناقمة من رأسه. وقال: هو الكناس لا ريب. ولحظ الرجل مرة أخرى وأف ضجرا.

– أليست هناك جريمة كاملة؟

فقال المحامي:

–قطعا لا !

–والجرائم التي قيدت ضد مجهول؟ مخافر الشرطة تزخر بتلك الملفات. اسمع يا أستاذ. صحيح أنه ليس هناك جريمة كاملة ولكن ليس هناك محقق كامل أيضا، وأمر الإفلات من

العقاب وارد جدا. ينبغي للمجرم أن يتحلى بصفة البرود الجليدي. أن يكون صقيعا بشريا، ولا يأتي بأفعال حمقاء!

فسأله المحامي بصرامة:

–وماذا تريد بالضبط. ؟. لقد أتعبتني بأسئلتك الغامضة.

ابتسم الرجل ابتسامة غامضة وقال:

–لاشيء البتة. لكن ما رأيك في هذا العرض؟ أن أكون مجرما، وإذا سقطت في الشرك وفرت لي أسباب النجاة.

وانتفض المحامي مستغربا:

– ماذا تقول؟ ا أنت مجنون؟

تدارك الرجل الأمر بعد أن وجد احمرار سحنة وانعقاد حاجبين. ضحك ضحكة مفتعلة ملطفا الجو:

–اهدأ يا أستاذ! أنا أمزح.. أصغ إلي ولا تنفعل. إن السجن ليس بالأمر العسير. هو أشبه بالإقامة في فندق. كم من المتسكعين يرغبون فيه بأنفس ظامئة.

يتمتع بذكاء حاد وان بدت أفكاره ملفوفة بالجنون. يعرف ما يقول ويصيب الجرح بدقة. تذكر بعض الآراء الفلسفية الهدامة التي اطلع عليها في المرحلة الجامعية عندما كان يقرأ نيتشه وكامو ودو ساد وصمويل بيكيت.. بعض الأفكار تشبه إلى حد ما أفكار هذا الرجل المجنون. فمثلا عندما تكسر قانونا وتدخل السجن فأنت تتحرر من ذلك القانون. أنت حر تماما وإن كنت تقبع خلف القضبان. أفكار مؤرقة جدا تتعب العقل والروح، كان قد طردها في ذلك الوقت، لأنها تهدم كل شيء وتشيع الفوضى في أرجاء الكون. ولو حدث وتسربت إلى الواقع فستكون كارثة بحق!

وطفق الرجل يحكي كراديو عتيق:

-طف معي بخيالك! تصور شخصا مريضا في الفراش، يتقيأ دما ويسعل بشدة. سعاله أشبه بحشرجة متقطعة؛ يوقظ العيال في الليل والزوجة ساهرة. عيناها متعبتان تغالبان النوم وترنوان بحزن إلى المريض. الشحوب نال منها إلى درجة أن أعضاءها الهشة لم تعد تحتمل المزيد. الحجرة بسيطة للغاية، وآثار الفقر تسم الزوايا..

وصمت للحظة يبحث عن أثر كلامه، وسأله بخبث:

-ماذا لو تأخرت المرأة في تقديم جرعة الدواء؟

حدق شريف في محدثه ذاهلا:

-لا ريب أنك مجنون. إنها جريمة قتل!

تساءل الرجل في هدوء:

- ومن يكشف الجريمة؟ سيطويها النسيان ولا أحد سيدري.

فقال المحامي مصمما:

-ولو!

-ولكنه راحة للمريض والزوجة والعيال.

واضح انه يؤمن بتلك الفكرة التي تقول: يمكن أن تنهي حياة طفل إن هو أزعج منامك ببكائه. يا للفظاعة! من أرسل هذا المجنون حتى يحملني على سماع كل هذا الهراء. هاله الأمر. كبرت الأفكار في رأسه حتى غدت بالونا ضخما يشرف على الانفجار. الرجل ذو شهية كبيرة يتحدث عن الجرائم وكأنه يتحدث عن أعراس، يصور حالات قاتمة لا تنتهي. وداخله ريب تجاهه.

-تصور معي..

وسرد قصة عجوز بلغ من العمر عتيا، تقوس ظهره حتى كاد وجهه يلامس الأرض، تتقدمه في الطريق عصا متآكلة، يشحذ الموت من خلال النظرات المتعبة. وتساءل بدهاء:

– أليس الموت أرحم؟

ولم يحتمل المحامي المزيد. هم أن يصرخ في وجهه لكن الصراخ لن يقضي على الحشرة التي تقضم جزءا من الحائط. أسمى وسيلة هي الصمت. إنه مجنون ولن يقبل بالرحيل إلا إذا وجد ما يقهر جنونه. وصمت المحامي. نصب لوحة سوداء. تكلم الزائر وتكلم. أبدى خيارات مرعبة، لكنه لم يبادر إلى الرد. الرد حماقة لن والصمت تعليق غامض. جدار فعال يصطدم به المجنون ويعود أدراجه. وانتهى الرجل من كلامه يائسا. ازدرد الريق. الكلام. الحماقة. الجرائم التي يلفظها. أخذ يحملق في الهواء غير مصدق. وقام منصرفا.

وتنفس المحامي الصعداء. كانت الأفكار المرعبة قد نالت منه. استرخى يجفف جبينه المتصبب عرقا بمنديل ورقي. حتى عطر منى لن ينجح في التخفيف عنه. بدا العطر جثة. ودخلت منى تحمل ملفات كان قد قرر مراجعتها لكنها وجدته منهكا على الكرسي. حدست أن زيارة الشخص قد عكرت صفوه. العبق له مخالب غير متوقعة. كم مرة وقع فريسة لهذه المخالب، ومنى تعرف جيدا فتنتها. لكن أين هي الروح التي تتذوق الفواكه. وقفت بقوامها الجميل أمامه، وتمتمت بخجل:

–أستاذ! أ أنت بخير؟

–لا روح لي للاشتغال اليوم. ضعي الملفات! لا أريد لقاء أحد. أريد البقاء لوحدي!

ورددت بقلق:

– أأنت بخير؟

– لا تقلقي. سأكون بخير.

وعندما همت بالمغادرة، قال لها:

–يمكن أن تنصرفي.. سأبقي وحدي!

مبلبل القوى أمام جمالها الفتان. أحس بنوع من الذنب. كم كان قاسيا معها، لكن ما العمل؟ ولم يدر هل يوجه اللوم للكناس أم لنسخته الثانية: المجنون المجرم. النحس عملة واحدة مهما تغير لونها. الظل الذي يبتلع كل شيء بشهوانية غير معهودة. المكتب يبدو كصحراء فارغة. وتمنى لو يتوقف عقله عن التفكير، ويغوص في ظلام يحجبه عن نفسه وعن أفكاره.

كم الساعة الآن؟ هل غفا؟ الظهيرة تلونت بلون حزين ككتلة من الرماد، . لقد انصرفت منى مستسلمة لهجره المؤقت كما تستسلم العصفورة الكسيرة. وفكر في زوجته دون أن يعرف لماذا. كان البيت فيما مضى كالجنة التي أسرت لب آدم، وكان الزواج رائعا بحق، ثم حلت المأساة حين تكور بطن زوجته وانخرطت في الإنجاب. أهملت نفسها بغباء، ترهلت، واستسلمت لنهم الأكل. وقارن بينها وبين منى التي تشتعل في ذهنه كالوردة، فوجد فارقا بحجم السماء، وقال في نفسه: حتى منى لو سلكت نفس المسلك من الزواج والإنجاب فستنتهي إلى نفس الهاوية! وقال بيقين: إن أكبر جريمة يمكن الحديث عنها بمنتهى الوضوح والبداهة هي الزواج، ولو اضطره الأمر لوقف أمام أكبر المحاكم وأعرقها في العالم ليدافع عن العزوبية بشراسة ولديه من الأدلة ما يكفي ليسكت القضاة والدعاة!

وعاد إلى صورة زوجته البائسة يبحث عن مسؤوليتها. تذكر كيف كانت تمطره بوابل من الأسئلة التي لا يواجهها حتى المجرم في قسم البوليس، وأصبح الرجوع إلى

البيت بمثابة موعد نقار وشجار، وقد استعاض عن المشاحنات بالجلوس في المقاهي والمطاعم والحانات.

وقرصه الجوع. قرر أن يلبي نداء الغريزة المبحوح فغادر المكتب. مر الوقت في مصادقة الغبار والخواطر المنهكة، وهاهي العشية تلقي بظلالها، والحرارة لا تخف وطأتها، وكأنها عدو لا يقهر. قصد بسيارته مطعما اعتاد أن يؤمه.ولاحظ أن النادل قد احتاط منه أو نظر إليه نظرة حذر بسبب مظهر العصبية والتوتر. كان المطعم فارغا إلا من زوجين: رجل وامرأة تبدو عليهما حالة غرام وعشق جديدة. تأملهما ولم يحس برومانسية تغويه أو تثير غيرته. إنه متعب جدا ولا روح فيه. جثة تتحرك وتطلب بعض القوت من باب العادة.

وتناول سلطة وشرائح البطاطا المقلية وقطعة لحم، وكان رأسه يدور والعرق يتصبب من جبينه. الأفكار تتوالى. يمضغ الطعام بنرفزة ويشرد بعينيه. ينتظر بفارغ الصبر موعد بار الطاحونة الصغيرة حتى يفرغ نفسه من كل هذه المحتويات النفسية: الكناس والمجنون والزوجة والحرارة. عاد يفكر في زوجته المترهلة التي لا تتقن إلا الانتقاد. بدا وجهها غائبا في النوم. انتفخت وصارت أشبه ببرميل ولم يعد للأنوثة حظ في جسمها.لقد فضح النوم محياها فبدا شاحبا كريها. وتذكر صوت الرجل المجنون يكيل المدح للجريمة ويجملها بمفردات رنانة، فخطر له خاطر شيطاني: أن يهوي على رأس المرأة بقوة. تصور نفسه حاملا مقبضا حديديا، يهشم الجمجمة ويغرق الراقدة في بركة دماء. وارتاع من المنظر فقفز من مكانه وكأن الأمر حقيقة لا خيال. رباه! كيف فكر في هذا؟ شعر بالاشمئزاز من نفسه وهوى باللائمة على الشيطان الذي زار عقله المضطرب، ودس فيه شراشف ملطخة بالجريمة والدم.

وغادر المكان هربا من أفكاره الجهنمية. قاد سيارته كالمصاب بفاجعة، وقصد الحانة التي وجدها غارقة في البهرجة والأضواء. وحدها الخمر تطفئ هذا الظمأ وتسدل النسيان على الهموم. خففت حرارة النبيذ توتره. عامت الصور المزعجة فوق سطح وعيه كقوارب خشبية مهترئة. كانت مشاهد اليوم تتوالى خفيفة فارغة. طحنت الخمر كل شيء أو وسمت كل شيء بميسم الدعة والكسل. تآخى الحزن مع الفرح. لم يعد ثمة خصام أو شجار بينهما. هي ذي معجزة الخمر: أن تسمو النفوس ولا تلقى بالا إلى التناقضات. هكذا قال لنفسه وهو يحدق في السكارى، ويفحص مادة خياله ضاحكا. حتى الكناس الذي كان يقض مضجع الروح رآه يكنس الظل ويعانق المجرم المجنون في نهاية الطريق. أما منى السكرتيرة فما أعجب وضعها! تخيلها تذهب مع زوجته للتسوق وتعودان بمنتهى الحبور. لقد أصبحت البراءة جريمة والجريمة تداخلت مع البراءة!

وفرغ البار إلا من بعض السكارى. لم ينتبه للوقت يجرف كل شيء. أصبحت المقاعد فارغة والنادل يحثه على المغادرة من خلال نظراته الدالة المتكررة. حمل نفسه بتثاقل، ومضى وهو يهمس: يا له من يوم! ويا لها من ليلة! وبسيارته توجه إلى البيت مستسلما لتيار هوائي لفح وجهه عبر زجاج النافذة، ساعده على استعادة رباطة الجأش والقيادة ببطء. كانت الشوارع في معظمها شبه فارغة، حتى انتهى إلى شارع عامر بأشجار القيقب تصطف على الجانبين، ليرى في نهايته جمعا غفيرا وسيارة شرطة وحواجز ومتاريس. ترى ما الخطب؟ هل هي حادثة؟ اضطرب قليلا. تذكر أنه سكران وخفف أكثر من سرعته. فرمل على مقربة من شبح شجرة متدلية الأغصان وترجل من السيارة متقدما من المتجمهرين يقوده الفضول والقلق. وكان يفحص الناس بعيون حذرة متثاقلة، ويحدق في سحنات شاحبة مذعورة. ظهرت النساء ملتحفات ملابس

النوم. زعقت أصوات هنا وهناك. وأثار انتباهه رجل تائه تدل حركاته المضطربة أنه قد التحق مثله للتو، ويبحث عن تفاصيل الخبر. كان يقف على الطوار ببذلة زرقاء باهتة، ويشرئب بعنقه يتقصى. ثم رآه يتقهقر إلى ركن وكأنه قد ظفر بما يريد. ولم يدر إلا وهو يدنو منه ببطء ويسأله بصوت ثقيل:

–ماذا حدث؟

خاف أن تتسرب رائحة أنفاسه المخمورة وينفضح أمره، لكن الرجل لم ينتبه لشيء. أجابه بانفعال:

– جريمة قتل. تم تشويه الجثة ولم يعرف لحد الآن من هو الجاني!

فحص شريف الريسوني قسمات الرجل. ذهل. خيل إليه في لحظة مشحونة بالشك أنه يرى وجها مألوفا، وجها مستطيلا يطل منه شارب كث يسخر منه!

# القبو

-جن الرجل أو كاد!

هكذا قالوا عنه في القرية. ولم يكن النقد ناجما عن ثرثرة أو رغبة مرضية في الانتقاد، بل نتيجة ما شاع عن سلوكه من غموض وغرابة لا يستسيغها العقل. لم يكن سلوكه منتظرا من شخص مثله يحترم القواعد ويحرص أيما حرص على أن يكون سلوكه اليومي محفوفا بالشكر والتبجيل. فما الذي حدث للمحسن الوقور الذي لا يرد سائلا ولا يخيب محتاجا؟

كان السيد حمزة من أعيان القرية عَطِر السيرة لا يذكر اسمه إلا مختوما بالدعاء. أما الآن فقد بدا أشبه بجدار متهالك ينهار وسط عاصفة من الأتربة. وقد قال الناس معلقين:

-لعل رحيل زوجته المفجع من خرم عاداته الطيبة. إن المرء ليكون في حال طيب، ثم يعرض له عارض من عوارض الحياة وخطوبها، فينقلب انقلابا غير منتظر ويتهاوى كبناء كان يظن به الصلابة.

والحق أنه بدا في المأتم متماسكا لا يلفظ بشكوى أو ينبس بكلام مهترئ. كتم حالته كجدار صلب، ووقف أمام منزله الفخم كعمود خشبي، لا يبين عن شيء؛ يمد يده المعروقة يصافح المعزين المتقاطرين على البيت، وينبس بعبارة غامضة تسقط من فيه كفتات الخبز. وكان صوتُ المقرئ العجوز يترامى من البهو مجللا بالكآبة والحزن، وولولة النساء المتقدة كالنار تعمق الإحساس بالرحيل الرمادي.

وبعد فترة العزاء، انطوى على نفسه وكأن الحزن نال منه، فلم يطق أن يرى أحدا أو يصادف زقاقا. حدس الناس أن تلك الصلابة التي ارتداها في الجنازة والمأتم لم تكن هي الحقيقة. ارتدت هزة الصدمة محدثة شقوقا في بناء الرجل، فانسحب يقاوم الانكسار ويتمعن في آثاره على نواحي حياته. لزم بيته لا يبرحه. بيته الكبير ذا الحديقة الواسعة المفعمة بعطور الليمون، والتي تزينها أشجار باسقة تسهب في نسج بساط من الظلال.

كانت حديقة بيته الوحيدة في القرية، تتميز طوال العام بخضرتها الآسرة، وكان السيد حمزة يرى فيها جالسا؛ يجيل النظر أو يحتسي القهوة، رفقة حرمه التي لم تخلف له ولدا. وبعد أن أخذ الموتُ العزيزة، هجر الحديقة ونعيمها، وهجر حتى نزهته اليومية بين أزقة القرية.

ثم أتت الأخبار الكالحة، تقول إن الرجل لم يكتف بعزلته الجرداء ولا بحالة الخراب النفسية التي يعيشها، بل طفق يبيع أملاكه للغرباء بأثمان بخسة لا يصدقها عاقل. ولاحت هواجس سوداء في الأفق أشبه بغربان جائعة، وظهرت تساؤلات جمة لا تهدأ. ترى ما هدفه وما الذي يزمع عليه؟ هل ينوي هجر المكان إلى غير رجعة؟ لم تعد القرية ذلك المكان المنعزل الذي تحاصرهُ التضاريس الصعبة، وتحول دون انفتاحه على الأماكن الأخرى. لقد خرجت من صمتها منذ أن شق خط سككي حديث طريقه بحذائها. فكيف يترك موطنه الأصل الذي هلت عليه بشائر الخير والبركة ويعيش كمنفي غريب؟ هل يهرب من ذكريات الفقيدة؟ هل ضاق ذرعا بالأخيلة الماضية التي تحاصره أينما ذهب؟

وسرت الهمسات في استطلاع دون أن يظفر أحد بالخبر اليقين. وظل الترقب حاضرا كذئب حذر يسكن الأخيلة. ولم تعد أنباء الرجل حبيسة المقهى وجدران البيوت، بل وصلت إلى المقدم، ممثل السلطة في القرية، الذي فحص الأخبار المتربة بنفس مرتابة لا تثق في شيء. نظر إلى الخبر من زاوية قانونية صرفه أو من زاوية ما تم تلقينه في جهاز الأمن. رأى أن الأمر يستدعي التدخل السريع حتى يحاصر الأخبار والتكهنات التي قد تغدو مع الوقت إشاعة مرضية. لقد شعر بالقلق، والقلق الأبدي جزء من مهمته. إن أذنه بتجاعيدها المختلفة، تستطيع أن تلتقط وقع خطوات نملة، فما بالك بخطوات أقدام البشر التي تهز الأرض هزا. القلق استراتيجية لا غنى عنها للوقاية من المصائب التي يمكن أن تقع أو لا تقع! وقال المقدم في حنق: لا ينقصنا في هذه القرية إلا الجنون! لقد خاف أن يستمر الرجل المكلوم في غيه ويفوت أملاكه للغرباء الذين قد يعيثون فسادا، وتصبح القرية

بؤرة خطيرة تفوح منها الاضطرابات والفوضى. أجل، إن الأمر هادئ الآن، والقرية بحيرة سليمة المياه معافاة الأفق، ولكن حاسته المحترفة استشعرت خطرا محتملا قد يقع ويجعل المنطقة كلها أمام كارثة سوداء، خصوصا وأن بعض القرى المجاورة قد عرفت بلاء سببه توافد الغرباء. وبعد أن كانت آمنة، ظهرت خمارة فيها وانتشرت المخدرات بين الشباب ونشأت بيوت الدعارة.

ولم يضع المقدم دقيقة واحدة، فقصد المنزل المطوق بالحديقة. انتظر ريثما أبلغ الخادم سيده، وعاد سريعا يقول في أدب جم:

– تفضل. سيدي قادم بعد لحظات!

وكان المنزل فخما يشي بالثراء. ثريا ضخمة تتدلى من سقف منقوش. أثاث فاخر يترجم ما يرفل فيه الأرمل من رخاء، وعلى الحائط استقرت لوحة كبيرة نقشت عليها البسملة بخط فارسي مذهب. شرد المقدم في اللوحة طوال انتظاره على الأريكة، ثم سمع وقع أقدام ثقيلة. ها هو السيد حمزة يهبط السلم الخشبي المصنوع من شجر الزان ببطء وتؤدة. بدا أكبر بكثير من عمره. التهم الحزن قدرا لا يستهان به من صحته وعافيته. الشحوب والإعياء واضحان على قسماته. صافحه دون ترحيب على غير العادة. وقال المقدم بشكل عملي:

– معذرة على الإزعاج! لكن الاتصال بك ضرورة لا غنى عنها.

دعاه الرجل المفجوع إلى الجلوس بحركة من يده، فتابع المقدم كلامه بعبارات قصيرة أشبه بالمواساة:

– أنا أقدر الموقفَ الذي أنت فيه.. لكنك رجل مؤمن بالله؛ فصبرا جميلا!

وتمتم السيد حمزة شاكرا بكلمات أقرب إلى الهمهمة. الصمت متراس عسكري يحتمي به الرجل المنكوب من هجوم عدو متوهم. مغلق أمام أية محاولة لتلطيف الحدث. لم يتراجع المقدم عن محاولة اختراق الجدار. هذا عمله الذي جاء من أجله. قال:

– الحق أنها أملاكك لكن السلطة، أعني المخزن له رأي آخر فيما يجري. فأرجو أن تتفهم سبب الزيارة.

فهم السيد حمزة مغزى الكلام. لا يمكن للسلطة أن تتحرك هكذا بشكل مجاني. إنها تخطو خطوات محسوبة وتحصى حتى عدد الأنفاس! هكذا هي في كل العصور والأزمنة: أذن كونية تتجسس، ويد تبطش بقسوة. اعتبر الكلام استفزازا لا يتقبله طبعه العزيز، أو سهما موجها إليه بوقاحة. هتف محتجا:

–ماذا تقصد يا المقدم؟ كل أموري قانونية لا غبار عليها، وأنا أدفع الضرائب ولم يسبق لي التملص كما تعرف.

قال المقدم بسرعة متجنبا إثارة الغضب:

– سجلك لا غبار عليه. المخزن يعرف ذلك تمام المعرفة.

وبهدوء:

– أقصد تفويت أملاكك للغرباء.

فحدجه السيد حمزة بنظرة عميقة قبل أن يسأل:

– وما العيب في ذلك؟ من حقي أن أبيع ما أملك. هل يريد المخزن أن يرثني في أملاكي؟

واعتدل المقدم في جلسته يشرح:

– إني المسؤول الأول عن أمن القرية وطمأنينتها، ولا أريد أية نسمة هواء تقلق طابعها. أنت تعرف أنك ببيعك العشوائي هذا قد تسبب أزمة أمن، والبلد الذي يغيب

فيه الأمن لا قيمة له أبدا. إن الخوف أخطر من الجراد الذي يغزو الحقول. الجراد يقلق حبة قمح، أما الخوف فينهش الروح! أخاف أن يفد الغرباء ويدمروا كل شيء. أنت تعرف الجشع والقيم الشريرة. الناس هنا أقرب للطافة الهواء، وأخشى أن تتكدر النفوس، ويقع المحذور!

فقال السيد حمزة وهو يزفر:

– إنني أحرس الناس على طمأنينة الأهالي وأنت أدرى بذلك.

–لا شك عندي في ذلك، أنت إنسان عاقل، ولكن التحذير واجب!

وتابع فيما يشبه العطف وهو يهم بالمغادرة:

– لا تدع الحزن ينال من حكمتك ويدفعك إلى التهور. تسلح بالعقل تسلم وتسلم القرية!

ورغم التحذير الملطف الذي حمله ممثل السلطة إلا أن السيد حمزة لم يتوقف عن بيع أملاكه ضاربا بكل تحذير عرض الحائط. شراهته ورغبته في التدمير زادت وتأججت كنار في العراء. أخذ يستقبل الزوار الغرباء. يبيع ويؤجر ما يشاء من أراضيه. لم يكن سلوكه الأرعن يعني أمام الناس غير شيء واحد: أن الرجل ينوي التخلص من كل شيء بما في ذلك المنزل الكبير، وربما لن يبقي إلا على بعض أسمال تحفظ عورته، ونعل قديم يسوح به في أرجاء البلاد كشحاذ بائس أو قط مشرد.

وتزايد الزوار الغرباء. أصبح من المعتاد أن يراهم المرء يتقاطرون على البلدة عبر القطار، يعاينون الضيعات الشاسعة، ويلجون المنزل الكبير لمقابلة السيد لمفاوضته.

ووقف إمام الجامع على أديم مبلط بالحجارة يفحص الغرباء وتمتم خاشعا:

– اللهم احفظ هذه القرية!

كانت مشاعر الناس تجاه ما يقع متضاربة موزعة بين السخط والخوف. احترموا الرجل لأنه لم يسبق له أن أظهر تجاههم عيبا أو أحدث شنآنا، وكانوا يحفظون مودته ويتذكرون أفضاله الكثيرة على الفقراء منهم. لكنهم استهجنوا في نفس الوقت أفعاله عندما جعل الأغراب يفدون على قريتهم الهادئة. الأغراب يثيرون الخوف، ولا يمكن الاطمئنان إليهم. قد يحملون في ملابسهم شرورا لا قبل لهم بها، وتمنوا أن ينتهي الرجل من سلوكه، ويدع القرية تعيش بسلام. تمنوا لو ينظر الرجل إلى حياته بتعقل، ويكف عن بيع أملاكه، بل يستعيد ما باع منها في أقرب الآجال بقلب نادم ونفس تائبة.

واستيقظت القرية ذات صباح على ضجة أشغال وبناء. هجم مجموعة من العمال بملابس الشغل. بمعاول وآلات حفر هجموا، وانخرطوا في عمل دؤوب كأنهم مكلفون بعمل عاجل لا ينبغي التسويف فيه. تلقى الناس الحدث الغريب بخوف وقلق متزايدين.حاموا حول مكان الأشغال الذي لم يكن سوى ضيعة تابعة للسيد حمزة، وتساءلوا بقلق إن كان قد فسح المجال للأغراب كي يشيدوا بنايات مجهولة ستخدش سماء القرية الهادئة. ولم يشعروا بالاطمئنان إلا بعد أن قال لهم المقدم:

– لا داعي للقلق! الأشغال خاصة بالسيد وقد جلب رخصة البناء.

وسأل أحدهم عن طبيعة العمل. لكنه لم يجب، وهز كتفيه وكأنه يهون من الأمر.

كانت الأشغال تتم تقريبا بشكل يومي. يفد العمال عبر القطار وينشغلون بالحفر المتواصل دون أن يكشفوا الهدف الحقيقي من هذا الفعل وهذا النشاط. وكان السيد حمزة يخرج إليهم عصرا بوقاره المعهود، يلاحظ مثابرتهم مستحسنا ويكلمهم للحظات ليتأكد من وضوح تعليماته قبل أن يعود أدراجه. كان خُروجه المتكرر أشبه بقماش وكانت نظرات الأهالي التي ترمقه مندهشة متسائلة أشبه بإبر حادة تخرم سطح القماش لكنه كان لا يحس

بشيء. كان غائبا غيابا تاما عما حوله أو مستغرقا في نفسه استغراقا عميقا يعيش كزاهد داخل أسوار نفسه ولا يتجول إلا في حديقة نفسه المسورة بالضباب والغموض.

وكان المقدم بصحبة إمام الجامع، عندما همس بأسى:

– جن الرجل!

فنظر الإمام إليه نظرة ذات معنى، وقال في فضول:

–لا بد أنك تعرف سر ما يفعل!

وتردد المقدم. صمت لهنيهة قبل أن يقول في حذر:

–لقد حصل على رخصة إنشاء قبو، ولكن لا أظنه للغلال.

فسأله إمام الجامع في دهشة:

– من أجل ماذا إذن؟

قال المقدم في حيرة:

–لا أدري. ولكن الظلمة ستنجلي.

وردد في حزن:

– خسارة! كان رجلا ذا مهابة وأصابَ عقله شيء.

– نطلب دوام الستر!

ولم يرتح المقدم ولا عرف راحة. كيف يعقل أن يخفى عليه أمر الرجل وهو الذي يعرف كل شيء ولا يخفي عليه شيء؟ هو الذي يستطيع أن يثقب الجدران ببصره ويعود باللب والخلاصة التي تشفي. فكر بمرارة: من يصدق أن الأحداث تقع هكذا تحت حواسه ولا يعرف حقيقتها وهو العليم الخبير ببواطن الأمور؟ يا له من زمن جديد لم يحسب له حسابا! إن حواسه لا تهدأ أبدا. إنها كالبحر تطال أمواجه السماء. قديم جدا هو قدم النجوم والكواكب في هذه المهنة يكسب منها لقمة عيشه، وليس بالموظف المبتدئ الذي

يتدرب و يتحسس جدران التجربة. هو محترف بكل ما في الكلمة من معنى، لا تعوزه الخبرة الضرورية لاستخلاص أحشاء الناس والأشياء. يحس ويجوس. يتحرك بمكر الثعالب وخفة الذئاب، وجميع الناس، بدءا من الأطفال إلى الشيوخ، يقيمون له ألف حساب، لكنه حائر الآن بفعل الضباب الذي يغلف كل شيء. يحس بعجز أمام ما يجري. لأول مرة يحس بمثل هذا الشعور يغزوه. إنه لا يعرف ماذا يدور في خلد السيد حمزة. أموره كلها قانونية بما في ذلك بيعه لضيعاته أو عرضها للإيجار، وحتى أشغال البناء التي أثارت امتعاضا وبلبلت العقول لم يحد فيها عن جادة الصواب. لقد أنجز كل الرخص القانونية. وقال إنه سيشيد قبوا. لكن لأي غرض؟ في الأمر لغز يتعب عقله. فهل يستحق القبو كل هذه الجلبة وكل هذا العناء؟ أليس حريا به وهو في مثل هذا العمر، مقدم على دود القبر أن يلزم الجامع كعابد ورع؟ لماذا سيحتاج سيد في مثل وجاهته إلى قبو؟ لم يسبق للمقدم أن واجه مثل هذا الظلام ولا سبق له أن غرق في مثل هذه الأسئلة المربكة. إن أسياده في جهاز الأمن ينتظرون بفارغ الصبر أن يطفئ نهمهم وتعطشهم إلى الأسرار، أن يحمل إليهم كل ما يروج ويجول في النفوس. الأخبار عبارة عن مائدة يجلس حولها أصحاب الشأن كي يتناولوا طيبها ولذيذها، ويتحدثوا في سياسة البلد وشؤونها!

وجعل يحوم قريبا من مكان الأشغال عله يجلو الالتباس والحيرة. كان يبحث عن أية فرصة ممكنة لحل اللغز. تارة يجلس في المقهى أو يقف عند البقالة، وتارة أخرى يقتفي آثار بعض العاملين عند رجوعهم من عملهم دون أن ينتبهوا إليه. كان يرخي أسماعه بحرفية عل كلمة يتيمة مبتورة تصدر دون وعي وتحمل ثلج اليقين. وأحس بالتعب من جميع المحاولات لأنها كانت بدون نفع أو جدوى. أحس أنه لا يتقدم في الموضوع خطوة واحدة. أحس وكأنه يقف في أول الطريق وقدماه ثقيلتان لا تحملانه إلى أية وجهة أو غاية. وفكر في أن يذهب إلى السيد حمزة رأسا، ويسأله مباشرة عن الموضوع ويعفي نفسه من تعب البحث

وكدره لكنه لم يشأ أن يعمق الفجوة بينه وبين الرجل. إن العجوز كاره لكل شيء يشعره أنه تحت المراقبة وأن المخزن يتدخل في طريقة تدبير أملاكه. ثم إن ذهابه إليه مهرولا بهذه السرعة قد يساء فهمه ويبدو كاعتراف واضح أن المخزن لا يعرف كيف يصل إلى أهدافه، وأن أحد رجالاته الأوفياء لم يقم بجهد ملموس كي يعتقل الأنفاس والخطوات وهذا ما لا يريده! العجوز الأرمل عنيد جدا يلتزم بالقانون حرفيا، ولا يحب أن يحدث المشاكل. هذا ظاهر جدا. لكنه لا يرغب في نفس الوقت في الجهر بغايته ولا بأفكاره. لم يكن هكذا من قبل. المرحومة أدخلته في دوامة سوداء. لم يكن منغلقا بهذا الشكل المؤسف وبهذه الطريقة الفجة. كانت جدران شخصيته تتوفر على ثقوب وكوى تسمح بتسلل الضوء وتسرب نسمات الهواء. أما الآن فهو مغلق تماما. لا شقوق في الجدار! أغلق الموت جميع النوافذ التي ينظر السيد حمزة من خلالها إلى العالم. وعندما جاء يطلب رخصة إحداث قبو طلبها بجفاء وبرود وأراد المقدم أن يستفسر، ويثير فيه غريزة الثرثرة، لكنه كان إلى الصمت أقرب. وكأنه يقول بصوت صريح صادم: لا تفاصيل عندي. لا زيادة في الكلام. هل طبقت القانون؟ هل سعيت خلف الرخصة سعي المخلص الوفي، فلا تحشر أنفك في تفاصيل القبو! وخرج المقدم من محاولته خاوي الوفاض يتمتم: الأرمل المتعنت لا يلين. صنع الموت منه زنزانة مغلقة. جدار. ولعله أسوا الجدران التي تعامل معها.

وكانت الأيام تركض كعداء يلهث من كثرة التداريب. كان بعضها مشمس يسمح بالاستقصاء وبعضها ممطر يتعذر أو يصعب معه العمل. وكان المقدم يشتغل في كلا الحالين. كان لا يعدم الوسيلة عندما تتبلل الأرضية وتغدو موحلة. يتسلح بجلبابه البني الغليظ ساعيا خلف وشاية أو همهمة. وقد استقر رأيه بعد ترقب وانتظار على أن يسأل أحد العمال الذين يشتغلون في أعمال الحفر عله يصل إلى معلومة مفيدة. سيختار العامل بعناية، وينجز مهمته دون أن يثير ريبة. ووقع اختياره على عامل بسيط تلوح على ملامحه

آي السذاجة، مظهره رث ونفسيته مجعدة، يبتسم دون سبب ويهمهم دون سبب، وتراه يكلم نفسه بصوت مسموع كمن يحكي لنفسه حكاية تسليه. وقد قال المقدم: ربما كان مثل طفل يحتاج إلى حكاية قبل النوم.

وعرف اسمه من خلال رفاقه الذين ينادونه عندما ينزوي ليدخن سجائر رخيصة من نوع فابوريت.وكان اسمه علي الحجام، وقد خمن أن الحجام هو لقب اكتسبه بسبب حادثة رسخت في الأذهان وأصبحت، مع الوقت، ملازمة له كظل. فالأسماء والألقاب مثلها مثل النباتات والأحجار؛ منثورة على الطريق. خواء لا غير، يستعمل اجتماعيا لإخفاء خواء آخر! ولم يستبعد المقدم أيضا أن يكون الاسم اسما حقيقيا له علاقة بمهنة أحد أجداده، وقد غدت المهنة لصيقة به كالكلب الوفي الذي يتبع صاحبه أينما ذهب.

وعلى أي، فالمقدم لم يقف كثيرا عند اللقب. كان يهمه أن ينفرد بالعامل ويستدرجه عبر أسئلة بريئة. ولم يكن أمر الانفراد يسيرا، بل يتطلب جهدا وصبرا وحنكة. أخذ يراقبه مراقبة الذئب للشاة. يجلس في المقهى بجلباب وعمامة رمادية تخفي النصف من رأسه. يطلب فنجان قهوة يحتسيه ببطء، ويرقب ركاب القطار بعينين ذئبيتين لا تغفلان شيئا. لقد عرف أن الحجام يأتي باكرا. يحمله القطار رفقة عمال آخرين للعمل. كانت ملامحهم شاحبة تنم عن بؤس شديد دفعهم إلى امتهان حرفة الحفر والبناء. ولعلهم وجدوا عند السيد حمزة سخاء وكرما لم يتعودوه عند غيره من أرباب الأموال، فتلفعوا بالوفاء والجد يستقلون القطار يوميا من غير تأخير ولا تماطل. وتراهم صباحا يسقطون من القطار كأدخنة حقيرة تسفعها الريح، يرتدون ملابس رثة عبارة عن معاطف مثقوبة وسراويل جينز فقدت لونها من كثرة الاستعمال. يتأبطون أدوات العمل من فؤوس ومعاول. وكان البعض منهم يحمل بقجة متوسطة الحجم تحتوي ربما على ملابس الشغل أو بعض الطعام لمقاومة التعب وتجديد الروح.

وكان الحجام لا يختلف عن رفاقه في مثل هذه التفاصيل، فهو ينزل من القطار، يلف معطفا بنيا اتقاء للبرد، يرتدي سروال جينز قصير، ويضع سيجارة فابوريت بين شفتيه معظم الوقت لأنه يدخن بشراهة. وقد خلف ولعه الشديد بالتدخين أثرا سيئا على بشرة وجهه التي بدت شاحبة أقرب إلى السمرة الشديدة تزينها بقع رمادية أسفل العينين.

كانت اللحظة الوحيدة التي يستطيع فيها المقدم أن ينفرد بالعامل هي عندما ينسحب من عمله كالفأر من الشرك، متعللا بنفاد سجائره، فيذهب إلى بقالة جليل القريبة. استطاع المقدم بحاسته الكلبية أن يعرف الموعد الذي تنتهي فيه سجائر العامل والوقت الذي ينفلت فيه من الشغل كما ينفلت العصفور من براثن غيمة. وفي المنعطف الذي يفضي إلى البقالة، انتظره بعصبية. كان وحل الزقاق صلبا قليلا بسبب أشعة الشمس التي بزغت بعد ليلة ممطرة. ها هو يعود من البقالة، وعلى وجهه علامات الرضا والاطمئنان بعد أن استل سيجارة من العلبة وأشعلها بتلذذ.

تجاوزه العامل وتظاهر المقدم انه لا يهتم بأمره، و بعدها هتف:

– يا أخ !

لم يسمع أو تظاهر بالشرود. وكرر نداءه بصوت قوي:

– يا أخ!

لو كان الرجل سلحفاة في قوقعة لاقتحمه الصوت القوي وجرحه. والتفت الحجام بعد نداءات متتالية غاضبة. الحيرة واضحة على محياه. خطا المقدم نحوه بخطوات عملية وهو يقول:

– أنت الحجام ! لكنك من الغرباء هنا.

ضحك الحجام ببلاهة وقال:

– تعرف اسمي وتقول غريب!

–معرفة اسمك يدخل ضمن عملنا.

وتابع المقدم بخشونة:

–معك المخزن.. أريد أن أتحدث معك في أمر مهم.

غيمة السيجارة مضطربة. البقع على محياه بدت أوضح. قال علي متلعثما:

.–ينبغي أن لا أتأخر.

– دقائق فقط لا غير.. . وهي مدة تدخينك سيجارة قذرة!

وعلى شكل (س) و (ج) تم الحوار الخفيف. الغيوم المضطربة. السماء التي تشبه جردل ماء في يد صبي مقهى. هذا هو الانطباع الذي خرج به المقدم. اكتشف أن الحجام شخص ساذج جدا لا يعرف شيئا عن مشروع القبو. هو يبني ويحفر فقط كآلة عمياء. أما الهدف من هذه الأشغال فهو من عالم الغيب. ولا يتعلق جهله في الحقيقية ببلاهته التي تستوطن عيونه، بل بالسيد حمزة نفسه. إنه ذئب في هذه الشؤون. زوده الحزن بمكر هائل لم يكن فيه أو من صفاته، فتسلح بالحذر والحيطة في علاقته بالعمال. احفر هنا. ابن هنا. اهدم هذا الجدار.. لكن الغاية من ذلك غائبة عن أذهانهم. قد يخمنون الغاية ويربطون الأجزاء والعناصر للخروج بفكرة منطقية، لكن محاولتهم ستظل مجرد رأي واجتهاد وتصور شائه مضطرب.

–ما هي مهمتكم بالضبط؟

– والله لا ندري. إنه كثير التعليمات: نبني جدارا ونهدمه في نفس اليوم. لا يستقر له رأي. يقول رأيا ويأتي بما يناقضه لكنه طيب وكريم.

– لكن ألم تستطيعوا أن تجمعوا الشظايا وتكونوا تصورا ما. لا يمكن أن تشتغلوا هكذا كالحمير دون فكرة. حتى الحمير تعي طريقها إلى نبع الماء!

– لكنه كثير التعليمات! لا يترك أمرا إلا ويبدي رأيا فيه، يصوب وينصح، يلكز أخيلتنا بعصا. أحيانا نشك في رجاحة عقله. إنسان طيب ولكن نظرته سوداء. جزيل العطاء لكنه لا يعفينا من تعليماته التي لا نستوعبها!

– لكنه يغيب عنكم!

– يغيب. لكن رئيس العمال لا يغيب. وإذا حدث وغاب فهناك خادم السيد حمزة الذي هو بمثابة عينه علينا. بالكاد يسمح لنا بفسحة قصيرة المدة لتدخين سيجارة، ولست الآن إلا مارقا سرقت فرصة وعلي العودة سريعا!

–لكن لا بد من فكرة. ماذا تفعلون بالضبط؟

– إننا نحفر عميقا. الفؤوسُ والسواعد لا تتعب. إننا نحفر والأمر أشبه بسرداب، لكنه سرداب غريب كسراديب الحكايات؛ مجهز ومبلط. ولا ندري إلى أين نمضي. إن كبير العمال هو الذي يتلقى الأوامر مباشرة من السيد. نحن فقط ننفذ وإذا صدرت عنا همهمة استفسار لا نلقى جوابا لكن ما شأننا نحن؟ إننا فقط عمال مساكين.

– ربما أحد العمال يعرف وأنت غافل!

– لا أدري.. علي أن أذهب.

تركه ينصرف كخرقة بالية تلكزها الريح. فر علي وكأنه لا يصدق أنه نجا. كان بعض الوحل الممزوج بالعشب يعلق بخفه الرث. قال المقدم: ليس بالبلاهة التي تبدو عليه فهو حذر متقشف في الأجوبة. الأمر واضح وضوحا تاما. هو قبو لكنه بدون غاية ولا هدف، كمصيدة الفئران التي ننصبها للنمل أو الجراد، وكالبيدر الذي نجهزه لاصطياد قطرات المطر. يعني عبث في عبث بدون أفق ولا غاية.

وعندما كان يفكر في مغزى قبو الأرمل. عرج في خياله على رئيس العمال الذي قد يتوفر على معلومات إضافية تطرد العتمة، فهل ينصب كمينا له هو الآخر؟ إنه الشخص

الوحيد الذي يسمع التعليمات مباشرة من فم السيد حمزة، ويناقشه في التفاصيل والتعديلات والنتائج والمدة الزمنية التي تلزم المشروع. نعم، كل هذا واضح. لكن من هو الرئيس؟ قد لا يرتدي لباسا مميزا خاصا به. قد يكون شخصا عاديا جدا في سلوكاته، ينتمي إلى زمرة العمال، يرتدي مثلهم ملابس الشغل المتسخة، ويقاسمهم كل شيء. قد يضحك. يقهقه. يكشر. يغضب. يتعصب. يدخن سجائر رديئة ويمضغ الأعشاب المخدرة في أوقات الفراغ.. هل عليه أن يتربص مرة أخرى بجموع العمال البائسين ويجلس في المقهى ينتظر ويسترق السمع ويختلس النظر حتى يميز بين الوجوه، التي تعيش كآبة وتعبا، وجه الرئيس؟ يا لها من مهمة شاقة! والأسوأ فيها أنه قد لا يجني منها شيئا، ويكون رئيس العمال نفسه جاهلا بحقيقة القبو.

وأعاد الكرة مرة أخرى مرتبكا. كان يحس بالضجر الشديد، لأن الموضوع طال أكثر من اللازم. لم يعد في الموضوع ما يثير الفضول. بخور سمج. مهمة تشبه قطعة لحم نتنة وضعت لقط متشرد فعافها بكبرياء. جلس في المقهى مسلحا بحذر أعمق، الكل يعرف تردده على المقهى، وتردده المحموم ليس مجانيا. انه يشتغل! هكذا سيقال عنه في المجالس، حتى جرسون المقهى يرمقه بحذر بين الفينة والأخرى. التحيات نفسها أصبحت مبللة بماء الشك. راقب الطريق بصمت عله يميز رئيس الأعمال عن باقي العمال. إنهم بنفس الحالة ونفس المظهر ولا فوارق تذكر. أسمال تتحرك. أشباح تتنزه بين الحقول مثل فريق كرة القدم في حي شعبي يحفل بالقاذورات. تتبع نفس التكتيك في المراقبة. احتساء القهوة أو الشاي الساخن والاحتماء بالكوفية البنية التي تبعد عنه البرد والنظر بعيدا إلى الأفق وطريق العمال. لكنه لم يظفر بشيء. مجرد ملاحظات بسيطة أشبه بفتات الخبز الذي يقدم لعصفور شقي في قفص.

وعرف أن الأشغال انتهت دون أن يعرف الرئيس ولا أن يقابله. لم يعد يرى أثرا للعمال. جفت المحطة ولم تعد تلفظهم واحدا تلو الأخر. هل انتهى الشغل هكذا ببساطة؟ ثم ما الذي تغير بعد كل هذا التوجس؟ وظهر أن الإنجاز المشبوه الذي أثار التساؤلات ولبد السماء بالغيوم، لم يكن سوى قبو بسيط، كما ورد في بيانات الرخصة بلا إضافة أو نقصان. على أن المقدم لم يرتح لهذا الوضوح فظل مشغول البال تخزه إبر الأفكار. كان يردد دون اقتناع: لماذا يحتاج السيد إلى قبو؟ لماذا؟ يا له من سؤال! كأنه لم يتقدم في بحثه الشاق خطوة واحدة. مازال عند خط البداية ينظر إلى غيوم المجهول. راقب. دنا من المكان بخطوات ثعلب ماكر. استفسر بدقة مبالغة. انفرد بالحجام يسأله عن الأشغال وحقيقة القبو. استعمل جميع حواسه لكنه لم يحصل على شيء. مجرد حفر لا مُجد في كهوف الصدى. وانتهى إلى أن الحل الباقي هو أن يحفر بنفسه في تربة اللغز. أن يقصد صاحب اللغز نفسه ويقف على حقيقة القبو العارية. سيفتعل زيارة تفقدية كروتين حكومي معتاد. قد يجفل العجوز من رؤيته لكن لا بديل عن ذلك بعد أن تعب كما يتعب قط من مطاردة فأر، وكما يتعب صياد من ملاحقة حجل عنيد في متاهة الغابة. سيقصده بثبات وعلى وجهه ابتسامة باردة هي قناع بارد يخفي حرارة الفضول الذي يسكنه منذ البداية، وسيضحك قائلا باستخفاف كمن لا يعنيه شيء: أتعبتنا يا رجل! ما هذا؟ قبو!

وقد أصبحت الزيارة إلزامية بعد أن ترامت إليه أخبار جديدة لا تقل حماقة وجنونا عن سابقاتها. أخبار أقلقته تفيد أن السيد حمزة يقضي معظم وقته في القبو. اندهش لما سمع غير مصدق. ما الذي يفعله الرجل في الجحر؟ ما الذي يخفيه عن العالم بالضبط؟ هل بلغ به الجنون هذا الحد وهذا المستوى؟

وذهب عصرا. اعتدل الجو وتخفف من ثقله الرمادي. ثمة غيوم بيضاء غير مقلقة. وجد مكان الأشغال كما كان قديما، لم يفقد سمته السابق. الأرض ما زالت مستوية، وثمة قبو غير واضح؛ سورته شجيرات وأعشاب. كان أشبه بقبر خفي إذا لم يعلم بوجوده فلن يهتدي إليه، وإذا علم فسيظنه قبرا انزرع فجأة في التربة. دنا ببطء يتفحص القبو ويفحص كل ما حواليه. القبو بدون حارس، مزود بباب حديدي صلب يتوفر على فتحة للتهوية. كيف يمكن ولوج هذا القبر؟ هل من الممكن أن يعيش إنسان هنا؟ حتى الجرذان ستعاف ذلك! انحنى قليلا متشبثا بحجارة وأعشاب حتى يتمكن من طرق الباب. كان برما يلعن في سره الظروف التي أقحمته في هذا البحث المجنون. طرقات خفيفة كجرس إنذار ونفسه يعلو وينخفض كالمصاب بالربو. لم يجب أحد. لكنه لم يلبث أن سمع وقع أقدام متثاقلة حدس أنها أقدام تصعد سلما يصل القبو بالباب. انفتح الباب المترب عن وجه السيد حمزة الذي بدا في عباءته البيضاء أشبه بميت في كفن.

ونظر العجوز إلى زائره مستغربا كأنه لم ينتظر زيارة. لم يدع له المقدم فرصة أن يجفل أو يحتج. عاجله بالتحية:

-أهلا سيد حمزة!

ثم بسخرية مريرة:

-مبارك الدار الجديدة!

وقدم رجلا بدون دعوة متسللا إلى الداخل، مستحملا صعوبة هندسة الباب. ولى الشيخ الأدبار يتبعه الضيف متعجبا. هبطا السلم الحجري. المكان غريب حقا. لم يكن قبوا بالمعنى المتداول للكلمة، بل هو حجرة أرضية فسيحة ذات جدران مطلية بالطلاء الأبيض، وعلى الجدار بسملة عتيقة تشبه تلك التي يملكها السيد في منزله الكبير لكنها ليست نفسها بسبب الظلال النحيفة الزائدة التي تحف بالخط البديع. كان ثمة مصباح

يسكب نورا صافيا أضفى على القبو مسحة خاصة قريبة من الجو الروحاني. وانتبه المقدم إلى الحصيرة التي تدثر الأرضية والخوان النحاسي المستقر في الركن. انتبه إلى بعض الأواني البسيطة التي لا بد يستعملها الرجل الغريب في مسكنه الجديد.

سأل المقدم باستغراب:

-أ تركت المنزل الكبير من أجل هذا الجحر؟

جلس السيد حمزة ببطء يناسب عمره. تربع على الحصيرة بجلال. لم يكترث لكلام الاستنكار والاستهجان الذي صدر عن ممثل السلطة. قال بهدوء:

-هو منزلي منذ اليوم!

فقال المقدم معاتبا:

- أتعبتنا بسلوكك. ما معنى كل هذا؟ ومن سيقضى أغراضك في الخارج؟

-البركة في الخادم. يحرس المنزل الكبير ويزوريني يوميا.

فقال المقدم بصراحة:

- سلوكك نشاز في القرية. ربما أثار فعلك ردا!

إن العجوز لا يعنيه في شيء. مجرد مجنون لم يصبر أمام رحيل زوجته فأصابت لوثة عقله لكن ماذا لو تأثر الناس بنزعته الغريبة وانسحبوا مثله من الحياة إلى أوكار كهذه؟ ألا يمكن أن تتعطل الحياة وتتأثر المصالح؟ ألا يمكن أن ينزعج السادة في مجلسهم الأثير لأنهم لن يجدوا على موائدهم المسائية أخبارا يتسلون بها؟ السادة يرغبون في شيء واحد: أن تظل الحياة روتينية باردة لا تغير من أقنعتها. مجرد وجه يتكرر بدون تعب. أن تظل هكذا لا تحمل أفكارا جديدة تؤثر على عجلة الأيام. مجرد طاحونة أبدية تطحن المخلوقات.

ولم يشأ أن يفضي بمخاوفه إلى الرجل العنيد الذي قال باستخفاف:

-لم أقم بما يريب. وأنا حر في أملاكي!

يعتزل ويردد: لم أفعل ما يريب. يأوي إلى قبو أرضي يتذوق فاكهة العدم ويردد: لم أفعل ما يريب. فكرة جوفاء لا تطرب عاقلا! وتطلع المقدم إلى السلم الذي يفضي إلى الأعلى؛ كان متعرجا شيئا ما. ضاق ذرعا بالرجل وبأقواله وبات ينتظر فرصة مناسبة ليغادر.

وقال السيد حمزة وهو يدير وجهه ناحية الجدار كمن يرغب في إنهاء الحوار والزيارة:

– أنشأت القبو لأعيش فيه بقية أيامي. وإذا حدث ولم أخرج إلى دنياكم، فاعلموا أني أستريح في قبري!

# رسائل غريبة

تناول مدرس اللغة العربية سي العربي جريدته الصباحية. كان يمصمص شفتيه كعادته كأنه يمضغ الصمت وينتهي منه كوجبة شهية. كان النادل، وهو صبي أشعث الرأس، قد وضع القهوة أمامه وانصرف تاركا إياه في عزلته الصباحية المعهودة؛ يتأمل الصمت أو يقلب أوراق الجريدة عله يجد فيها ما يحرك جمرات الفكر أو يقلق ذهنه المتعطش. لم يعد يطيق الجريدة، لأنها لم تعد تتطرق إلى مواضيع فكرية دسمة؛ فهي ملآى فقط بأخبار الساسة الفاشلين الذين يمضغون الكلام ويلوكونه بدون جدوى، أو بالأزمات الاقتصادية التي تحدثها الحروب والنزاعات المختلفة حول العالم. لكن رغم امتعاضه الشديد واستيائه الحاد من الأخبار المملة والمواضيع المقرفة إلا أن العادة؛ عادة تصفح الجريدة التي رافقته لسنوات طويلة تربو على الحصر، جعلته يفشل في الإحجام عن طلبها من الكشك وتصفحها تصفح المهتم المثابر. كان ثمة أمل طفيف يعتريه كلما رأى الصور الملونة على الصفحات والكتابة العمودية المغرية التي تذكره بالأمجاد الخالية؛ أمل لا يندثر بكرور الأيام والسنين في أن يعثر على ما يريده وما تشتاق إليه روحه. وكان يهرع بعيونه إلى بعض الصفحات التي تدعي الاعتناء بالأدب والثقافة ليقرأ عن أخبار الكتب الصادرة حديثا، وعن جديد الإبداع والنقد الأدبي. كانت هذه المقالات الأدبية، حسب ما يقول، ذات مستوى رديء. لم تعد، وللأسف الشديد، كما كان عليه الحال في السابق، عندما كانت ترعاها أقلام لامعة مشهورة تتحف القارئ وتشبع نهمه الفني والفكري. لم يعد يصادف إلا أقلاما تافهة لا صلة لها بالأدب إلا من حيث العناوين المجانية. إنتاجات بذيئة وتحليلات سمجة يفوح منها الغباء كرائحة كريهة تنبعث من سلالم بيت قديم.

وأثناء تصفحه للأعمدة هذا الصباح، وقعت عيناه على زاوية صغيرة كتبت أعلاها كلمة رسائل؛ فظنها ركنا خاصا ببريد القراء التقليدي يشرك القراء على نحو ديمقراطي سطحي في برامج وقرارات الجريدة، لكنه كان مخطئا تماما، فالأمر غير ما ذهب إليه ظنه

وتخمينه. كان المقال متعلقا بحادثة طريفة جميلة يمكن وصفها، دون غلو، بالأدبية. واقعة حقيقية وفدت من وراء البحار والمحيطات وقعت بالولايات المتحدة الأمريكية. قرأ سريعا خبر معلمة نفذت فكرة غريبة وممتازة أثمرت دهشة وسحرا. حاولت المدرسة الأمريكية بعبقرية نادرة أن تغوص في أخيلة صغارها بالفصل، وتفحص أفكارهم وتصوراتهم الطرية حول الله. الأفكار التي لم يمسسها بعد التلوث الحضاري والتلوث العقائدي والتعصب المذهبي. الله: هذا الوجود الغريب الذي نسمع عنه منذ نعومة أظافرنا، ويبدو لنا غريبا لأول وهلة كغيمة أو سحابة مجهولة المنبع، ثم سرعان ما نألفه بتوالي الأيام والسنوات والصلوات؛ حتى يصير بديهيا في حياتنا لا تعتريه نغمة شك أو ريب.

فحص السي العربي الفكرة. مضغها ذهنه المتوقد كما يمضغ اللحم فاستساغها. يا لها من فكرة رائقة كالنسيم، جميلة كورود الصباح! طلبت المعلمة من تلامذتها أن يخرجوا من سياج حدائقهم المجتمعية إلى فضاء أرحب وأنقى، ويكتبوا رسائل بريئة إلى الله ليعبروا عن أمانيهم الطفولية، ويطرحوا أسئلتهم العفوية الصادرة عن قلب أبيض ملائكي لا علة فيه. وجاءت الرسائل مذهلة غاية في الإبداع، تقترب، في صفائها وسلاستها وجدتها، من إبداع عمالقة الأدب. وقامت المعلمة قبل أن تفيق من دهشتها وسرورها بنشر بعض الرسائل في مجلة أمريكية معروفة، وهي التي نقلت عنها الجريدة التي يتصفحها.

وتذكر سي العربي، أن فكرة رسالة إلى الله قد راودته هو نفسه قديما لكن لم يحدث ذلك في طفولته المتربة. في الطفولة لم يكن ممكنا أو واردا أن نفكر في البريد السماوي الذي يتجاوز السحب والنجوم والمجرات بسبب طبيعة التربية القاسية والأفق السائد الذي لا يتجاوز مستوى عتبة المنزل. كان أقصى الخيال: التفكير في طيارة ورقية تطير متر أو مترين ثم تسقط أرضا، أو في أغنية صبيانية يشع فيها العشب وتفوح منها رائحة الحساء المسائي، أو في لعبة يستهلكونها حتى يملوا ويضجروا منها. هذه هي حدود السماء في

طفولته التي قضاها بين الأزقة والأحياء رفقة أترابه. أما فكرة كتابة رسالة إلى الله، فقد انبثقت نوعا ما في مراهقته عندما حاصرته أسئلة فلسفية قرصت طمأنينته، وكان يداوي أرقه الفكري بجرعات الإيمان التقليدي وكأنه طبيب ناشئ في مستشفى حكومي مهترئ. ثم نضجت فكرة الرسالة في الجامعة، فكتب رسالة إلى الله ذات شتاء ممطر وهو يغلي حيرة وسخطا، يسأله عن البؤس والأكواخ والعذاب المتواصل الذي لا غاية منه، والشر والحروب والقتلى... كتبها ونفسه ثائرة متمردة كبركان لا يهدأ.ولم يستطع أن يتغلب، رغم ثورته وتمرده ،على خوف ميتافيزيقي كان يهاجمه. وكان يفكر، تحت وطأته، في تمزيق الرسالة مزقا صغيرة، أو كان يفكر، في أحسن الأحوال، في التلطيف من حدة الصرخة المدوية والطريقة العنيفة التي كتب بها.

وقصة الرسالة العجيبة لم تخل من طرافة يذكرها بنفس هادئة مبتسمة. في المقهى الجامعي، في ثمانينات القرن الماضي وضع الرسالة الجريئة على الطاولة الخشبية، وعكف على احتساء قهوة وتدخين سيجارة مهموم الفكر والقلب والأفق. كان عنوان الرسالة مستفزا شيئا ما خصوصا بالنسبة للعقول البسيطة المتعصبة التي ترى في مجرد العنوان تجرؤا لا ينبغي له أن يحدث، ووقاحة صافية لا ينبغي أن تصدر، لكنه لم يكن يخشى كل هذه الاعتبارات البالية، ففي جعبته الجواب المناسب لكل الانتقادات المحتملة وكل الاعتراضات الغبية. حتى الصلاة التي نؤديها يوميا ليست سوى رسالة إلى الله. رسائل زرقاء تطير في السماء بقوة الإيمان وعمق الرجاء. هكذا كان سيبرر الأمر لو انتقده أحد بسبب ما كتبه!

ومر طالب ماركسي صدفة جوار طاولته، فحانت منه التفاتة. قرأ العنوان فضحك معلقا:

– رسالة إلى الله!لكن أين هو العنوان؟

كان الطالب الماركسي يلف كوفية بسبب الطقس البارد، كان يعرفه من بعيد، فهو شهير في رحاب الجامعة وطالما رآه يعتلي المنابر كخطيب بارع، يتحدث عن حركة التاريخ والقوى الاستعمارية. يدخن سيجارته الرديئة ويدير نقاشات الطلبة اليساريين حول المستقبل، حول الفقر والسياسات الحكومية الفاشلة، حول الصراع الطبقي، حول هشاشة وضعية البروليتاريا وضرورة التغيير. كل هذه الجوانب كان يبرع في تحليلها في وسط يغلي ويعيش غضبا واحتقانا. فهم تعليقه الساخر ولم يرد على الاستنكار الصريح، بل تساءل بدوره في نفسه. نعم، أين العنوان؟ بل أين ساعي البريد، الكهل السماوي الذي سيتكلف بحمل الرسالة؟ وقد ضاعت الرسالة كما تضيع ابتسامة بلهاء أو ضحكة خافتة أو نظرة شاردة. وها هي الجريدة تعيد إليه فكرة الرسالة بنفس آخر وطعم آخر وشكل آخر؛ مُدرسة أمريكية تلتقط بحاستها الغنية الفكرة العبقرية: أن تتجسس على أخيلة الأطفال، وتفتح كوة في حائط الطفولة تنظر منها إلى حديقة الصغار الخيالية حتى تعرف أفكارهم حول الله بعيدا عن أحاسيس الخوف والمراقبة والعقاب.

انهمك في القراءة بقلب محب عاشق. كانت الزاوية تعرض عشر رسائل بالتمام والكمال. رسائل قصيرة جدا مذيلة بأسماء أصحابها، كلمات رقيقة تكشف أسارير ملائكية. عفوية بالغة في الحديث. لا يمكن لمثل هذه الرسائل أن تغضب الله أبدا. إنها هبة ريشة عصفور. مواء قطة متكاسلة.. جماليات رائعة بعيدة عن أي خبث أو خداع. ما أحوج الكون إلى مثلها حتى يستعيد نشاطه وعنفوانه! أعجب بالرسائل العشر جميعها بدون استثناء، وتوقف عند اثنتين منها مظهرا موقف الإكبار والدهشة بسبب السلالة الواضحة والذكاء الفطري والعفوية اللذيذة والملائكية الصافية التي اجتمعت كلها في الكلمات والأسلوب والأفكار مشكلة أدبا راقيا. لقد أحسنت المعلمة الأمريكية صنعا

عندما فكرت في الفكرة ونفذتها ونشرت رسائل صغارها ككنز أدبي يثري العقول وينعش القلوب الحكيمة.

تعود الرسالة الأولى، التي أثارت إعجابه الشديد، للطفلة نورما. تحدثت فيها عن عنق الزرافة الطويل، تسأل الله بصدق إن كان يقصد أن يكون العنق بهذا الطول أم الأمر ينطوي على خطأ غير مقصود!

أما الرسالة المدهشة الثانية، فكانت للطفل جويس الذي شكر الله على أخيه: المولود الجديد لكنه يظهر تعجبه من هذه الهدية غير المنتظرة، لأنه كان يصلي، في واقع الأمر، من أجل الحصول على جرو صغير لا على أخ. فهل تمت إساءة فهم صلاته؟ هل غيمته اللغوية لم تكن واضحة كفاية؟

هز سي العربي رأسه إعجابا. ليست هناك رقابة على الخيال ولا ينبغي أن تكون أبدا. الخيال أرنب غير قابل للصيد. الأطفال أحرار ولا ينبغي لأحد أن يحد من شطحاتهم وضحكاتهم المائية. وفي أوج نشوته أعاد قراءة الرسائل وفكر: هل يمكن أن يطبق مثل هذه التجربة في الفصل مع تلامذته؟ راقته الفكرة حقا. شرد متأملا فيها كالحكيم الذي يعثر صدفة على منبع الحكمة الروحية. راودته أحاسيس الخوف من أن يتعدى حدودا مرسومة في عمله وخطوطا غير مسموح بتجاوزها. هو يستطيع أن يدافع عن الفكرة دفاعا طيبا أمام أي مسؤول، لكن هل المسؤول سيقتنع بما يقول وينظر إلى التجربة بايجابية؟ هل لديه تلك الروح الطموح التي تجعله يؤمن بتحرير خيال الأطفال من جميع القيود حتى يعيشوا على سجيتهم يتخيلون ويفكرون ويسألون؟

آوى سي العربي إلى بيته. كان يعرف أن لا أحد في انتظاره. زوجته حليمة، رفيقة وحدته، ذهبت لأيام إلى أهلها في الريف ولن تعود إلا في الغد. كان ما يزال تحت تأثير فكرة الجريدة ولم يفق من النشوة التي خلفتها بعد. اعتبرها فاكهة دنت كريمة من يده.

وانتبه في الحجرة إلى كراسات التلاميذ المصطفة على خوان، والتي لم يفرغ من تصحيحها بعد. يا له من عمل في انتظاره! تعب لكنه يحمل بين طياته الكثير من المتعة والمسرة. تلامذته عبارة عن أطفال يقفزون بين أعشاش البراءة، ترى في وجوههم شطارة وبراءة، يعلمهم ما يحتاجونه من الخط والحساب والديانة ويغرس فيهم الأخلاق والقيم. وإذا قسا عليهم يوما، فسرعان ما تتغلب على طبعه سجية الرحمة والتسامح ويقول معزيا: هم أطفال!

هل ينجز الفكرة دون أن يخشى شيئا؟ تنفيذ الفكرة بسلالة قد تعيقه الرقابة. الرقابة مقص مجتمعي لئيم يقص الأفكار ويفصلها حتى تصير على مقاسه. والشعار المكتوب على ناصية المجتمع: كل شيء حرام إذا كان خارج العادة والمألوف، إذا كان صادما. إذا كان يغير مجرى النهر. يجب علينا جميعنا أن نشرب نفس الماء العكر وإلى الأبد.

وما اندهش له سي العربي أن الرسائل إلى الله لم تزعج المجتمع الأمريكي قط. لم تخلق فيه رعبا ولا ذعرا. فلم مجتمعنا سيخاف هكذا؟ أ لأنه هش يشبه خيمة في مهب الريح؟ إن التجربة عبارة عن فكرة بسيطة وبريئة ستقرب ذهنية الطفل من خالق الكون، بعيدا عن الأفكار النمطية التي يتجرعها في الأسرة والمجتمع والمدرسة. لقد عمل سي العربي على أن يتجاوز هواجسه ويظن حسنا وخيرا بالمجتمع، لكنه كان يعود مرة أخرى ولا يثق في حسن ظنه. يعود لنفسه مرتابا ويسأل: ماذا لو خاب ظنه وانكسر تفاؤله وانتهى به الأمر إلى مشاكل، ووجد نفسه في مواجهة أهل التلاميذ الذين سيتهمونه بأشياء بعيدة متوهمة لا أساس لها من الصحة؟ ومسألة العقيدة مسألة حساسة جدا تجعله كمدرس حكومي تابع للوزارة يتريث في تقديم المعلومة والجواب. لا يجوز الاستسلام لشهية الأطفال الذين لا يضجرون من نبش غبار الأشياء الميتافيزيقية. وتذكر حيرته في التعامل مع موقف محرج يعترض سيل الدرس. كان يفكر: هل يتقيد بمبادئ التربية الحديثة أم يقدم نفس التصورات

الشعبية الرائجة في الوسط، وينجو من فخ السؤال؟ ومن الأمثلة التي واجهها: سؤال الصغار المتكرر حول العفاريت والشياطين التي تتجسد في صورة قط أو كلب أسود. فكر ووجد السؤال ينتمي إلى التصور الديني الشعبي وينطوي على مفارقة مقيتة تجعله متذبذبا في إجابته، فالفكرة الشعبية التي تعشش في خيالهم مفيدة من جانب، لأنها ستحمي القطط والكلاب من شقاوة الطفولة، لكنها خبيثة من جانب آخر لأنها تساهم في تشويه إدراكهم للعالم!

وانشغل بتصحيح الكراسات يضع العلامات ويقدم الملاحظات. لو كانت حليمة بالبيت لهرعت إليه بالشاي الساخن لينعش وقته. إبريق الشاي هو جزء من إبريق التفكير! ولم يحتمل أن يظل بدون كوب يحتسيه فأعده بسرعة وعاد إلى كنبته يكمل تصحيح الكراسات ويفكر في الرسائل. لم يستطع أن يخرس حشرة التفكير. حشرة تقضم أعشاب عقله. يرغب في إنجاز التجربة. فضوله كالنار التي تلتهم كل شيء، لكنها عاجزة أن تلتهم الخوف والتردد. التجربة مهمة ستمكنه من معرفة خيال الأطفال حول لغز الله. أكبر لغز حير البشرية ومازال يتمتع بالجلال والعظمة. يمكن للأخيلة الطفولية أن تقدم جوابا مبتكرا غير مسبوق إليه. جوابا طريفا يرسم ابتسامة طيبة على المحيا، أو يدفع إلى التفكير وإعادة النظر. الخيال كنز عظيم خصوصا إذا ند عن عقل طري لم تلوثه المادة الفاسدة. كان سي العربي ينطلق في تصوره للخيال من رصيده الفكري الذي كونه من معاشرته الطويلة لكتابات التصوف، ويعرف تماما ما يعنيه الخيال كمصدر هام للمعرفة، ويعرف الكثير عن آفاق التصوف التي تحدث عنها ابن الفارض والحلاج وابن عربي.. ورغم أنه لم يكن متصوفا بالمعنى المذهبي للكلمة إلا أن عقله نهل من التصوف وتأثر بينابيعه الصافية. كان يقول في نفسه: خيال الأطفال لهب يحتفظ بنقائه وعذريته، ويمكن أن يخترق الحجب الكثيفة ويعود بمعرفة لا يمكن للكبار أن يقفوا عليها!

وفي الفصل وطن نفسه على تنفيذ التجربة. سيبقي على حيز من الزمن آخر الحصة يكرسه لكتابة الرسائل. كان قد استقبل الوجوه البشوشة في الصباح الباكر. وجدهم كالعادة يكدون ويخطفون المعرفة خطفا من فيه قبل حتى أن يتمها. وبدا ذلك واضحا حين كلفهم بتمرين بسيط لمناوشة حواسهم وصقل انتباههم، وعاد إلى المكتب يسترخي على الكرسي كأمير أمام رعيته يتأمل حركاتهم. أجسادهم الصغيرة تتحرك وتهتز منبسطة مهتمة بالتحصيل. ثمة وشوشات لطيفة تتناهي إليه لا تدفعه إلى الزعيق؛ فهي أشبه بشغب العصافير. فكر، وهو يفحصهم، في زميل قديم تعرض للمساءلة من مديرية التعليم بسبب شكاية الأهالي، والسبب أنه قدم معلومات دون تمحيص. بدت المعلومة هدامة أو تم تكييفها مع الظنون السيئة. تكلم المدرس عن خصائص الماء الفيزيائية، فقال طفل خائفا:

– من الخطر صب الماء الساخن في المرحاض، لأنه قد يثير غضب العفاريت والأرواح!

تصرف المدرس بأمانة وضمير. حاول حذف الخرافات بالمنهج العلمي السليم، فبلغ الأمر إلى الأهل وانتشر الخبر انتشارا ناريا. كبرت القضية وتضخمت ولم تتوقف عند العفاريت، بل بلغت أمورا تتعلق بالعقيدة. وضح المدرس موقفه لكن الشكوك ظلت تحوم حوله طويلا وفقد ثقة الناس فيه. استحضر العربي المثال يفكر في العواقب التي قد تحدث وتنال من طمأنينته. ما زال التوجس يراوده، لكنه يعرف أن لا شيء سيثنيه عن الاستمرار بعد أن عزم وصمم. هو يعرف ما يفعل ولن يستسلم للخوف، ما دام يثق في غايته ويعرف نقاء طويته.

منار تتنقل كعصفورة شقراء بين سطور التمرين. توشوش. تكتب في كراستها أفكارا وخواطر. بدت في انشغالها وكأنها تنتج عسلا تصفيه بحواسها الطفولية البريئة. أما دعاء فتفكر في التمرين. تعكف على عملها المدرسي بحيوية. هي سريعة البكاء لا ترحب باللوم والعتاب ولو ارتكبت خطأ! تملك كبرياء ملكة، لكنها تضحك كما يليق بطفلة مندفعة

وتمسح دموعها متألقة. وأحمد صامت، شحرور يفرد جناحه ليحلق في سماء صامتة. صمته أكبر من عمره بكثير، تظنه في الفصل وكأنه في حصة مادة الصمت لا حصة مادة العربية!

هكذا كان يفحصهم واحدا، واحدا، متصورا أرواحهم الشفيقة. وبعد تصحيح الإنجاز وتقويم الأخطاء بتأن وحلم، وبعد جدال حلو مع منار التي دافعت عن أخطائها باستماتة فراشة ملونة، طالبهم بالصمت الجليل الذي لا تخدشه رفة جفن أو زفرة نفس. نظر إليهم طويلا يتحسس صمتهم قبل أن يفضي إليهم بفكرته العظيمة. في البداية حملقوا فيه غير مصدقين وكأنهم يتلقون حكاية خرافية من حكايات الجدة قبل النوم، أو يستمعون إلى مقترح غريب لا يمت إلى الواقع بصلة. مقترح لا يمكن أن يسمعوه حتى على سبيل المزاح والتنكيت. وسرعان ما اختفت الدهشة كسحابة صيف، ولمعت عيونهم كبروق كثيفة في الظلام. استوعبوا الفكرة ورحبوا بالمقترح، فدب النشاط في الفصل. تحول الفصل فجأة إلى أعشاش عصافير تنظف مناقيرها صباحا. تناولوا الأوراق بسرعة، وسألت مريم ببراءة:

– ألا ينبغي أن تكون الأوراق ملونة؟

أجابها باسما:

– لا تهم الألوان، لأن الله سيقرأ أرواحكم فقط، ومتى كانت أرواحكم نقية سيسعد بها الله.

تلاشت الاستفسارات الضئيلة. كان الحماس أشبه بريشة قذفتها الريح. بدأ طفيفا ثم تنامت حدته أكثر وأكثر. كانوا يفكرون ويكتبون وينظرون إلى السماء باسمين.

وفي البيت استقبلته زوجته حليمة باسمة. لقد عادت من سفرها. سألها عن الأهل، فردت والابتسامة لا تفارقها:

– حمدا لله.. . يبلغونك السلام.

تذكر محفظته المهنية التي تخفي كنزا. باقة الرسائل الفريدة. تجول بين الصفوف وجمعها بحب وفضول. هذه هي الأماني الحقيقية، هذه هي الصلوات الصافية التي لا يشوبها مكدر. بريئة كثلج الحديقة، بريئة هي هذه الرسائل، منبعها: القلب الطاهر الذي لا يختلف في النقاء عن قلب الزاهد العابد المتصوف الذي يبحث في خلوته عن السر السماوي.

وقال لهم ضاحكا:

-أنا ساعي البريد الذي سيحمل رسائلكم!

سمع نقرا على باب حجرته، ودخلت حليمة في ثوبها المنزلي البسيط بشوشة الوجه تحمل كوب الشاي الساخن. وضعته على مكتبه، وانسحبت بهدوء تاركة إياه وسط أوراقه. لم يكن ينتظر في الحقيقة سوى كأس الشاي حتى يعكف على تصفح الكنز. رشف رشفة عميقة، وشعر بسخونة المشروب التي أعقبتها لذة صافية. وشرع في قراءة الرسائل واحدة تلو الأخرى لا يكل ولا يفتر. كانت الرسائل عبارة عن أوراق لفها فيما يشبه رزمة. فحص الخطوط الطفولية والأفكار المتوالية كتوالي أسراب الفراشات على حقل زاهر. يا لها من تجربة تستحق التسجيل! هل يستطيع أن يكشف عنها للعموم كما فعلت المدرسة الأمريكية أم يحتفظ بها لنفسه، وينجو من انتقادات حمقاء؟ تجري عيونه فوق السطور وأنفاسه تتصاعد. لا يكاد يفرغ من رسالة حتى يحس بنوع من السرور الداخلي. كلها تصورات جميلة. كلها أصوات لذيذة تبحث عن سماء تسمعها. إنها أعمق من الصلوات التي يكررها الكبار برياء وتفاخر. أعمق من العبادة التي تسبح في الطين وتدعي الورع. لو كانت الأرض مأهولة بالأطفال فقط، لكانت الوردة رسالة والأفق رسالة أخرى، ولكانت الفراشة كلمة شكر تزين الضيعة!

تصور نفسه، كما قال لتلامذته الصغار، ساعي بريد كهل يتجول على متن دراجة هوائية في الريف البعيد، بين الحقول الخضراء، تظله سماء صافية. تصور نفسه يمضي حاملا

الرسائل إلى أصحابها، ولا غاية له من ذلك سوى أن يحس بدفء الناس وسعادتهم، وهم يسمعون الأخبار الشيقة عن أحبابهم البعيدين. نعم، ساعي بريد حقيقي شريف يحمل الرسالة كوردة مفرحة، ويضعها في الشرفات والعتبات. سيعيد قراءة الرسائل وينتقي أفضلها. إنها جيدة كلها. لكن حتى في الصلاة نجد الأجود! ربما تحدى المجتمع كسكران وغادر شرنقة تردده معلنا على الملأ أجملها. هذه الرسائل جنة حقيقية يتجول فيها المرء مسرورا دون أن يتعب من عطرها. من يرفض العطر يا ترى؟

وعاد إلى فحص الأوراق بعناية، وقرأ مرة أخرى بصوت منخفض:

عزيزي الله!

لقد سمعنا في درس الدين أن آدم مخلوق من الطين. لا أفهم هذا بالضبط. هل تقصد أن آدم إذا تعرض لدلو ماء يمكن أن يتحول إلى عجينة؟

عبد الحق الصغير

* *

عزيزي الله!

كم هي مملة العطلة! إننا نقضيها في مشاهدة التلفاز ومراقبة الإمطار من وراء النافذة. ماذا عنك؟ لا شك أنك تملك تلفازا سماويا لطرد الملل!

الصغيرة دعاء

* *

عزيزي الله!

أبي يقول إنك أقوى منه. هل هذا صحيح؟ غريب. مع أنه يتمرن يوميا في نادي رياضة حمل الأثقال!

منار المشاكسة

إلهي العزيز!

لن أطلب منك شيئا. أريد أن أنبهك فقط إلى القطة المسكينة التي تموء ليلا. يبدو أنها تحتاج إلى معطف يقيها من برد الشتاء.

طفلك أحمد

**

عزيزي الله!

لا حاجة لي بكتابة كلمة واحدة. أنت تعلم ما في قلبي!

الطيب أيوب

**

عزيزي الله!

أشكو إليك شح الطبيعة. لقد رسمت فراشة ولونتها بالأحمر، واكتشفت في الأخير عدم وجود فراشة حمراء! هل كان خطئي أم خطأ الطبيعة؟

سليمان الشقي

**

عزيزي الله!

عادة ما ألعب الغميضة مع بنت الجيران نسرين. وفي كل مرة أجد الوردة ولا أجدها هي! ما الخطب؟

ياسر المحب

**

إلهي العظيم!

كم أعجب من اختفاء القمر فجأة. أمي تقول إنه يذهب للنوم في النهار! فهل هذا صحيح؟

صفاء الصامتة

**

عزيزي الله!

لن تستريح فأرة المجاري إلا بعد أن تلتهم القمر. إنه يشبه الجبنة البيضاء!

مريم الظريفة

**

أغلق عينيه يسبح بين الأخيلة الملونة مبتسما ابتسامة خفيفة.

# ابتسامة

كنت قد اعتدت يوميا على الذهاب إلى مقهى السعادة، وبشكل جدي أحترم فيه مواعيد الاتكاء على كرسي شبه وثير، وأفكر في مشاغلي التي لا تنتهي من عمل ومواعيد، وعلاقات اجتماعية وأسرة وعيال.. كانت الدقائق تسرقني أو تسلبني حتى أنني أنسى نفسي وأنا أحملق في الهواء أو في سقف المقهى الأبيض. وقد أنتبه، من حين إلى آخر، إلى شخص أعرفه معرفة سطحية؛ يظهر ويلقي التحية الباردة من باب الأدب، أو أنتبه إلى الجرسون الذي يمسح الطاولات بهمة ونشاط، ويحرك الكراسي أمامي معتذرا عن أنينها الذي يخدش سماء راحتي.

كان الجرسون يقول إنه تعب من هذا العمل الكريه والمتعب، لأن رب المقهى يراكم أموالا كثيرة ولا يمنحه إلا راتبا زهيدا. وفي نفس الوقت يطلب منها القيام بجميع الأعمال من تلبية طلبات الزبائن وكنس ومسح.. كنت أصدقه وأتعاطف مع شكواه الرمادية التي تتكرر. كان الرجل صادقا صدقا لا ريب فيه، فرب المقهى ينعم بخدود وردية ناعمة تدل على الدفء المتصاعد من معدته المرتاحة. يبدو من وراء الكونتوار بوجهه البيضاوي يحرك جفنيه في كسل، وأحيانا يستغرق في النوم تحت إضاءة خافتة تنبعث من مصابيح صغيرة مثبتة على الجدران.

لقد ألفت، في الحقيقة، هذا المشهد من الاستغلال البشع، فهو واضح في الكون وضوح الأفق في النافذة أو الزرقة في سماء صافية. لكنني لم أعرف بالضبط كيف أتعامل معه: هل أتقيا أم أضحك أم أستلقي على قفاي في غباء أم أتابع المسير لا ألوي على شيء. الحياة برمتها غير واضحة، والكون ينبني على علاقات غير متكافئة ووحشية لا تنتهي. المجرات تقهقه غير عابئة بما يجري.

وانحنى الجرسون علي يوشوش متظاهرا بمسح الطاولة:

– أبشر يا سيد علي! لقد وجدت عملا آخر سينقذني من متاعبي.

هنأته بابتسامة، وقال بطيبة:

- سنشتاق إليكم!

سيشتاق! لا ريب في ذلك، لكنه اشتياق إلى رائحة البقشيش الذي يناله في المناسبات المتعددة. البقشيش قادر على أن يصنع مودة وصداقة حتى في ساحة الحرب المليئة بالجرحى والقتلى، فما بالك بالمقاهي؟ حيث يعمل الجرسون اللبيب على جلب مودة المرتادين من خلال التعامل الجيد والابتسامة المتكررة المفعمة بالطيبة والود. الحياة مضنية والمال يدهن جلدها القاسي ويجعلها أكثر مرونة وطواعية.

ومن الركن طالعتُ وجه طفلة جميل تزينه ابتسامة. كانت تنظر جهتي ببراءة، متسائلة عن طبيعة هذا الشخص الغارق في صمته، لا يكلم أحدا ولا يبدي أية حركة ذات معنى. ربما ظنتني تمثالا من الخشب يزين زاوية المقهى كأصيص زهور بارد. رفعت يدي أو حركتها لا لشيء إلا لأثبت لها خطأ ظنها، فأشاحت بنظرها بعيدا. كانت بصحبة رجل حجبه عمود المقهى، وقد خمنت أنه قد يكون أباها. أحسست بعطف أبوي تجاه وجه الطفلة الذي لا تفارقه الابتسامة، وانتظرت حتى التفتت مرة أخرى فأشرت إليها أن تدنو مني. انسلت كفراشة مستجيبة لندائي، ووقفت أمامي بجسمها الصغير وهي تضحك.

-تريدين بيسكويه؟

-.....

- اذهبي إلى الجرسون وخذي ما تشائين!

- .....

-هل هو والدك؟

أومأت برأسها الصغير إيجابا وقصدت الجرسون. وأومأت له من مجلسي أن ينفذ ما طلبت. مقهى السعادة يمنحنا فرصا مبهجة لنسعد الآخرين بأشياء بسيطة لا تسبب مشقة

ولا عناء، يجعلنا إنسانيين طيبين قادرين على توزيع الفرحة والسرور. ونهضت صوب الجرسون استفسر عن والد الطفلة. عرفت منه أن الأب كفيف فقير جدا بدون معيل، يقصد المقهى بصحبة صغيرته لتناول فنجان قهوة أو شاي، ويسدد الثمن من الصدقات التي يتلقاها من الأيادي البيضاء الخيرة. وطلبت من الجرسون أن يلبي طلباتهما وسأتكلف بالحساب. كنت أحس بنشوة بالغة لإنجازي هذا العمل البسيط متخلصا من جلدي الأسمنتي الذي اكتسبته في المجتمع. إننا قساة كالصخور ولا بأس من الاستحمام بماء الصدقة بين الفينة والأخرى من خلال سلوكات بسيطة لكنها عميقة في جوهرها. النجمة تضيء في الأفق، فلماذا لا نضيء أيضا مثلها من وقت لآخر؟

أدركت الطفلة بذكائها الفطري الصافي أنني سأتكلف بكل شيء. كانت حيية في حركاتها وطلباتها أيضا. تناولت البيسكويه والحليب بخفة، وتناول أبوها فنجان قهوة بالحليب. ابتسمت لي شاكرة، ابتسامة تتسلل إلى الروح الجافة كقطرة ماء باردة. تابعت الطفلة من وراء الزجاج وهي تنصرف. كانت تتأبط ذراع والدها الضرير، وتقوده في الأزقة. يعيش الأب في ظلام أبدي قاس لكن طفلته البريئة نجم قدمته الطبيعة ليعوضه عن البصر، وربما كان هذا النجم البريء أكثر إشراقا من البصر نفسه.

وعندما فررت بحقيبتي الوظيفية من أمطار يناير المفاجئة وجدتهما، على غير المتوقع، في المقهى ينعمان بالدفء. الأب لا يرى المطر الذي يضرب الزجاج، ولا يرى أنياب القر الحادة لكنه يحس بها.

كانت الطاولة فارغة إلا من لهاثهما المتساقط. لا يوجد ولو كوب ماء فقير يشعرهما باهتمام الكون. نظرت إلي الطفلة بعينين متوسلتين وأنا أنفض معطفي من بقايا المطر العالق، وأستقبل مقعدي المعتاد. لعلها لا تتذكرني.

ناديتها فأتت مسرعة وملامحها فارغة من أية ذكرى ممكنة.

– هل تتذكرينني؟

–لا!

ربما القبعة حجبت عنها هويتي. خلعت القبعة فبدا شعري الأسود تحتها مفلفلا. كانت القبعة مبللة وباردة.

– آه!

ضحكت. وسألتها:

–تريدين البيسكويه الطازج؟ وأبوك؟ هل يرغب في شيء؟

حركت رأسها في سرور موافقة. قلت:

– اقصدي الجرسون واسأليه ما تشائين!

الابتسامة المضيئة التي ترقص على شفتي طفلة يمكن أن تزيح ركام التعب عن الروح. إنها سعيدة لأنها وجدت من يقدم لها وجبة بسيطة: بيسكويه وحليب. الأب الذي يفرك يديه باحثا عن الدفء قد يتساءل عن هوية هذا الشخص الذي يدفع الحساب بسرور.

لا يستطيع أن يعرفني إلا من خلال سلوكي هذا. ربما يرسم في مخيلته صورة لا تختلف كثيرا عني. ترى كيف أبدو في رأسه الآن؟ إن الصبية قادرة على أن تزوده بأوصاف سريعة وعملية ليرسم ظلي في عقله. صورة التقطتها حواس متذبذبة. لكن ما جدوى كل هذا؟ ما جدوى صورة رمادية تنطبع في الخيال. إنني لا شيء. أشعر بلا شيئيتي في الكون وأسعد بها سعادة غريبة. إنني في الحقيقة مجرد يد مجهولة تتحرك في مخيلة الضرير.

في الأيام الموالية جلست في نفس الركن، وبنفس الروتين ونفس المحيا الجامد الذي لا يتغير. انتبهت إلى باب المقهى ينفتح لتندفع طفلة بجسمها الصغير تجر والدها الضرير.

كان الظلان يتقدمان كصورة مألوفة لم تعد تثير الانتباه ولا الشفقة. الشفقة خبز يابس لا يثير شهية روح. جلسا بنفس الموضع، وشرعت الطفلة تتلفت حولها وتفحص الكراسي، وكأنها تبحث عن شيء ما. ثم استقرت نظرتها علي الرجل الكريم. المعطف. القبعة التي لم تعد صالحة لإخفاء معالمي. ورأيتها تبتسم نفس الابتسامة التي استقبلتني بها الأيام الماضية. طفلة بريئة تواجه الكون بابتسامة بسيطة، تتحدى الأشياء بجسارة. إنها تقول للحياة: أنا العفوية البيضاء. أنا البساطة القادرة على إثارة الدهشة دائما!

لكن لا أدري ماذا وقع لي في تلك اللحظة. لقد تبخر مفعول الابتسامة أو وجدتها ثقيلة جدا على روحي لا تترك أثرا. لقد تبخر سحرها. لم تعد فتنتها مؤثرة. وشعرت بقلبي يجفل. لم يتحرك شيء داخلي أبدا، وكأنني صقيع أنيق في ثلاجة بشرية. لم يتصبب أفقي عرقا. لم أشعر بسحابة الشفقة تنبت في إحساسي. شيء ما تغير. بدا الوجه الطفولي متكلفا جدا لم تحسن الطبيعة تقديمه على مائدة التسول. هل هذا الوجه هو نفسه الوجه الذي حرك سابقا مشاعر الكرم والشفقة؟ هل هو نفسه من دفعني إلى أن أجود بأحسن ما فيَّ من خصال وأحس بالأسف أمام بؤس الكون؟ هل هو الوجه نفسه؟ أشحت بوجهي بعيدا. بدا الاستغراب على وجه الطفلة. ابتسمَت وابتسمَت وابتسَمَت.. بدت الابتسامة وكأنها استجداء صريح. تساءلت في داخلي أرثي المشهد: لماذا أجفل؟ لماذا لا أتحرك. لماذا لا أهرع إلى الجرسون طيب الروح والأفق واليد؟ قلت مبررا: إنها ابتسامة مشروطة. إنها ابتسامة حزينة حتى أقدم صدقة. إنها ابتسامة متصنعة حتى أدفع الفاتورة، وأنا أكره التصرفات المشروطة.. نعم. نعم.. أفهم أنها مدفوعة إلى ذلك بسبب بؤسها وإملاقها، أنها تبحث عن قطعة بيسكويه وكأس شاي أو فنجان حليب، أنها في حاجة إلى ذلك، ولهذا فهي لا تكف عن الابتسام، لكن يدي جامدة لا تستجيب، لا تستطيع

التحرك. من حقها أن تحمد ما دامت لا تحس بعفوية المكان. يدي متمردة وكأنها فلاح في ضيعة إقطاعي جبار!

رأسي يدور. استمررتُ في التجاهل وكأنني لست نفس الشخص، ولست نفس اليد الكريمة التي أضاءت ذات يوم. لا أحب الزيف، لا أحبه وإن يكن زيفا بريئا.

# نجمة الغياب

صغير جدا كقبضة يد، مكون من لحم وعظام هشة، ويشبه عصفورا خرج للتو من بيضة مجهولة لا يُعرف مصدرها. يتذكر أنه فتح، على الأرجح، عينيه على شيء يسمونه «العالم» ليجد الأيدي المتعددة المتلهفة تستقبله. متى جاء وكيف جاء؟ لا يعرف عن ذلك شيئا. وجد ابتسامات كثيرة تهدى إليه بنوع من الكرم الزائد عن حده إلى درجة تبعث على الضجر، ووجد امرأة تضمه إلى صدرها وترعاه. حنانها يتدفق كالحليب الذي يتغذى عليه من ثديها. إنها رخوة أيضا وتبدو ككتلة تنتصب أمامه ولا يستطيع تصنيفها إلا من باب الظن والتوهم. يحس بها عبر يديه الصغيرتين اللتين تتحسسان الهواء وأزهار الهواء. كان إذا اشتكى ألقمته ثديها فلا يجد فرصة للصراخ، ويظل هكذا حتى يغالبه النوم، ويستيقظ فجأة ليجدها قربة تهدهده وتتحدث إليه بلغة لا يفهمها. لكنه يقرأ على محياها الجميل عبارات امتنان ورحمة، وهي لغة عالمية تفهمها حتى العصافير وأسراب النحل.

من هذه المرأة؟ انه جزء منها. يحس بذلك إحساسا عميقا لا يستطيع تجاهله، ويحس أيضا أنه لولاها لما كان له امتداد في هذا الكون الغريب. يمد يده الصغيرة فتلتقطها ويسمعها ترطن بعبارة «أمل حياتي!» وتقبله في وجهه.

لكن ما «أمل حياتي»؟ ولماذا نادته بهذه العبارة التي لا يلمس فيها معنى. إنه ليس أملا لأي أحد ولا لأي شيء ولا يشبه حتى هيئة الأمل. كيف يكون أملا وهو الضعيف الرخو، خرج من كهف مظلم لا ضوء فيه؟! ود لو يضحك لسخافة الفكرة، لكنه وجد الضحك عصيا على عضلات وجهه البسيطة. بالكاد استطاع أن يصدر ما يشبه قهقهة نحيلة غامضة تلاشت على محياه الصغير، كما تتلاشى الموجة على وجه البحر. والمرأة أمامه مستغربة، منبسطة الأسارير، تهتف غير مصدقة:

– يضحك. . تعلمت الضحك!

لم يتعلم الضحك يا سيدة! إنها همهمة ضاعت على أساريره، فهل هذا هو الضحك؟ ما أغرب تصرفاتها! تحبه بالفعل. يشعر بالرابط الذي يربطهما، والذي يشبه حبل المشيمة في متانته، بل هو أمتن بكثير. قد يمد يديه ليقيس المسافة التي تفصلهما. ما طول المسافة؟ هي ليست بجواره. يستوعب ذلك من خلال الزمن الذي تستغرقه عندما تهرع إليه مستفسرة حول صراخه. وقد أدرك بذكاء فطري أن الصراخ مفتاح سحري يحل المشاكل ويذلل العقبات. بمجرد ما يصرخ حتى تهرول كالبرق متسائلة. تداعبه أو تلقمه ثديها، فيسكت غضبه وينعم بالهدوء والطمأنينة.

لكن الصراخ، وللأسَف، لا يحل مشاكله دائما، ليس مفتاحا أبديا يفتح جميع الأبواب! إنها تغيب ولا يفيد صراخه شيئا، وغيابها غياب أبيض كمظروف على طاولة يثير فيه الريبة، فيقول لنفسه: قد تكون بغرفة أخرى! ويسكت لحظة ليريح وجهه وحباله الصوتية، ويقلب عينيه الصغيرتين في سقف الغرفة. يبدو السقف قريبا. يمد راحته الصغيرة كي يلمسه لكن بلا جدوى. إنه بعيد. أخطأ التقدير حين ظنه قريبا. يتحول عنه برما ويحاول أن يرى الغرفة بكاملها. غالبا هو يرقد على سرير بحجم جسمه، وجسمه ملفوف في لفة قماش صغيرة. يحرك قدميه فتستعصي عليه الحركة بسبب سمك اللفة. تبدو الغرفة مريحة تعج بهواء نظيف، غرفة صغيرة بنافذة وستائر مسدلة، أريكة في ركن. هذا كل ما استطاع أن يراه. المرأة لم ترجع كما تفعل عند أول أنة طفولية. أين هي؟ مشغولة. بماذا؟ تكنس؟ تطبخ؟ أين هي؟ ألم تكن تكنس في سابق الأيام، وتهرع إليه بلهفة وسرور؟ يبدو أنها صُمَّت الآن أو تدَّعي الصمم أو أنها ببساطة ليست بالبيت.

هل يصرخ مرة أخرى؟ يحس بنفسه كمن يحمل صخرة كبيرة تفوق حجمه. هل يمزق هواء الغرفة بأنين حاد؟ و لكن لم يصرخ؟ أبسبب الجوع؟ ليس تماما. هو يشكو، على

الأرجح، وحدة بيضاء. يشكو الصمت الذي يحدق به، ويطوقه كسور خشن، ويود رؤية المحيا الجميل الذي يشعره بأهمية كونه الصغير ومملكته الصغيرة.

وصرخ. لم يعد يستطيع الصبر أكثر على الفراق. وما كاد يصرخ هذه المرة، ويا للعجب، حتى هلت مسرعة. أصبح الصراخ فعالا يؤدي وظيفته المعهودة. الصرخة والاستجابة تشبهان إلى حد ما اشتغال المذياع القديم بعد محاولات فاشلة. سمع وقع الخطوات المتلاحقة على الأرضية لتطل عليه بوجه باسم يخفي الكثير من الجزع. خاطبته معتذرة:

– آسفة صغيري. تأخرت عليك. عذرا. .

قبلته فشعر بدفء وجودها. كانت السماء ممطرة مرعدة، وحل الصحو بجماله ورونقه. أين كانت؟ لا يدري. ورغم نبرة الاعتذار في صوتها إلا أنه شعر بالضيق. لحظ السقف مرة أخرى. فارغ تماما.لن ينظر إليها مرة أخرى وسيعاقبها على اختفائها أشد العقاب. لن يلين أمام دموعها واستعطافاتها. لماذا المرأة تتركه هكذا وتهمله؟ كشر تكشيرا لينا بحسب ما تسمح به عضلات وجهه الهشة. لن يضحك وسيلمح إلى غضبه، سيفهمها أنه لا يعرف علة انشغالها المفاجئ عنه. أحيانا يسمع صخبا ينتهي إليه في غير ما وضوح. أحاديث ونقاشات تنبئ بوجود غريب أو غرباء يتحدثون، ولا يعرف بالضبط حقيقة اللغط وتجاعيده، فيصرخ مرة أخرى، لتأتي مسرعة.

– نعم، صغيري. نعم، آه.. ما الخطب؟.. لماذا تبكي؟

وتغادره. تلبث لفترة ثم تمضي وكأن وراءها شغلا غيره، تطيب خاطره كأنها لن تغادر، ولكن الأمل يخيب. يسأل نفسه متحسرا: لماذا لا يقنع بالقليل من الفرص الجميلة ويكتفي بما لديه؟ في النهار تلبث قربه ساعات، وهو وقت كاف كي يصوغ حديقة خضراء، فلماذا لا يعتبر مسألة غيابها مجرد ذكرى ضامرة؟ غيمة في أفق شتائي سرعان ما تنحل وتذوب؟

المرأة لا تدخر جهدا من أجل إسعاده. تبتسم، تغدق عليه العطف والحليب، وأحيانا تحمله بين ذراعيها، وتقوم بجولة في البيت فيكتشف الأشياء: المقاعد، النوافذ، والستائر. يكتشف الغرف المجاورة، البساط على الأرض، المطبخ النظيف. كل هذا يكتشفه، فيرنو إلى الأشياء متعجبا، ويضحك سعيدا.

تحمله وتقف قرب النافذة وتزيح الستائر. سماء صافية وأشجار مختلفة. يتعجب من النافذة التي تطل على أشجار لم يكن يعرفها من قبل، وتنتهي إلى سمعه زقزقة العصافير الملونة. رنة لذيذة عجيبة تثير الضحك. يضحك لوقعها ويستحسن نغمها. آه، كم يستحسن هذه الوقفة! يصرخ. تحضر مسرعة، وتحمله بين ذراعيها وتسير به صوب النافذة ليرى السماء العجيبة ويصغي إلى صوت العصافير النحيف. قالت المرأة:

– آه.. ها هي الماما بصحبتك الآن.. . لا تنزعج!

أجل. ماما! نطقها بشكل مضحك فاهتز جسم المرأة فرحا. شعر بقلبها ينبض بقوة ليستغرب من قوة الكلمة وسحرها. هتفت تكاد تقفز من الفرحة: أجل، أجل، ماما. ماما.. وأخذت تردد الكلمة، فردد خلفها الكلمة الفاتنة ضاحكا. الكلمة الشحيحة القليلة الحروف، والتي تشبه في ندرة حروفها بخيلا يتقشف أمام دكان أغراض، هذه الكلمة: مفتاح سعادتها. تحرك عواطفها كثيرا فيجاريها في فرحها. وفي كل مرة تقبل عليه يردد: ماما.. فتتهلل أساريرها وتضحك من أعماق قلبها.

لكنها لا تضجر من الاختفاء. غيابها يهل بدون مقدمات كجرس قاس صادم، كلحظة مثقوبة بالشوك. يا له من منغص دائم للسعادة! لا يكاد يخلو إلى سعادته حتى تندثر كأنها لم تكن. أجل، يعذرها. تقوم بأعمال في المنزل. جبينها مرهق جدا. لكنه لا يريد هذا التقسيم العنيف. يريد أن يكون وحده مركز الاهتمام. مركز الكون. ليس هو

بالكنبة ولا بالمزهرية ولا بالنافذة حتى يرضى بغيابها. نظر إلى السقف. تقلب. أحس بالصمت يغلف الغرفة. حتى العصافير صمتت والهواء النظيف بدا شاحبا.

صرخ. جاءت الصرخة ضعيفة وكأنها محاولة أولى يمرن من خلالها حباله الصوتية. قلب عينيه في السقف الفارغ، وصرخ مرة أخرى. جاءت الصرخة الثانية أقوى قليلا تنذر بشكوى وغضب لينخرط بعدها في البكاء. كان بكاؤه يتصاعد حتى يبلغ ذروته، ثم يعود فينخفض من التعب والإجهاد. كيف يطاوعها قلبها أن تتركه؟ لا يمكن للحنان الذي ينهمر من عيونها أن يصغي إلى نداءاته ويظل جامدا كالصخر. حتى الصخر سيلين ويشعر به. أما هي، فبعيدة. طيبة وبعيدة. بكى. دفن في صوته كل حاجته ومعاناته. أنَّ أنينا يخاطب به ما حوله، وانتبه إلى نافذة الغرفة التي كانت موصدة طول الوقت وانفتحت فجأة وكأنها استجابت لرعشة بكائه. يا للعجب! ثمة تيار هوائي اقتحم الغرفة. كف عن البكاء ونظر مندهشا. لقد صرخ. وها هي النافذة تستجيب لصرخته وشكواه. بدا الكون كله وكأنه يستجيب لندائه. حملت الريح ما يشبه ضياء صافيا أو نورا أبيض كحليب دافق. يا ضياء! يا ريح! يا نوافذ! نجمة فضية اقتحمت الغرفة عبر النافذة. لم يعرف مصدرها ولا من أين انبثقت. ولم يقف كثيرا للتساؤل حول السبب والمصدر، فهالة الضوء كانت قوية مدهشة تسلب اللب والحواس. ظلت النجمة مرتفعة في الجو للحظات، ثم دنت منه ككائن فضي عاقل يدرك ويحس ويعرف، حتى استقرت قرب يده البيضاء، وخيل إليه في دوامة دهشته وحيرته أنها تقول له:

–هيا. كف عن البكاء. التقطني!

لم يشعر بالخوف مما يقع. لقد استأنس بالضوء العجيب، ووجد فيه حدثا يلهيه عن البكاء والاستياء. صمت. نظر. أصغى. إنها نجمة صغيرة لطيفة في متناول يده. نفس النجوم التي يراها من النافذة تلمع ليلا، والتي كان يرغب في التقاطها كما تلتقط الأصداف

من جبين البحر. ضحك من السرور. بكاؤه تحول إلى ضحك. ومد يده الصغيرة إلي النجمة البهية بعد تردد، والتقطها بيسر وسهولة. تحسسها. كانت طرية كعجينة، وذات ملمس ناعم تضيء في يده كلعبة سحرية، فيحركها ضاحكا. وظل على هذه الحال حتى أخذه النوم من حيث لا يدري. استغرق في نوم عميق لا يكدره مكدر. وعندما فتح عينيه وجد وجه ماما يطل عليه آسفا:

– آه.. صغيري!

قالت وهي تحرك يده بلطف وتطبع فوق خده قبلات متلاحقة:

–تأخرت عليك.. كان عندي شغل لكن جيد أنك نمت وكنت عاقلا. يا لك من بطل! لم تبك لغيابي!

نظر إليها. وجودها الجميل يملأ كونه الصغير. تذكر النجمة التي كانت في يده من قبل. النجمة البيضاء التي اختفت دون أن يدري شيئا عن مصيرها. ضحك. لم يعد للنجمة أثر ولا للغياب أثر. ردد بسعادة:

–ماما.. ماما!

# ذكرى على الرصيف

يا الله! إنه الأستاذ سعيد الجص. لم يتغير كثيرا. ما زال يحافظ على صحته المعهودة. ثمة احديداب طفيف يعتلي ظهره لكنه في غير ما وضوح. يرتدي بذلة سوداء تدل على الأناقة والوقار. يسير بخطى وئيدة تناسب عقده الستين متحاشيا، ما أمكن، عربات اليد والكارو التي تملأ المنطقة. لعله في جولة مسائية يريح بها جسده من الملل اليومي الذي يستشعره بعد أن أحيل على المعاش، بعد عمر طويل من الكفاح في المدرسة الثانوية.

ترى كيف حاله وماذا فعلت به الأيام؟ هل ما زال قاسيا كالمعهود لا يكل ولا يمل من الصراخ وزرع المخاوف. تذكر أيام الدراسة بحلوها ومرها، ولمعت الذكريات كعنقود برق خاطف في الذاكرة. تلك أيام خلت ولم تخلف سوى بخار طفيف يمازج الأحاسيس. ودون تفكير ترك ما بين يديه من أقمشة وتحرك كالسهم في اتجاه الرجل مناديا:

– أستاذ سعيد!

كان المدرس يخطو بهدوء في الشارع يمد عصا خشبية يعتمد عليها نسبيا. عصا تحدث صكة خفيفة بارتطامها بالأرضية المبلطة، وكان لا يلتفت لا يمينا ولا شمالا إلا فيما ندر مستغرقا في ضبابه الفكري فيما يشبه التأمل. وسمع النداء يمزق الهواء فتوقف. لأول وهلة، ظنه تشويشا وهميا قرع الأذن كطنين ذبابة صيفية، وهمَّ بالمضي في سبيله لولا أن شعر بجسد غامض يقفز أمامه معترضا حركته. جسد شاب ثلاثيني يبتسم بخفر وارتباك، ولم يجد المدرس من حيلة سوى أن يحدق في وجه المعترض الذي مد يده مصافحا وعلى وجهه أمل راقص:

– أنا حسين. ألا تذكر؟ حسين.. حسين. ابن الشافعي. . المدرسة العتيقة الثانوية آه ..مضت أيام!

وزادت دهشة المدرس، ونظر إلى عنق محدثه الطويل وعينيه المتوسلتين. ربما تذكره أو تذكر بقاياه الضئيلة المركونة في زوايا الماضي. ظهر التردد على محياه. كان ينقب في الذاكرة

يستعرض الوجوه الكثيرة عله يظفر بشبه ما. الذاكرة غرفة مظلمة ضاع فيها منديل. كم يغير الزمن الناس! الزمن مكنسة تكنس البقايا بلا رحمة. كان لباس الشاب يدعو إلى الرثاء. كان شاحبا قلقا ينظر إلى المدرس برجاء:

– آه حسين. .. كيف حالك يا بني؟

– بخير، ما دمت بخير يا سيدي!

لكن الحيرة لم تغادر وجه الجص. لم يتغير الشاب كثيرا على ما يبدو لكن ذاكرته التعبة لم تعد تحفظ إلا الظلال. خرائب منزل مترب. لقد تتلمذ على يديه الكثيرون وتفرقت بهم السبل. والزحام الذي يصادفه في السوق يشبه إلى حد ما جلبة التلاميذ في ساحة الثانوية. لغط متصاعد يكاد يمس السماء بألسنة ملتهبة.

وسأله بعفوية:

– وأين أنت الآن يابني؟

ليته يدرك ما فعلت به الأيام. ولو مد بصره قليلا بنوع من الفضول لأبصر كومة الثياب والملابس الداخلية التي يتاجر بها بخجل وكأنه يتسول عطف العابرين.

وابتسم حسين ابتسامة حاول من خلالها أن يخفي ألما وسخطا:

– نحمده!

الأفضل له أن يفر منه فراره من مجذوم. إن مجاري الروح قذرة الآن ولعلها تخفي جرذا مارقا. الملابس الداخلية تستلقي على الرصيف في غير ما حياء، ينبثق منها نداء بائس كنكتة ساخرة موغلة في السخرية. الواقع نفسه كالح. وحش بأنياب. وثمة جثث دامية تعلق بأعشاب الحرج.

قال المدرس:

– جميل أنك بخير!

وانسحب بخطى باهتة. اختفى. ذاب في الزحام لكن شبحه الممتقع ظل يهرول في عقل حسين. بدا الشاب، طوال الوقت، ساهما منشغلا بلقاء مدرسه السابق الذي أيقظ بعوض المستنقعات في نفسيته. لو لم يلتفت إلى حركته الوئيدة في الشارع وإلى شبحه الرمادي لارتاح من متاعب شتى. إن تسرعه الأحمق ونداءه المبحوح خطأ غير محسوب جر عليه الويلات. ها هي الذكريات تثب ككرات نارية تحرق ظله البائس. ظل عابسا مشوشا يحاور الزبناء بآلية، ويجيب على مساوماتهم بفتور من يرغب في إنهاء الكلام. الذكريات خيول متوحشة تركض وتدوس نفسيته. الصور تنبثق كضوء متسخ في نفق مظلم. شعر حسين بنفسه ضئيلا منكمشا أمام حجم الماضي المتوحش. لم يكن الماضي في تلك اللحظة إلا طفلا بذيء التصرفات يبرز لسانه بوقاحة يرغب في استفزازه!

وأنهى عمله متأففا وملم بضاعته المهينة. لم يسلم من سياط الأفكار والذكريات. كان بيته يقع في درب عمر. درب عبارة عن ممر مبلط مسقوف يتدلى من سقفه مصباح كهربائي يقذف أشعة صفراء حزينة تكشف نتوءات الجدران. عبره بتعب واضح ليلوح له بيته أو نوافذ بيته الذي يقع في الدور الثاني. هنا عاش والداه قبل أن ينتقلا إلى جوار من له الدوام. لم ينجبا إلاه وكان من الممكن أن يغدو شخصية من الشخصيات المرموقة لولا غدر الزمن. ماتت أمه مبكرا وتضعضعت صحة والده الشافعي فلم يعد يقوى على مهنة البناء الشاقة. انزوى في ركن البيت يتحسس عظامه المكدودة. وتذكر كيف اضطر إلى مغادرة المدرسة والعمل المبكر كي يعيل والده، وكان عليه أن يوفر اللقمة والدواء وأشياء أخرى..

لم يصل إلى البيت إلا عبر سلم خشبي مهترئ نحيل كعظم حيوان، لا يتوفر على نور. دلف إلى الداخل فلاحت أشباح الأشياء. يتوفر البيت على غرفتين، ومطبخ صغير هامشي. خطا بثبات دون أن يتعثر بالأثاث الفقير بحكم معرفته بالمكان. فتح بعصبية

باب إحدى الغرفتين وأوقد المصباح الغازي الموضوع على طاولة ليبدو له المكان واضحا: سرير خشبي عتيق ودولاب رث يستند على جدار، وفي الركن استقر صندوق حديدي من الطراز القديم. خفق قلبه وكأنه يراه لأول مرة. هنا كنز والديه وكنز الماضي! هنا بخور الذكريات الذي يتصاعد مرا ويربك نفسية كليمة. ودون إبطاء، توجه إلى الدولاب الخشبي، وتحسس الملابس المهلهلة حتى استخرج مفتاحا كبيرا عتيقا، وقرفص قرب الصندوق كصبي متلهف ينتظر هدية العيد. فتح القفل الضخم، وأزاح الغطاء الذي ندت عنه أنة مريرة كصوت حشرة ليلية. ترى ما الذي يبحث عنه في هذه الساعة؟ انبعثت رائحة الكافور القديمة كغبار الزمن واندست في الخياشيم. كان ضوء المصباح الغازي كافيا لإضاءة جوف الصندوق. رأى حسين أغراض الأسرة المتنوعة، فانبعث في قلبه الشوق والحنين. شوق حار لاذع كجمرة متوقدة. ها هي سجادة أبيه العتيقة. لا زالت كما هي. رحمك الله يا أبي!. رحلت دون أن تشبع منك الروح. تهلهلت صحتك بفعل الحجارة الصلبة التي تجابهها يوميا، وغادرت الدراسة لأعيلك لكن أجلك حان محدثا خيبة قاسية. كادت دمعة تطفر من عينيه لولا أن أغلق جفنيه كما يُغلَق باب على سجين متمرد، وشعر ببلل ساخن على خده الأيمن. يا للذكريات المشاكسة! ولكن هل فتح الصندوق العتيق إلا ليوقظها ويبعثها من سباتها القديم؟ حلي قديمة تعود لوالدته. رخيصة لا قيمة لها إلا كذكرى غالية تسكن القلب. ملابس مختلفة تعود للمرحومين. ولم يستطع أن يتحسس الأقمشة باطمئنان. كان ملمسها أقرب إلى ملمس الجمر في وجدانه. ورغم غلاوة الأقمشة لديه، إلا انه ظل مترددا أمام عاصفة الأحاسيس، ينظر بحذر يرغب في احتضانها، لكنه يرجع إلى نفسه واجفا. كل شيء كان جيدا في البداية. أجل، لم تكن العيشة مترفة لكنها كانت، على أية حال، كافية ليعيش طفولته بأمان. كان الوالد يكسب قوته بقوة الساعد، يعود من العمل متعبا، وعندما يرى بسمة طفله تنقشع غيوم التعب. وتوالت السنون بسرعة.

الأب الذي كان جبلا شامخا لا تهزه العواصف انكمش جسده وتقلص. ضعف غريب اقتحم البناء الصلب. شقوق مباغتة اعترته، فاستسلم للمرض الذي أقعده في البيت. كان حينها تلميذا بالثانوية عندما تغير كل شيء، وتقرر المصير. ولولا لقاء سي سعيد الجص هذا المساء لما هبت الذكريات محمومة. كانت الجروح مدفونة تنتظر من يوقظها من رقادها. وقد أيقظها اللقاء لتدمدم صاخبة.

سنة 1986، تلميذا كان في الثانوية يعتلي مجد التحصيل والتعلم. كل شيء يبشر بغد مشرق، لكن الغد سرعان ما تلطخ ببراز الحشرات. يقف الجص بقامته الفارعة ينتظر ساعة العمل. يتقاطر التلاميذ على فصله فرادى وجماعات يصطفون في صفين: صف الإناث من جهة وصف الذكور في الجهة المقابلة. صفان مستقيمان كخطين مرسومين بطبشور حاذق، وإذا شذ أحدهم عن النظام يلكمه على ظهره مزمجرا. كانت حصته قاسية بعكس حصص المواد الأخرى التي يجدون فيها متنفسا للضحك، وحتى لأعمال الشيطنة. حصته مرعبة، ونظرته الصارمة كافية ليمسك كل مشاغب عن شيطنته، ويجمد في مقعده ينتظر الفرج. إنه يراه واضحا الآن في دهاليز الذكرى يقف كعمود صلب لا يغير من وقفته الصامدة. كجنرال صلب يبدو مكللا بالنياشين والأوسمة، سلطته تلقى بظلالها على أجسادهم وهو يهتف:

–النظام. كل نجاح يكون خلفه نظام وإتقان.. لا يمكن أن تفلح إن ركبت الفوضى!

وكان يبتكر عدة طرق يحفزهم ويزرع فيهم روحا قتالية. كان يستنهض الهمم فينادى هذا بالطبيب وذاك بالمهندس والآخر بالعالم إذا لمس مجهودا ملفتا. وهكذا كان الفصل يشتعل حمية وحماسة. كلامه مؤلم وهو يصف الواقع. يصف الفقر الشديد، ويتحدث عن حكايات الفقراء، ويرى في العلم مفتاحا للتغيير وغزو المستقبل. وكان حسين عنده مثالا يحتذى به، وطالما أشار إليه مستحسنا نبوغه. أنت ستكون قاضيا لا يشق له غبار! لا

أخاف عليك! ذكاؤك ذهب. ما عليك سوى أن تحافظ على هذه الشعلة متقدة.. ويكيل له المدح بقدر ما يشتم المتكاسلين. وكان توبيخه مؤلما إلى درجة دفعهم إلى الاجتهاد حتى يتجنبوه ما أمكن، والويل لمن أخل بواجباته منهم فسيسمع تقريعا محرجا. ينطلق صوت المدرس قويا مشحونا بالأسى والقسوة:

–وأنت.. ماذا تفعل؟ هه! ذهنك شارد! ألا تذكر الفطور الذي تعده أمك؟ تستيقظ باكرا كي تعد لك الفطور كي تكون نبيها. تذكر يديها المشقوقتين! تذكر مصباح الغاز، رائحة التبن، الألم الذي يخط جبينها من أجل من؟ من أجلك حتى تصبح رجلا وتحمل الثقل. آه يا للتعاسة! ما أنت إلا متهاون وسينتهي بك الأمر إلى الشارع. لا علم ولا عمل. أتدري ما هو الشارع؟ أن تقف عاريا وحدك أمام بؤس العالم. لن يرحمك أحد. إن العالم ليس هو أمك التي تصبر على طيشك وتهورك والتي تحرص على أن تجهز لك رغيفا ساخنا!

كان يتكلم ويتكلم. حصصه لا تخلو من التعليم والتقريع. يتناثر الريق من فمه، ويكور قبضته في وجوههم مهددا، فترتعد الفرائص وتزيغ الأعين. لكن عم انكشف هذا الصراخ؟ هذا الجهد المبذول؟ أين هو القاضي إذا؟ وتلك الوعود الكثيرة التي تسكر الروح أين هي؟ لقد انقطع عن بناء حلمه بمجرد سقوط والده الشافعي في جب المرض. اضطر مبكرا وقبل أن يشتد عوده إلى أن يجابه الواقع الفارغ. كلمات الثناء والميزات المحصل عليها لم تفده في شيء. أقوال المدرس الجص مجرد نسيج من سراب لا غير. لقد وثق في كلماته: أنتَ قاضي المستقبل! الهندام المجلل بالأبهة. الطريق الممهدة كحلم يفوح منه عبق. كل شيء تبخر.

كان يجلس قرب الصندوق القديم يطالع محتوياته كمن يجلس أمام تابوت أقبرت فيه أحلامه. لقد انتهى به المطاف إلى غير ما بشر به الأستاذ سعيد. مجرد بائع متجول يعرض

أقمشة حقيرة تثير التهكم والسخرية. ملابس داخلية وجوارب شتوية ونظرات الاحتقار تلاحقه كلص أو كمتشرد لا يجد جحرا يختبئ فيه. هل كان المدرس مذنبا حين جمل أو زيف الواقع أكثر مما يجب؟ عندما زود روحه بمشعل سرعان ما انطفأ في منتصف الطريق؟ نعم، كانت نيته حسنة ولكن الإطناب في التفاؤل قد يكون سيئا وخيم العواقب وهو ما قد حصل بالفعل.

تنهد حسين بعمق.. بدا له المدرس في خياله مسالم المحيا على غير ما عهد فيه. انطفأ العبوس وتبخرت الصرامة. وتصوره يمر بجانب بضاعته الملقاة على الرصيف المترب، يختلس منه النظر غير مصدق مصير تلميذه النبيه. تصوره يخجل من نفسه، يخجل مما يراه أمامه فيحث خطاه مسرعا، وكأنه يفر من ذكرى الوعود والآمال التي لم تفلح في قهر بذاءة الواقع وقسوته.

# كلمة عزاء

– توفي السيد حسن المغلوطي صباح هذا اليوم. تذكره جيدا؟ والد صديق طفولتنا حمان. لا تنس أن تقوم بواجب العزاء!

ومن لا يذكره؟ من ذا في مقدوره أن ينسى الرجل المهيب الذي جال وصال في ساحة طفولتهم؟ لكن لماذا هذا الخبر؟ لماذا تجشم مرزوق مشقة النعي المكلل برائحة الموت؟ ولم يكن مرزوق صديقا بالمعنى الحقيقي. لقد جمعتهما مرحلة الطفولة، وجمعتهما الأيام والأحداث والتواريخ والصدف مثلما تجتمع مواضيع مختلفة متباينة في كتاب موسوعي واحد، ولم يكن يستريح إلى معرفته ولا إلى هذا التقاطع الذي فرضته مرحلة الطفولة، حيث إنه بمجرد انقضائها،حتى تفرقت بهما السبل وراح كل واحد إلى حاله، وأصبحت لقاءاتهما محدودة جدا لا تعدو أن تكون تقاطعا يقتضيه زحام في شارع ما.

وجاء الخبر المخيف في رسالة حملتها رناتُ الهاتف، فأيقظته من تشرده في أخيلته. كان في البيت وحيدا كغراب أسود منبوذ. الغرفة مظلمة قليلا. ثمة أشعة تسيل من ثقوب شباك قديم تلفظها شمس العصر باردة واهنة. تطلع حوله بكسل يستجوب الأشباح والجدران ويسترجع الأيام الخالية. انهار الرجل أخيرا. انهار الجبل الذي كان كالوحش يتوعد، يقذف بالشتائم في جميع الجهات، يثير الرعب والرهبة إن ظهر خياله الثقيل قاصدا حانوت النجارة الذي يشتغل به. تذكر كيف كان الرجل يحتاج إلى قيلولة لذيذة بعد الزوال؛ تريحه من صخب العمل، وهو أمر لم يدركوه بحكم حداثة سنهم. كانوا، كأطفال، عفاريت زرقاء لا يعرفون هدوءا ولا تعبا. يهبون جماعات وأبابيل إلى الكرة الرثة؛ يركلونها كيفما اتفق حتى يخرج المغلوطي مهددا مرعدا مثيرا غبارا في الحي. أين مجده الآن؟ انتهى ككذبة أو مزحة بذيئة. انتهى كغيمة هشة. ويبدو أن مرزوقا لا يستسيغ حقيقة انتهاء الطفولة بكل براءتها ولهوها ومتاعبها، لا يستسيغ أن تنتهي الوشائج القديمة بالنسيان، فيترك أخبار الدنيا كلها ولا يجد إلا النعي ليبعثه. إلا خبر وفاة المغلوطي، كي يعيده إلى

مسرح الطفولة المترب. مرزوق هذا الشخص الثقيل الذي تشم رائحة البلاهة في ملابسه وفي حركاته، وفي كل شيء يمت إليه بصلة أو سبب. تذكره بنظارته الطبية التي عالجت حوله الواضح، فتأفف من ذكره. دائما ما كان مدعاة للسخرية بسبب مظهره المضحك. استطاع أن يحصل على وظيفة بسيطة في إدارة عمومية. ولعل حوله الواضح كان شفيعه الوحيد في الحصول على مشاعر الرأفة والشفقة. وقف أمام لجنة انتقاء صارمة تضم شخصيات بملابس سوداء وربطات عنق مزركشة، فلمسوا فيه سذاجة وغباء. قال أحدهم منبها:

– لن يجدي نفعا في أي شيء!

وقال آخر بيأس:

– لا يمكن أن يحترف حرفة تنقذه من تشرد الشوارع.

وأكد عضو لجنة آخر:

–بدلا من أن يرى شيئا سيرى شيئين!

وانتهوا إلى قرار متلفع بالضجر والتبرم:

–امنحوه الوظيفة رأفة بحوله!

والحول لا يقتصر على العينين فقط، بل يمتد ليشمل العقل أيضا. الحول عقلي أيضا وإلا لما أرسل النعي البارد يخز جدران عزلته. ترك الأخبار قاطبة ولم يحلُ له شيء سوى خبر النعي يرسله دونما كسل أو تباطؤ. ذبابة متخصصة في قمامة النعي! تطن في الأفق وتنجذب في رحلتها الحقيرة إلى النفايات. وتذكر أن مرزوقا لم يسبق له أن اتصل هاتفيا ليسأل عن أحواله أو صحته أو عمله. لم يسبق له أن أتعب يمناه وخط رسالة تهنئة في الأعياد والمناسبات العديدة.لم يسبق له أن سأل في المناسبات السعيدة التي تجود بها الأيام. والغريب أنه بدون مقدمات يجد الوقت والمزاج والحظ المناسب كي يرسل النعي، ويوصي

خيرا بمراسيم العزاء. أليس هذا مما يتعب الذهن والبال ويثير مشاعر الغضب والامتعاض؟ قال في نفسه: تبا له!كم سمع من أنباء تفرح القلب وتثير البهجة عن آل المغلوطي، ولم يحرك ساكنا ليدعوه للقيام بالواجب. حوله الغريب عدسة مشوهة تغفل الأفراح والمسرات وتركز على المصائب والويلات. لقد حصل نجل المغلوطي حمان على وظيفة مرموقة وترقى في وزارة العدل، وتزوجت أخته لبنى الجميلة بقاضي القضاة، وازدهرت تجارة المغلوطي حتى فتح محلات جديدة ولم يعد فقط معلم «جراج» النجارة. كل هذه الأنباء السارة كانت متاحة وفي المتناول تطوف كالفراشات البديعة في حقول الدنيا، ولكن أين مرزوق من كل هذا؟ أينه ليزف الأخبار المطربة ويبشر النفوس؟ لا شيء. ينطوي في النسيان ولا يستيقظ إلا ليعلن المصائب! هو هكذا منذ صغره، نذير شؤم وبوق مصائب. حتى في لعبه وضحكه كان يبدو طفلا غريبا لا يلعب إلا أمام ركام المصائب. كان يلقب بمرزوق ابن زهرة. وزهرة أمه المكافحة، امرأة معروفة في الحي بجسدها الضخم وهمتها العالية، يُضرب بها المثل في القوة والنشاط. كانت تنظر إلى حول ابنها بنوع من الأسى، وتتساءل مستغربة:

–من أين أتى الحول ووالده عجمان يتميز بعيون سوداء لا عيب فيها، وأنا أنعم بعينين سوداوين نجلاوين لا غبار عليهما.. فمن أين أتى الحول يا ربي؟

ويعود مرزوق من جولاته البطولية يحمل بين يديه جثة قط ميت، غير مكترث برائحة الموت المقززة، ويقدمه لها مفتخرا، فتنهره بقرف:

–يا كلب! أهذا ما تحمله لأمك المسكينة؟

يحسب مرزوق نفسه صيادا عتيقا، فينتف ريش دجاجة ميتة ويزين رأسه بريشات بيضاء كالهنود الحمر، ويبحث عن جثث القطط. أمه ترمقه بنظرة من تلقى خيبات عديدة في حياته. تصرخ فيه أن يلقي الجثة بعيدا وينظف يديه من القاذورات.

وتقول لجارتها:

– ليس أحول العينين فقط.. انه يكسرني ببلاهته العميقة.

ترد الجارة تعزيها أو تخفف عنها:

–لازال صغيرا. سيكبر ويتعلم.

وأنى له التعلم؟ لا يتقن حتى أيسر الأمور وأبسطها. حين بدا حوله واضحا، تذهب زهرة تستجدي الجمعيات الخيرية من أجل الحصول على نظارة طبية مجانية. يفلح مسعاها ويحصل مرزوق على نظارة ستخفف من عطب رؤيته.

وفي الكتاب ينظر الفقيه الحنصالي إلى مظهر الصبي الجديد متعجبا. يمد عصاه الطويلة فوق الرؤوس لينقر على رأسه كأنه يطرق بابا خشبيا:

– تكلم... ويل للمصلين.. أكمل!

ردد مرزوق ببلاهة:

– ويل للمصلين!

ردد الفقيه بحدة:

– أكمل!

لكن الصبي قال بنفس البلاهة، وكببغاء لا تعرف خطورة مأزقها:

– أكمل!

وقام الفقيه، والفقيه عندما يقوم فهذا يعني أن أمرا جللا قد وقع أو يوشك أن يقع، ولا يمكن رده أو التخفيف من سورة غضبه. كان طاعنا في السن لكن صحته وافرة لا يحس كسلا إن تعلق الأمر بعقاب. لم ساقه المبسوطة في غير ما حرج فوق الحصير، وقام من مكانه يحوقل كأنه صادف جنيا. لم يكتف باستعمال العصا الطويلة التي تسافر مجيدة فوق الرؤوس، وهي عادته إن أراد تأديبا أو عقابا، بل ارتأى رأيا آخر. تجشم مشقة القيام،

وتجاوز صفوف الصبيان المتراصة حتى وصل إلى مرزوق الذي شعر بقبضة قوية تنتزعه من مكانه، وتجبره على الوقوف. نظر الولد في دهشة إلى الفقيه الذي صرخ فيه متأففا:

– كارثة.! ويل للمصلين! ألا تحفظ ما ألقنكم إياه؟

تمتم الصبي بكلمات غير مفهومة جعلت الفقيه يستشيط غضبا، ويلقى عصاه الطويلة جانبا حتى اصطدمت بالحائط. نفخ منفسا عن غيظه. وتحت أنظار الأطفال مد يديه المعروقتين إلى نظارة مرزوق ونزعها برفق، ثم وضعها على ما يشبه طاولة إسمنتية في زاوية. أحس مرزوق بصفعتين متتاليين قويتين على خده؛ فقد معهما الإدراك والابتسامة الخفيفة والنظر السليم. كانت حركة الفقيه مباغتة غير منتظرة، ليس فقط لمرزوق الذي ارتعدت ساقاه، بل حتى للصبيان الذين وجفوا وكتموا ضحكة يابسة.

ويحكي مرزوق عن وقع الصفعتين المزلزلتين. شعر بأشجار نارية تحف به. أشجار وهمية ليس يدري من أين أتت أو كيف انبجست. وقال لهم: إذا كان هذا عقاب الفقيه فكيف هو عقاب يوم القيامة؟!

هل بلاهته تعمقت حين أرسل النعي البارد؟ ألا يعرف الأبله شيئا عن طبعه الذي يجعله يتهرب من المواقف الاجتماعية، خصوصا تلك التي تتعرى فيها المأساة كمومس تكشف عن مفاتنها المبتذلة؟ كيف خطر بباله أن يقتحم عزلته بهذا الخبر المحزن؟ ليس الخبر محزنا، فهو لا يحمل عاطفة ولا ذكرى طيبة للمغلوطي، لكن رائحة الماضي تنبعث كجثة ولا يمكنه تجاوزها هكذا باستهانة. ثمة خدش يحدث الآن أو ينبثق كضوء متسخ ولا يمكن أن يتغافل عنه. اللعنة على مرزوق وعلى أفكاره البلهاء! وحدث نفسه: ربما فعلها بسوء نية. أراد أن يخرجه من سكينته ويزج به في الظلام. لقد قال اللعين بنوع من الحرص والتأكيد:

–لا تنس مراسيم العزاء!

خطر بباله أن يدعي جديا أنه لم يطلع على الرسالة. وهكذا يعفى من أية مسؤولية اجتماعية ويتخلص بينه وبين نفسه وبين الآخرين من واجب العزاء. لكن هل سيصدقونه؟ هل يمكن أن يحدق في الوجوه الاجتماعية البليدة دون أن يطرف له جفن.. انه يكره أن يتحدث أحد عنه بسوء أو يشير إليه بأصبع اتهام. أجل. إنه يستهين ويستخف بما هو اجتماعي، لكن هذه الاستهانة تظل أمرا نظريا فقط. أما عندما يتعلق الأمر بالواقع، فهو يرغب في أن يكون في مأمن من الحديث وأهله. يرغب أن ينحف اسمه كثيرا إلى درجة يصعب معها أن يكون موضوع حديث أو خبرا ينتقل من فم إلى فم. إنه يستطيع بحساسية غريبة أن يستشعر كمية العبث والسخف التي يبديها المثرثرون عندما يتحدثون عن الناس وهذا أمر لا يطيقه!

وجلس على الكنبة وهو يتأفف:

– يا لها من ورطة!

ذات يوم أراد أن يغير من طبعه المحدود، ويظهر لبقا كما تقتضي الأصول. تولدت في نفسه رغبة جامحة في علاج ذاته المنطوية. ولتحقيق ذلك كان لا بد من مناسبة تقحمه في الحياة الاجتماعية. ولم ينتظر طويلا بعد قراره هذا، فقد ماتت والدة أحد زملائه في العمل بعد مرض عضال ألم بها. لم يكن شجاعا كفاية ليحضر مراسيم العزاء، وقرر أن ينتظر عودة الزميل المفجوع إلى الإدارة، ويعزيه بعبارات لطيفة صادقة يترجم فيها تعاطفه. كان الزميل ودودا بشوشا تزين وجهه المدور ابتسامة تعكس طيبة قلبه ونقاء سريرته، ولم يسبق أن ظهر منه ما يشي بعكس ذلك. وفي صباح من صباحات العمل، رآه يخطو على الممر الإداري المزين بأصص نباتات مختلفة. ناداه بلا تردد. التفت الرجل ناحيته. كان الحزن يعشش في عينيه، ويظهر عليه أنه واجه فاجعته بصبر المؤمن الصادق. عانقه عناق الإخوة وعناق العزاء وهمس بآلية:

-كل عام وأنتم على خير!

ماذا يفعل بحق السماء؟ انتبه إلى زلته بعدما دقق في محتوى عبارته.. إنه يهنئ بدلا من أن يعزي.. يا للفضيحة! اختلطت عبارات العزاء الكئيبة بجمل التهنئة. سوء حظه هو الذي قاده إلى خلط المناسبات. ولم يجد من مفر سوى أن يتدارك الأمر، ويخلط عبارة التهنئة البليدة بتمتمة متباطئة حتى يخلق نوعا من الضبابية حول الأمر. الغموض من سينقذ الموقف. يا لها من ورطة! كانت أفراح الميلاد على الأبواب. شجرة الميلاد، بابا نويل: العجوز الأحمر الذي يمتطي صهوة الثلوج. التهاني تنهال من كل جهة كالأمطار. رحيل الفقيدة تزامن مع أعياد الميلاد، فاختلط عليه الأمر وتصرف بآلية غبية. كتم أنفاسه وعض على شفتيه وهو يربت على كتف زميله الذي يبدو أنه لم ينتبه إلى الزلة المقيتة.

تنفس بعمق، وكادت تند عنه ضحكة لسخافة الموقف. آه، لأجل هذا يفر من كل واجب ومن كل مسؤولية اجتماعية. بسلوك بسيط قادر أن يهدم خيمة عزاء! فكيف بمرزوق يدعوه إلى أن يحترم مراسيم الموت ويرطن بكلمات محترمة؟ أن يجلس مع الناس متشحا بالحزن والكآبة؟ كيف يريده أن يرى الغربان من نافذة ضحكه ويصبر على طرافة المشهد؟ كيف يمكن أن يجلس هكذا صامتا وهادئا وصورة المغلوطي تتراقص بين عينيه؟ الجثة التي لم يمهلها الموت. الذباب الكسول يحوم حولها يبحث عن فرص قذرة ليلعب ويلهو! وقال ساخرا بصوت مسموع:

– إن الرسالة المريضة التي بعثها مرزوق لا تختلف في شيء عن جثة القط التي قدمها إلى أمه زهرة!

لقد اصطاد القذارة والعفن عندما كان يرفل في قماط الطفولة، وها هو الآن يمارس نفس المهنة. يثبت نظارتيه فوق أنفه الذي يشبه تينة ميتة ويبحث عن الأحزان. وتخيله شخصا يجلس في ركنه بتململ، والذباب يحوم حوله. ووسط بركة كسله الكوني يتناول

دفترا عتيقا يضم أخبار الكون بلا استثناء: الولادات، حفلات العقيقة، الولائم، الأعراس، حفلات الترقية، أعياد الميلاد.. إلخ. لكن قلب مرزوق المشؤوم لا يتعلق إلا بأخبار الموت. يختار خبر موت المغلوطي كي يبشره به ويدعوه إلى القيام بالواجب!

وكان الليل قد خيم عندما انتهى إلى هذه النقطة من التفكير. كان عقله، في تلك اللحظة، ماكينة أفكار ضخمة تصدر ضجيجا وجعجعة. بدت غرفته التي لا يصيبها إلا القليل من إضاءة عمود النور المنزرع في الشارع كحفلة تعج بالأشباح. قال بتصميم:

–سأذهب إليه. لن أتوجه إلى منزل آل المغلوطي، بل إلى صاحب النعي: مرزوق نفسه!

ومقهى المروحة، مجلس مرزوق المفضل، تقع في شارع يضيق بالسابلة، لها بابان أشبه بشرفتين خشبيتين تطلان على زقاق، كراسي خشبية قرب البابين تدعو المارة إلى استراحة سريعة بمذاق الشاي الساخن. لم يتعب كثيرا في الوصول إليها. لقد طابت له الفكرة؛ فزيارة المقهى أفضل بكثير من الذهاب إلى العزاء والوقوف في صالون الموت الشاحب. وفكر ساخرا: مرزوق نفسه لن يحضر العزاء! إنه يعرفه. سيكتفي فقط بلقاء عابر مع نجل المرحوم ويعزيه، ويدخر له هو إحراج العزاء. الكلب يجره من تلابيبه إلى ساحة العزاء المقيتة والعادات الاجتماعية المقرفة. ألا ما أقرفه ! صمم على أن يكون صارما قاسيا معه حتى لا يكرر فعلته. لا بد أنه منحشر في ركنه وسط دخان السجائر، يتسخ زجاج نظارتيه بالغيوم فيضطر إلى مسحهما بكم جاكتته الزرقاء.

ولاح له كما تصوره في خياله. أخيلته كانت موضوعية جدا لا تنقص أو تزيد، يلف جاكتة زرقاء هي الوحيدة التي يملك، وهي التي تميزه صيفا وشتاء وفي كل الفصول. هذا هو كاتب النعي اللعين الذي لا يتعب من تنغيص راحة الناس. خُلق فقط ليزعج! خرج من رحم العدم ليقحم الناس في المتاعب! بصق في احتقار: تفو! وبدون تفكير اندفع إلى

الداخل يتخطى الحشود التي تثرثر وتدخن وتلعب الورق. لم يشعر مرزوق الغارق في دخانه إلا وقبضة صلبة تقتحمه وتلقيه أرضا. نظر إلى صاحبها في رعب. لم يع ما يحصل. ثبت نظارتيه كي يتعرف على هوية المعتدي. كان صاحب القبضة المرعبة يصرخ:

-سأحول مجلسك هذا إلى بيت عزاء أيها الوغد!!

# الحقيقة ليست عارية

يعرف في المدينة باسم الغرباوي، يعبر الأزقة والشوارع والأعين ترمقه في تهكم أو في إشفاق: نظراتٌ ترغب في التسلية وأخرى في التعاطف والرثاء. ينعتونه في حديثهم اليومي: بالأحمق، والممسوس والمجذوب، لكنه لا يهتم بكل هذه الألقاب التي يحملها كنياشين زائفة تتساقط منه كذرات الغبار.

ويشاهَدُ، ذات يوم، وهو يلف حوله علم البلاد، يشرح بذلك وطنية غريبة تتلخص في التجرد الكامل من الثياب، والظهور كوليد خرج للتو من ظلام الرحم ،ولا يجد ما يستر به نفسه إلا قماش العلم. كان يدفع أمامه عربة مليئة بالخردوات والقوارير الفارغة ويحمل عصا لا هي لهش الغنم ولا هي لقضاء مآرب أخرى! عصا يزهو بها كعصا موسى التي تتحول إلى حية مرعبة، بيد أن عصاه لا علاقة لها بالأفاعي ولا بالمعجزات. هي عصا تتحول إلى بندقية وهمية فقط، يصوبها إلى المارة ويطلق الرصاص. فرقعات صوتية يصدرها بصوته الحاد متوهما نفسه في حرب ضروس يتطاير غبارها. يحاصره الأعداء. واحد.. اثنان.. يطلق النار ويتظاهر بعض المارة بالإصابة، فيتساقطون وهم يضحكون!

وسيلعب الغرباوي لعبة خطيرة في حياة بعض الشباب الذين تجمعهم صداقة متينة امتدت لسنوات. لعبة انقذفت في حياتهم من غير وعي منهم كاللهب. لم يظنوا أن الغرباوي سيقتحم ذكرياتهم اقتحاما، ويشعل في قماش حياتهم نارا لن تنمحي آثارها، وتترك جروحا في المخيلة ستتحول فيما بعد إلى ندوب. كانوا في مقتبل العمر شبابا متوثبا يتطلع بأمل إلى المستقبل. يجادل. يخوض. يندهش أمام التقلبات العنيفة التي تعرفها البلاد: سياسة بهلوانية. تنظيمات تحتج، أحزاب تتشكل وتنحل. الصراعات الدولية..

وكان ثلاثتهم يجلسون بمقهى البروفانس الأنيقة: حسن غبوش وعصام الباز وفؤاد الفص، يستعيدون أيام الجامعة بحلوها ومرها، بذكرياتها التي لا تبرح العقل والقلب. المقهى صغيرة تطل على شارع رئيسي، يجلس فيها زبناء من طينة العمال، شباب طلبة، معطلين،

موظفين متقاعدين.. كانوا يتناقشون في كل شيء ويدلون بآرائهم في القضايا والأحداث المهمة التي تعرفها البلاد والعالم، فتعلو أصواتهم التي تدل أحيانا على الغضب والتذمر. وإذا الغرباوي يظهر في الشارع بمظهر جديد ملفت، وقد غير من حالته الجنونية الغريبة، ولبس حالة أخرى أغرب. أجل، ليس هو الغرباوي المعهود بالعلم الوطني وعربة الخردة. نبههم حسن غبوش قائلا:

-انظروا. .. الغرباوي مرة أخرى!

التفتوا جهة القادم. لم يكن يحمل عصاه المعهودة التي تتحول إلى بندقية وهمية. يبدو أن الغرباوي قد تخلى عن أخيلة الأمس التي كانت تساوره، فلا معجزات اليوم. هو نبي متقاعد لا غير. تجرد من جميع ثيابه وستر عورته برداء من الزنك الأخضر. لفه حوله أو شده بحبل متين. بدا أشبه بإناء متحرك، أما رأسه فمغطى بدلو بلاستيكي أسود يشبه قبعة سوداء، حجبت شعره المجعد وجزءا من جبينه. بدا كفارس قوقازي قديم نبت في الشارع فجأة دون أن يقدم تفسيرا للمارة. لم يستسلم حسن غبوش للذهول. أطلق ضحكة مجلجلة أثارت بعض الأنظار، ثم استخرج كاميراه بسرعة ملبيا نداء ولعه الشديد بالتصوير الفوتوغرافي. أخذ يلتقط صورا سريعة ومدروسة للغرباوي الذي انتبه لحركته، فجفل كبغل شرس في اصطبل. نظر إليهم متوعدا وقال:

- لا صور.. لا صور!

ولكن غبوش لم يأخذ وعيده على محمل الجد، بل استمر في التقاط الصور منتشيا، وانتقل بجسارة إلى تصوير مقطع فيديو بكاميرته الاحترافية. في تلك اللحظة لم يستسغ الغرباوي هذا الأمر. لم يستسغ الاستمرار في تصويره دون رغبته. بدا غاضبا جدا، ولم يقم بردة فعل عنيفة لكنه رفع يديه أعلى ليحجب وجهه كعروس تستحيي في زيجة قروية. ثم قال في جملة واضحة:

– جميع الساسة من الألف حتى الياء. جميعهم دون استثناء لصوص!

لا جديد فيما قاله. لا يمكن الوثوق بالسياسي على مر التاريخ. الكل يعلم ذلك، ويردده ككلام نفسي في غرفة وعيه أو لاوعيه، لكن من لديه الفم الجريء كي يصرح به دون التواء أو مناورة؟ المدينة خاضعة لحقيقة أخرى ولسلطة أخرى هي التي تقرر ما الحقيقة وما هي تفاصيلها، وكيف تكون، ولا دخل للسكان بصيغتها. لكن الغرباوي بجنونه المعهود وعمق انفلاته من إسار كل سلطة موجودة يصدمهم بصراحته. يثقب جلد التصنع والزيف والخوف. كانت العبارة أشبه بالرصاصة المباغتة التي ترعب مقاتلا صنديدا في الحرب. لم يتصوروا أبدا أن الأحمق المجنون الذي فقد سلطته على واقعه، سيقول عبارة شفافة في منتهى الوضوح تصيب كبد الحقيقة دون لف أو التواء.

ودخل الغرباوي المقهى تحت أنظار الجميع، وتنقل بزيه العجيب بين روادها لا يستجدي ولا يطلب شيئا. يطلق العبارات النارية فقط والناس يشيعونه بالضحكات والاستهزاء والتوجس. والتفت فؤاد الفص إلى رفيقيه متسائلا:

– سمعتما ما قال؟

قال حسن وهو يوقف التسجيل:

– يجهر بالحقيقة التي يعلمها الكل ويخفونها بالصمت والضحك!

ثم متحمسا:

–لقد صورت المقطع.. لقطة فريدة. أن تعرف الحقيقة شيء وأن تجهر بها شيء آخر. انفتح الفم وقال: الحقيقة. ولكن أين حدث الأمر؟ في المقهى.. في الشارع. في...؟

تأمل الفص كلامه. وجده صادقا لا يحيد عن جادة الحق. إنها لقطة كافية كي تحرج مدينة الموتى والغبار. المدينة التي يموت أبناؤها يوميا ولا تحرك ساكنا. تشيعهم في جنازات لامرئية صباح مساء، والناس يتطلعون من جحورهم إلى أفق أسود محتقن بالدم، ولا يجدون

المعاصم القوية للتحرك وكسر الأغلال. في الروح عطش قوي ينخرها والبئر قريبة وفي متناول الأيدي، لكن لا أحد يرغب في أن يراها، أو ربما يخاف أن يراها. وهكذا كان عليهم الانتظار طويلا مثل مسجونين في قارورة التاريخ حتى يهل شخص عجيب يفتح سدادة القارورة، ويقول ما يقول. ولم يكن هذا الشخص سوى الغرباوي المجنون الذي عرى وجه الحقيقة الكئيب، وكشف نتانة الواقع. أخذ يجول بين الرواد يبادل هذا كلاما وبهمل ذاك. ينظر إلى النقود بسخرية واحتقار، يتبادل كلاما مع نادل المقهى الذي قال لهم فيما بعد:

-يأنف من كل صدقة تقدم إليه. أما رداؤه المصنوع من الزنك فهو وقاية له من السم.

هتف الفص في دهشة:

-سم؟!

قال النادل مبتسما:

-يظن نفسه مراقبا من رجال المخابرات ولا بد أنهم سيسممون ثيابه لاغتياله!

أي جنون هذا؟ ينطق الحقيقة المرة. يتخلى عن ثيابه وقاية من السم. يرفض الصدقة التي تقدم إليه، ويعتبرها نفاية لا تليق إلا بسلة المهملات. يحمل جسمه وهذيانه يوميا من مكان إلى مكان ولا يتعب من زعيقه المستمر. العبارات النارية تتكرر في كل الفضاءات، ولا يستفيق الموتى من السبات، وكأنهم يسكنون الجحور الحديدية التي لا تتأثر بالضربات، وكأنهم بغير مخالب ينامون أسرى سلام وهمي.

وسألهم غبوش صاحب الكاميرا مقترحا:

- ما رأيكم في نشر الفيديو؟ إنه فيديو أحمق ولكنه قد يصنع المفاجأة!

قال عصام الباز بعد تردد وكأنه يخشى شيئا ما:

- فكرة لا بأس بها.. ولكن أخشى. .

وقال فؤاد متحمسا:

– بل فكرة جيدة.. لكن ماذا ستخشى؟ الحمقى ينطقون بالحقيقة وقد نطق الأحمق. هو من نطق. ما شأننا نحن؟

كان الفص يقصد ذلك القول المشهور الذي يضع الحقيقة رهينة الأطفال والمجانين. الطفل لا يجد أي حاجز يمنعه من قول أي شيء وفي أي وقت. إنه لا يعرف قوانين العالم السخيفة، ولا ينضبط لأعراف محيطه. قد يتبول على المائدة وهو يضحك بحبور. الطفل يسبح في حريته اللانهائية. آه، لو كان العالم تحت سلطة الأطفال! سيكون الضحك وساما يوميا وعبادة متألقة! أما المجانين فهم فعلا نسخة من الأطفال، نسخة مشوهة مؤلمة قد تثير نرفزة وقد تثير ألما. يخرجون عن حدود العقل والمنطق فينطقون بجمرة الحقيقة في مدينة الخوف والتقهقر.

وقال عصام بحذر:

– لكن ماذا لو ترتب شيء.. أنت تعرف المدينة!

قال حسن يحاول إقناعه:

– لن يحدث شيء. لقد نطق الغرباوي. لا تحمل الأمر أكثر مما يحتمل. ثم إننا لم نفعل شيئا. هو من نطق. والحكومة لا تلتفت إلى كلام المجانين!

واستقر رأيهم على نشر الفيديو على النت في بعض المواقع الشعبية، وليكن ما يكون. كان عنوان الفيديو مركزا جدا ومثيرا للفضول: «الناطق الرسمي باسم الحقيقة». وكأن الحقيقة لا جذور لها إلا في جولات الغرباوي العجيبة، وفي شطحاته المثيرة للاستغراب.

تم تشذيب الفيديو قليلا حتى يجذب انتباه المشاهد. مجنون بأسمال يظهر وسط العامة، وينطق كلماته السحرية يعري الواقع. يعري الجالسين على الجماجم، البطون المنتفخة، يعري المقابر. يظهر الغرباوي بردائه الملفوف بحبل، وكأنه قماط طفل ينبت في رحم الواقع مغلفا بسخرية عميقة. أجل! إنهم لصوص. يقول الغرباوي، ولا يقولها بوجه منشرح بشوش،

بل يستعير سحنة عراف يمزح ويمضغ النجوم. ينظر إلى الواقع بشكل جانبي كمن يرمق جثة عفنة تفوح منها روائح تعافها حتى المقابر. الدلو تاج! والزنك مسوح رهبان! الحكومة مجموعة من اللصوص. أي بهاء هذا الذي يفوق بهاء الشمس؟ أي وضوح يشرق دون التواء. دون تلعثم؟ عبارات تنطلق كالرصاص وتصيب الكون في مقتل. الكل يخاف من الحقيقة. يفر منها كجذام سيلحق به. وإذا ما عاج أحد عليها أو اقترب منها اقتراب المتردد الخائف، فيعمل على تلوينها بالمساحيق حتى تبدو منسجمة مع الزيف. لكن بعد هذا الوضوح الذي اقتحم شاشة الواقع، هذا الزلزال الذي رن كجرس ساعة، فلتقم الساعة الكونية ولينبعث الأموات من الأجداث. ألم ينطق الغرباوي بحكمة خضراء تشبه العشب وتشبه رداء الملائكة؟ ألم يقل كلمته في الحشد المتكلس ومضى؟ فلماذا التعنت والتباطؤ؟ الناطق الرسمي بالحقيقة! سينتشر الفيديو بين الناس وسيلمع اسم الغرباوي كنجمة وحيدة في سماء السواد.

وكان ثلاثتهم متوترين قليلا. لقد أقنعوا أنفسهم أنها خطوة عادية لا تحمل استفزازا ولا داعي للخوف من الأوهام. من العار أن يستسلموا هكذا لمخاوف لا توجد إلا في عقولهم، ويعيشوا كظلال مرتجفة لا تختلف عن تلك التي تكونها شمعة ذابلة في غرفة فقيرة.

قال عصام محذرا:

-إذا حدث شيء فانا بريء مما تفعلان.

قال الفص معاتبا:

- لا تكن جبانا!

لكن هل وحده الجبان؟ لو سألوا أنفسهم منفردين عن حقيقة بث اللقطة، لتعجبوا من إقدامهم على مثل هذه الخطوة، هم الذين لم يسبق لهم الاقتراب من مخفر شرطة حتى على سبيل الدعابة. إنهم لا يدرون، لحد الآن، كيف اقتنعوا بالفيديو وفكرة نشره على

الملأ. ربما لطرافته الواضحة الصافية، فالغرباوي كان طريفا في مشهده بملابس الزنك الخضراء، وقبعته البلاستيكية بغض النظر عما يقوله. وإذا ما حدث وانتشر الفيديو، فانتشاره لن يكون بسبب العبارة النارية، بل بسبب مشهد المجنون المضحك.

وكان حسن غبوش يرغب، مع شيء من التردد، في انتشار الفيديو على نطاق واسع ويثير بهجة ومسرة. كان يفكر ويفكر محاولا تخمين العواقب. كان يشعر بالخوف مثل رفيقيه ويرغب في التخلص من مشاعر النكوص. مشاعر الخوف التي أصبحت مثل طبقة الأوساخ المتراكمة فوق جلودهم. وكان يرى أن التخلص من الخوف لن يتحقق إلا بانتشار الفيديو بين الناس حتى يستوعبوا تماما أن الخوف الجاثم على الأنفاس والصدور خوف بلا مبرر. لا شيء وراء تلة الخوف سوى السماء الرائعة. المخاوف مجرد متاريس يصنعها الناس من أجل الحماية لكنها تتحول، بمرور الوقت ودون وعي، إلى سجون. وما أفظع أن تحتمي من الخطر بالسجن! سيشاهد الناس الغرباوي يسخر، ينتقد، يعلي صوته في الشارع بلباسه الكوميدي، وسيضحكون من كلامه العجيب حتى يداروا العجز والحرج وتفوت اللقطة الفاضحة. ورغم محاولاته في التخفيف من جرعات الخوف إلا أنه كان يفشل، ويتساءل: ماذا لو انزعجت أجهزة السلطة من اللقطة؟ ماذا لو صدق تخوفهم منها؟ الخوف يغطي وضوح الصوت، خائف هو مهما أظهر الشجاعة والطمأنينة، أفكاره مشوشة مسورة بالخوف من الأمن ومن أساليبه الهمجية في مواجهة التمردات والآراء المعارضة. كان يعرف وحشية ممارساتهم، ورفيقاه يعرفان أيضا من خلال تجربتهم الجامعية. لقد سمعوا كثيرا عن اعتقالات الطلبة اليساريين، سمعوا عن التصادم المأساوي الذي يقع بين رجال الأمن والطلبة الماركسيين. وقد أخذ يهون على نفسه ويطمئنها ويقول: إنه زمن آخر، زمن النت حيث الأشياء شفافة جدا والنار لا تثير هلعا ولا رعبا. الأمر بسيط ولا يستدعي الخوف.

لا يمكن أن يكون جردل ماء مصدر خوف. واقتنع شيئا ما أو اطمأن أكثر عندما سمع الفص يشاطره نفس الرأي ويردد نفس خواطره بأسلوبه قائلا:

– نحن أبرياء تماما مثل الأطفال الذين يدهشهم العشب في حديقة عمومية. لا شأن لنا بالليل إن كان دامسا أو غارقا في الظلمة.

وواصل حسن تفكيره يؤكد ما ذهب إليه، ويعمق سلوكه المطمئن: لو كان النت مدعاة للقلق ويثير حفيظتهم لمنعوه، لكنهم لا يأبهون بذلك لأن الأمر لا يشكل خطرا. إنه زمن آخر ولا داعي لتضخيم المخاوف. آه. النت: وسيلة عجيبة قادرة على جس جلد السماء، وقادرة على تتبع دبيب النمل. لكم تبدو هذه الوسيلة مجدية ونافعة في زمن التجبر والتسلط، ولكم تبدو رائعة وهي تفتح كوى معقولة للتنفس والإحساس بالحرية! لم تعد المسافة جدارا يحجب. لم يعد العقل البشري كهفا يعج بالهواء. لا مكان للأسرار. النوافذ نفسها تنقل الخبر والزرقة والنخل الذي ينتصب بشموخ في الزقاق. النت وسيلة جديدة لجس السماء واختراق الأستار. لم يعد للعراف مكان في زمن النت. الملائكة يحملون أجنحتهم المكسورة ويهربون بعيدا. السماء حاسوب ضخم، ويكفي أن تكون اليد المحترفة جريئة لتنقر على المفاتيح، وتدوس على الأزرار.

وفي وقت متأخر من الليل، سمع الفص طرقا عنيفا على الباب. كان يقطن بحي الشعبة الفقير، يستأجر بيتا صغيرا يليق بأعزب لازال متأثرا بنمط الحياة الجامعية، يعيش الوحدة ولا يحتاج إلا لبعض الأثاث الفقير. تساءل بقلق:

–ترى من الطارق؟ لم أعهد مثل هذا التدخل الليلي العنيف!

وجرت في خاطره بعض الأفكار السريعة والمقلقة. وهبط السلم وكأنه يثب وثبا والطرقات تتسارع. ثمة ضوء مصباح مثبت على الجدار يكشف الممر النحيل، ويكشف مزلاج الباب. فتحه ببطء ليجد نفسه أمام شخصين لا يعرفهما: الأول يرتدي بزة شرطي،

أما الآخر فكان بملابس مدنية عادية. ولم يكد يعي منظرهما المثير للشكوك حتى انتزعته قبضة عنيفة من مكانه وهو يسأل مذعورا:

– ما الخطب؟

وقال الأمني بصوت حانق:

– لعب الصبيان! ستعرف فيما بعد.

وجد نفسه محشورا في السيارة البوليسية البيضاء التي انطلقت في الشوارع الفارغة. أسئلة متضاربة ترددت في الرأس بدون إجابة شافية. ما الخطب حتى ينتزع هكذا كريشة من جناح الوقت؟ لم يجرؤ فؤاد، في كربه، على أن يحسن التفكير ويعقلنه. خاف أن تكون ثمة عين شريرة تطل من كوة خفية تتجسس على عقله. ود لو يوقف كل شيء في ذهنه حتى يحمي نفسه من أسئلة محتملة قد تورطه في الموضوع أكثر. لم يفعل شيئا في الحقيقة. لم يسبق له أن احتك بالسلطة أو ناوشها. صحيح أن أفكاره كانت تتسم بوعي كبير مثله مثل باقي المتعلمين الذين نضجوا كالثمار بين أسوار الجامعة، لكن لم يكن يملك الشجاعة الضرورية ليشارك في مظاهرة أو احتجاج. مجرد نقاشات مع الخلان والأصحاب على الطاولة الباردة، وتبادل متواصل للسخط والحنق، وحذر كبير من أن تتسرب الانتقادات كغيوم خفيفة. وظاهر أن حذره لم ينفعه، وخطوة متهورة أسقطته كالغر في الفخ. تذكر مقطع الفيديو الذي نشروه عبر النت. أيكون من أوقعه في هذه الورطة؟ ومض السؤال في ذهنه. كيف غاب عنه الأمر؟ واختلس النظر من الوجوه الصارمة الباردة التي تشبه حجارة صلبة، وانكمش في مقعده كعصفور خائف منتظرا ما سيسفر عنه الوقت الثقيل المرير. الوقت يمر ويحس به باردا في عقله ككرة الثلج. وانتبه، في خضم قلقه، إلى الفرملة القوية التي أعقبها توقف السيارة. ها هي ساحة المخفر المزينة بنخلة مترية تبدو كيد معروقة على ضوء النجوم. أنزلوه. لم يدر كم عددهم أو لم يهتم في وضعيته بحقيقة بالعدد. الميت لا

يهتم بحاملي النعش! كان هناك الشرطي بلباسه الرسمي، والأمني صاحب اللباس المدني الذي لم يتخل عن وجهه المتجهم، إضافة إلى آخرين هرعوا لاستقباله، وشرعوا يزاحمونه بفظاظة في الأوكسجين. كان شعوره مبتلا أو قريبا من البلل، أو ربما هو شعور من يعاني من ضيق التنفس مما جعله يحس بالبلل. كانت نفسيته مبتلة كالقماش. اقتادوه إلى الداخل بشكل مهين وعنيف. المخفر يعرف حضورا استثنائيا لرجال البوليس بسبب ظرف طارئ مبهم. وجد نفسه، دون أن يشعر كيف تم ذلك، في حجرة الضابط الواسعة. وكان هذا الأخير يقف كعمود نور محاذيا مكتبه، منشغلا بالاستماع إلى شبحين ضئيلين. وتطلع الفص في دهشة إلى الشخصين الجالسين بانكسار. انكشفا له على ضوء الخوف والتوجس. كان غبوش والباز يجلسان منكمشين في جلسة تحقيق. الاعتقال إذًا له علاقة بالمقطع. لقد سبقاه إلى هنا وربما عرفا نفس التعسف المشين، وقد يكونان من دلا عليه من خلال الاستنطاق والضغط. انه يعرف الأدوات الحقيرة التي تستعمل في مراكز البوليس والتي تهوي بكرامة الإنسان إلى الحضيض. الحائط نفسه يمكن أن يعترف عند البوليس! ولاح له شبح الغرباوي، الغرباوي المجنون دون غيره في زاوية الحجرة. لم يتخل عن ميسمه الذي يشي بالمس والجنون. يسير ذهابا وإيابا، ويتمتم بكلمات غامضة لا معنى لها. لقد وضحت القضية برمتها. الأمر يتعلق بالغرباوي. يبدو غائبا تماما، ولا يشعر بمرارة الموقف الذي هو فيه. وحدهم يشعرون بالمرارة، ويبحثون عن مخرج للورطة. كانت نظرات الخوف والتردد تنتشر كالوباء على وجوههم، وسمع الفص صوت الشرطي الذي يقتاده يقول:

– هاهو الخنزير الثالث!

دفعه بقسوة حتى كاد يقع على وجهه لولا أن تماسك في آخر لحظة وحفظ توازنه. وجلس جنب رفيقيه متعبا. ومضى الضابط إلى وراء مكتبه ليجلس بتؤدة:

– عظيم.. عظيم!

وفحص الضابط سحنة الفص جيدا يبحث عن جواب ما. كان صارما من خلال نظرته القاسية التي يثبتها على أي شيء ينوي اختراقه واستخراج مضمونه. كان شاربه الكث يغطي شفتيه، ويسبغ عليه مظهر الرعب والمهابة. وبعد فحص طويل مثير للأعصاب، التفت ناحية حسن غبوش وخاطبه:

– أنت الذي صورت الفيديو. أليس كذلك؟ لقد شاهده الناس بكثرة!

أجاب الشاب بسرعة:

– بلى. لكنه مجرد مشهد بسيط. لم تكن هناك إساءة مقصودة.

قال الضابط ساخرا:

– أجل، مشهد تشعل به الأوضاع وتقول: مشهد بسيط! لقد مسست بحرمة رجالات الحكومة.

اندفع الفص يقول وكأنه يبرر:

–لقد كانت مجرد مزحة!

رمقه الضابط بنظرة قاسية يعاتبه:

–نحن لا نمزح!

ثم بصوت بارد وقاس:

– نواياكم الحقيرة واضحة ولا تحتاج إلى دليل. كنتم تنوون إشعال الفوضى!

الفوضى! يا لها من كلمة لا تخطر على البال ولو في الكوابيس التي تقض المضاجع! كلمة كالبئر، كالقبر الذي يفتح ساعديه الرماديين ذات صباح موحل. هذا الضابط يلفق التهم كيفما شاء وكيفما اتفق، ينوي إغراق السفينة في الوحل. ثمة ثقب ضئيل في السفينة لكنه لا يسمح لهم بطريقته الماكرة بسد الثقب. متسلط يرغب في إغراقهم جميعا دون شفقة. فحص فؤاد الفص رفيقيه يبحث فيهما عن يد تنجده من أفكاره. كان وجه غبوش

شاحبا، أما عصام الباز فقد هرب الدم من وجهه. كان صامتا لا يتحرك كمن دخل في حالة حرجة أقرب إلى الانهيار. بدا مصدوما لا يعي أو يستوعب ما يجري. لا يد له في الأمر. لم يبد حماسا كبيرا ولا اعتراضا كبيرا في عملية صناعة الفيديو. راقب فعلتهما كأنه ظل لا يميل إلى أية جهة. كان متحفظا متوترا ضاحكا غير مبال، وكأنه يقول للعالم: لا شأن لي أنا بكم. أنا أطرش، أنا أعمى، لا أرى شيئا. لن أمد يدي إلى نجمة لأسرقها أو ألمع ضوءها. لست ماسح نجوم (على وزن ماسح أحذية). أنا هكذا عشب. حجر محايد. وها هو حياده لا ينفعه في شيء. ها هو يقبع، ويبتل مثلهم بالعرق في المخفر، ويواجه نفس الموقف ونفس التهم الثقيلة. إنه لا يعرف ماذا يقول. توجه إليه الأسئلة المربكة المسمومة، فيظل صامتا جامدا كسور في طريق مهجور. والصمت في المخفر مثله مثل الكلام: لا فرق بينهما في الكلفة، لأن النتيجة واحدة ووحيدة: إذا تكلمت، يسجلون كلامك بعد تعديله كي تغرق في مستنقع التهم. وإذا لذت بالصمت، يتكلمون بدلا عنك ويورطونك. فما العمل إذا؟ الصراخ لا يجدي والصمت لا يجدي!

قال الفص يدافع بصوت مختنق، خرج كلامه مبعثرا:

– لم نقصد ذلك. كان الغرباوي مضحكا بملبسه العجيب، وكنا نبحث عن لقطة تدخل السرور. كانت مزحة لا غير!

لم يستسغ الضابط طريقة دفاعه، حيث فهمها على أنها تماطل وتهرب لا غير. نظر إليه ببرود. كان أعوان الشرطة يحدقون بهم، ويشكلون ما يشبه مصيدة تتأهب.

هب حسن غبوش يقول:

– كانت مجرد صورة وفيديو، والمجنون هو الذي قال ما قال!

– ماذا قال؟

عاد غبوش للجلوس كالمنهار. تردد في الإجابة. أدرك الفخ الذي هو مقدم عليه. قال مدافعا بيأس:

– لم أقلها. قالها الأحمق!

فردد الضابط سؤاله:

–ماذا قال؟

هذا أشبه بأن تنبس بشيء محرم أو مقدس في قبيلة بدائية، تعلي من مكانة رموزها، وهي طريقة عتيقة لتسييج المقدس وحفظه بعيدا عن الأيدي المتسخة. رماح وحشية في العقول وفي العواطف تتأهب لطعن المخالفين المتطلعين إلى التحرر. كان الفص قد قرأ فيما مضى ما يشبه هذا الأمر. التقديس والخوف إلى درجة عدم التلفظ بالشيء أو النطق به. إنه يشبه ما ورد في المعتقدات اليهودية القديمة التي تحرم نطق اسم الإله حتى لا يتم تدنيسه بالصوت البشري القذر. اللعاب قد يجرح السماء.

وقال حسن باستسلام:

– قال: إن رجالات الحكومة كلهم فاسدون.

– أجل. أجل، وأنت صورته مبتهجا دون أن تفكر في العواقب!

–لا! لقد صورته بغرض الترفيه، فنطقها في لحظة التصوير. لم نقصد أي سوء.

وتابع الضابط اتهامه:

–أنتم شياطين! لذلك عنونتم الفيديو بالناطق بالحقيقة!

ثم صمت وكأنه يفكر قبل أن يهتف:

– يعني أنه قال الحقيقة!

هتف الفص بخوف:

–لا. لا لم نقصد أبدا! كانت مزحة. لقد وضعنا هذا العنوان لأن الأطفال والمجانين ينطقون بالحقيقة. كانت فكرة سمجة لا غير. أرجوك أن تفهم يا سيدي!

لا يقتنع بأي شيء ولو أقسمت بأغلظ الأيمان. مخه كفك مصيدة ولا يحيد عن هواية الصيد. واستمات ثلاثتهم في الدفاع. طرقوا جميع السبل من أجل النجاة. كان البحر سيئا للغاية. كانت اللغة منشفة لمسح الريق المتطاير. كانت التهمة تقترب منهم كالقدر. كان الضوء، الذي يضيء حجرة التحقيق، قاسيا جدا إلى درجة انه يجلل وجوههم التعبى بظلال تعَب ميت. فكر الفص: كيف سننجو من الورطة؟ ألا لعنة الله على الغرباوي وملبسه البدائي! هل كان لا بد لنا أن نصور العته والبلاهة؟ ولا نكتفي بذلك، بل ننشره للعامة كي يضحكوا ويقهقهوا. وحانت منه التفاتة إلى الغرباوي الذي بدا يسبح في فراغ غامض ولا يهتم بما يجري. لقد أدار وجهه إلى الحائط بلباسه المصنوع من الزنك وبالدلو المقلوب على رأسه كتاج بلاستيكي يثير السخرية. وعلا صوت الضابط كالهدير الغاضب يمعن في التوبيخ والشتم وإلصاق التهم. لم يلتقط الفص كلمة واحدة مما قال. ربما الخوف نال منه أو أن حالة الغرباوي الغريبة قد سلبته وسلبت انتباهه. كانت وقفته بحذاء الجدار مثيرة للاستغراب، فهو بدون عصاه السحرية التي تمكنه من معرفة الواقع بدقة. وقفته وقفة مثيرة حقا. أعزل تماما أمام العالم وليس بوسعه أن يتباهى بعصاه التي تتحول إلى بندقية، وتمكنه في لحظة صفاء من أن يفرغ رصاصاته في صدور أعدائه الوهميين. ترى كيف يتعامل مع حالة اعتقاله هاته؟ هو أيضا متهم، بل هو على رأس المتهمين وجنونه لن يكون سوى مهرب رث يلجأ إليه أمام صفعات الأمنيين. علا الضجيج. المخفر طاحونة لا تتعب. يوجه الضابط اتهاماته. يوزع ملاحظاته وكأنه يوزع الخبز على الفقراء. الأعوان يتأهبون للانقضاض على الفرائس. وقال الفص لنفسه: أجل.. ما الجدوى من الكلام؟ إن التهمة

تكاد تطبق علينا ونحن ندافع وندافع عبثا. ثمة هوة في الأرض أشبه بفك وحش تنفتح تحت أقدامنا!

وصرخ بغتة بدون وعي منه:

– لا!

التفت إليه الضابط مندهشا. قطب جبينه مستاء فأكمل الفص متماسكا:

– لم نقل شيئا. المجنون هو الملوم!

ضحك الضابط ضحكة بدت نشازا في الجو المكهرب، وردد متهكما:

– المجنون!

وقال متباهيا كمن يصرح بسر خطير:

– يا جماعة المجانين! هل تظنون أننا غافلون عما يجري؟ ندع العشب هكذا ينمو دونما رقيب؟ ندع الهواء يتجول بأريحية؟ ندع القمر بدون حراسة؟ هل تظنون أن طابور النمل سيستقيم بدون تدخل منا؟ إن الدولة تقوم بكل شيء وهي تسهر على كل شيء، ولا تترك ثقبا صغيرا يسمح بتسرب حشرة واحدة.

سأل غبوش محتارا:

–ماذا تعني؟

قال الضابط بفخر:

– إن الغرباوي نفسه من رجالاتنا. مخبر زرعناه لكشف النوايا السيئة التي يحملها أمثالكم، ولن يفيدكم الإنكار في شيء.

هتف الباز مبهوتا:

– مخبر؟

وتبادل ثلاثتهم النظرات في قلق، والتفتوا إلى الغرباوي في نفس اللحظة يبحثون عن سبب للتصديق أو سبب للحقيقة التي يصعب تصديقها. لاح لهم كأنه لم يسمع ما قيل. حافظ على مظهره الجامد المألوف. هل يتصنع مظهره كممثل محترف ويستمر في لعب نفس الدور ونفس اللعبة؟ أ هذه وظيفته في الكون؟ أن يرتدي الأسمال ويرخي سمعه في الأزقة والطرقات يبحث عن أفكار التمرد لينقلها طرية إلى أسياده؟ أ وظيفته: أن يظهر بمظهر المخبول ويزاول خداعه باطمئنان دون أن يشك فيه أحد؟ اللعين يخدع. يضحك. يصمد أمام رياح الشك، ويؤدي عمله بصبر مذهل. يكتب التقارير في الليالي الباردة ويورط الضحايا دون أن يطرف له جفن. طعم تضعه الأجهزة الأمنية في الطرق كجبنة الفأر. أتعرف ما معنى أن تتحول إلى جبنة بيضاء؟ أن تتحول سيرتك إلى بياض مكعب حتى تجذب الانتباه، وتفرز رائحة تثير لعاب الفئران وغرائزهم؟ أن تكون غريب الدور؟ تقولب روحك وكيانك حسب ما تمليه الإرادة العليا التي تطحن البشر. انه ليس مجنونا بل هو عاقل جدا. دوره المرسوم بعناية يقتضي أن يدعي الجنون ليسقط عقلاء البلد في الشرك. لقد سمعوا بمثل هذا الأمر في الأقاويل التي تتناقلها الأفواه الجافة، وفي الحكايات المهموسة بين جدران البيوت. سمعوا أن الحكومة لا تغفل عن شيء وأنها بارعة في زراعة المخبرين. بارعة تزرع الأشخاص مثل الفلاح الذي يزرع البطاطا وتنتظر. كان الفص يحاول أن يمضغ التصريح العجيب كما يفعل مع خبز قديم يابس. كان مرعوبا بحق أمام ما ينتظرهم. لقد قرأ كثيرا عن أدب السجن وأدب التعذيب وارتاع من الممارسات السادية. الأقبية المظلمة التي لم يسبق لها أن عرفت جناح الضوء، وقع أحذية الحارس على الأرضية الذي يتحول، مع الوقت، إلى إيقاع رتيب كزخات مطرية بعيدة. لقد سمع أن الجلاد يمكن في لحظة جنون أن يرغم الضحية على مضاجعة ذبابة. أجل، قد يبدو الأمر من سابع المستحيلات، لكن الجلاد بقسوته وانحطاطه الأخلاقي الفج، يرغم السجين على أن

يفعلها، ويرغمه على فعل ما هو أغرب، كتوهم الإنجاب من ذبابة أو فراشة، وضرورة إقامة حفلة العقيقة!.

هل يمكن للعقل البشري أن ينهار وينبطح هكذا وبهذه الطريقة؟ الجلاد كتلة لا ضمير لها. واضح وجلي ذلك. لكن هل يمكن للإنسان أن ينكسر هكذا وعلى هذا النحو؟ لم يستسلم الفص للأخيلة المتوالية كمطر سريع يثقب جلد سطح طيني.

خاف من المنتظر، من مستقبل يسيل من الأعالي كماء أسود. الضابط يمزح والغرباوي ليس بمخبر كما يقول! إنها غواية جديدة هدفها استدراجهم إلى الاعتراف. الضابط ثعلب بشري يجهز لهم مصيدة أخرى. إنه لا يكف عن نصب الكمائن والفخاخ في الطرق المظلمة خبيث. داهية. يزمجر وفي صميم أعماقه يضحك بسعادة وسخرية.

قال الفص بثبات:

– لكننا نصر على البراءة. لم نقل شيئا ولا علاقة لنا بالحقيقة التي سجلتها الكاميرا!

وحينما نبس بلفظة الحقيقة، قفزت إلى ذهنه عبارة «وزارة الحقيقة» التي تحدث عنها أورويل في أدبه السوداوي، يحذر من المستقبل المظلم الملبد بالغيوم.

الوزارة التي تراقب كل شيء وتفحص كل شيء بما في ذلك الهواء الذي يتسلل إلى الرئات.

ولا تقبل الوزارة المشؤومة إلا الحقيقة الرسمية المختومة بطابعها. الحقيقة على المقاس. لا حقيقة إلا تلك التي تصنعها الحكومة ولا حقيقة إلا تلك التي يصنعها الجلاد من حذائه. وداهمته ضحكة الضابط العالية التي اخترقت الهواء كعواء. مال إليهم بظله مركزا عينيه على أجسادهم وهو يسأل:

– وهل تظنون أننا أوقفناكم لأنكم جهرتم بالحقيقة؟

تساءل غبوش ذاهلا:

-ولماذا إذن؟

قال الضابط بصوت واضح وضوح الزنزانة:

-لأنكم سمعتم الحقيقة. هل فهمتم!؟ تهمتكم الوحيدة أنكم سمعتم الحقيقة!

# الوردة الملكية

أعترف أني نظيف نظافة ليس بعدها نظافة، ولست أبالغ في كلامي أو أطلق العنان لمخيلتي أصف شيئا غير موجود أو شيئا من قبيل التوهم. أنا نظيف. وصف موضوعي محايد يليق بي وبشخصيتي، وأحس به يلتصق بي التصاقا شديدا كما يلتصق الظل بصاحبه لا يبرحه للحظة واحدة. ولم أكتشف ذلك غب دراسة مستفيضة أو فحص دقيق، بل حدث الأمر فيما يشبه الصدفة. كنت في الإدارة، أجلس على مكتبي كموظف حكومي محترم يعتني بكل تفاصيل عمله، أنكب على الملفات العديدة، وألتفت من حين لآخر التفاتا بسيطا إلى ثرثرة الزملاء في المكاتب الأخرى المحاذية، والتي تتطرق إلى جميع المواضيع، المهمة منها والتافهة. ولم أدر إلا وزميلة، وهي امرأة في الأربعين أو أقل قليلا، تهب من مجلسها تقصد خزانة الإدارة المجاورة لتناول بعض الملفات. كانت حركتها روتينية طبيعية قد سبق أن أتت بمثلها في الكثير المناسبات، لكن هذه المرة بدا الأمر مختلفا، فقد حدث شيء لم يكن في الحسبان: اشرأبت بعنقها أعلى تلتقط الملفات، وإذا بكومة من الغبار تنتشر في الهواء وتتسلل إلى محيطي. غبار وقح أحسست به يعلق بالخياشيم، ويخلق فيَّ رغبة عميقة في العطس. لقد وجد الغبار المندس في الملفات فرصة لينطلق من عقاله ويعانق الهواء. انتفضتُ وندت عني حركة عنيفة عصبية. لقد تلطخ الهواء. انتشر الغبار ماكرا في مسامات الهواء، وألقيت كل ما بين يدي من أوراق وصرخت في وجهها كالمجنون:

– ماذا تفعلين؟.. أوه..

كان صراخي أشبه بانفجار لغم في الصحراء. تسمرت في وضعها لا تدري ما الخطب، وانتبه الزملاء إلي مندهشين، لكنني لم أكترث لدهشتهم ولا لنظرة المرأة البلهاء الفزعة. كان همي الوحيد وشغلي الشاغل أن أفحص الهواء الملطخ الذي يطوقني كعدو ماكر، وأقي نفسي من قذارته بأية وسيلة متاحة. فحصت مرعوبا الذرات المتناثرة. الهواء المجروح القذر. ودون أن أبرر صرختي، غادرت أتنفس كالمحموم لاعنا كل من حولي.

لم أناقش الواقعة مع الأستاذ علي العظم، لكنه حاول كعادته التسلل إلى أفكاري. راوغ قليلا، ثم تحدث بشكل مباشر عن الأمر. سألني في قهوة النصر وهو يضع سيجارة في فمه:

– ما الأمر؟ ماذا حدث؟

نظرت إليه مترددا في البوح. هو أقرب الزملاء إلي في العمل. كانت أعصابي قد هدأت نسبيا. أنا نفسي اندهشت. لم تكن الأسباب واضحة. كان ثمة غموض يلف الحادثة كالضباب الصباحي الذي يغلف أجسام الأمكنة وأجسام الأشياء. لست بالشخص العنيف الذي يصرخ في وجوه الآخرين، ويوبخهم مهما حدث. كنت إنسانا مسالما أخجل حتى من التحديق في وجه قطة تموء في سلم البيت. فكرت مليا في الحادثة، ووجدت نفسي أجهل المبرر والتعليل المناسب لما حدث. حلم غريب ربما ما حدث. نظرت إلى غيمة خريفية تلتصق بأغصان شجرة:

– لا أدري.. أحسست بقذارة الهواء من حولي، فلم أحتمل المشهد.

وضحك مستغربا من ردي، ثم لم يعد إلى الموضوع مرة أخرى. وظننت الأمر انقضى كغيمة عابرة لكنه في الحقيقة لم ينقض أثره ولم يمر وقعه مرور الكرام. شعرت بتغير تدريجي يقتحم شخصي وسلوكي. صرت أعتني بالأشياء، وأبدي ملاحظات قاسية حولها. لم أعد احتمل الأماكن التي اعتدت على زيارتها. أصبحت أفر من مقهى إلى مقهى وأدقق النظر في كل شيء. كانت حالة النادل النظيفة شرطا أساسيا حتى أجلس في مقهى ما أو أرحب بارتيادها. يجب أن يكون النادل في حالة جيدة يقوم بعمله أحسن قيام. يجب أن يكون نظيف اليدين. نعم نظيف اليدين. أن يدرك بضمير مهني عال انه يخدم الزبناء، وعليه أن يعتني بحالته، خصوصا بيديه أو بنظافة يديه. مثلا: أن لا يمسح العرق المتصبب من جبينه، ثم يتناول، بعدها، قطعة السكر. رباه! أتصور حبات العرق تتسرب إلى أعماق قطعة

سكر، فأشعر بالاشمئزاز، وأشعر بمعدتي تقفز من داخلي كحيوان مرعوب. لم أعد أطيق هذه الأشياء حتى من باب الخيال. ولسوء الحظ فقد انتبهت إلى كل هذه التفاصيل التي غابت عني، وتوصلت إلى أن الندل قذرون، أو أن أغلبهم قذرون. إن البذلة السوداء وربطة العنق النقية الأنيقة المنمقة بألوان مبهرة لا يمكن أن تشفع لنادل لا يجد حرجا في أن يمسح العرق أو يتمخط، ويتناول القهوة وقطعة السكر!

وانتبهت في نفس الوقت إلى تفاصيل أخرى مقرفة تتعلق بالبارمانات. وجدت أن بارمان مقهى الفنجان الأزرق يتناول النشوق ويسعل، وينتقل ببساطة وقحة إلى تحضير القهوة أو الشاي. مقرف، مقرف جدا.. بقايا النشوق تطل من ثقوب الأنف القذر أو تلتصق بالأنامل التصاق القراد بجلد كلب. لا بد أنها تسبح الآن في أمواج القهوة. لم أستطع صبرا عما توصلت إليه، فأفضيت بهذه الملاحظات الدقيقة إلى الأستاذ علي. فضحك ضحكة صافية، وقال ناصحا:

– يا صديقي! هذه الأمور معتادة لا يمكن القضاء عليها. إنها إنسانية100 %

وقال لي في قلق:

– ينبغي أن تزور طبيبا.. مرضك غير صالح البتة في هذا المجتمع.

والأطباء قذرون أيضا. لايغرنني ما يبدونه من حرص واهتمام وعناية. إن السماعة ليست غير واجهة تزيينية مثلها مثل تلك الزهور التي تنمق مائدة. النظرات المتفهمة والابتسامة المتدلية كخيط لا يمكن أن تخدع نبيها يتسلح بالشك واليقظة. يكفي أن تزور المستشفى لترى القذارة تغطي الممرات. الإنسان يجر أمعاءه جرا وشبح الموت يتنزه على محياه!

ورغم نصيحة العظم التي تحمل تحذيرا لم أمسك عن تعقب نقاء الأشياء. يا له من مجتمع أصبح فيه الحديث عن النظافة أمرا معيبا شائنا!؟ هل أطلب منه الكثير؟؟ بالتأكيد

لا. لا محيد عن نظافة الخدمة. هي حقي كزبون وفيّ يتردد على المقاهي والمطاعم باحثا عن الراحة النادرة. وإنني إذ أفحص شروطي أجدني، عكس ما يظن بي، متسامحا لا أقف عند التفاصيل موقف الصارم المتشدد، فيمكن للنادل مثلا أن يترك لحيته حرة تتدلى كتيس جبلي، ويمكن أن يدع شاربه ينمو كما يحلو له، بل يمكنه أن يكون متسخ الهندام تعلو قميصه قذارة. شرط أن يكون نظيف اليدين. اليد النظيفة: شرطي الواحد والوحيد ولا أرضى عنه بديلا! مساحة التسامح تسع كل شيء في مذهبي باستثناء اليد فلا تنازل عن نظافتها، وأقول لنفسي كفيلسوف نهل من منابع الحكمة: لقد خلق الله آدم بيديه، فينبغي أن تكون اليد نظيفة!

لكن الأستاذ علي العظم ما يفتأ يذكرني باهتمامي الزائد بنقاء الأشياء، وهو نقاء لا يمكن أن يوفره المحيط الذي أعيش فيه. إن طبيعة الأشياء تقتضي القذارة. كان يقول ذلك فيثير حفيظتي وأعمل على إخفاء هواجسي حتى أبدو طبيعيا. وقد نجحت إلى حد ما، فلا أحد من زملاء العمل، بما في ذلك المرأة الأربعينية، لاحظ شيئا مريبا من ناحيتي. لقد نسوا أو تناسوا حادثة غبار الملفات تماما. وحده العظم لا ينفع معه القناع ولا التظاهر. كان يعرف كيف يقرأ هواجسي بمكر ودهاء. لقد سجل أنني لم أعد أمد يدي للمصافحة. وإذا حدث واضطررت، فإنني أصافح على مضض، وأفر خارج المكتب قاصدا دورة المياه لأنظف يدي. كان حرصي هذا يتعبني، فأقنع نفسي أنني لا اعرف مدى جدية اليد التي أصافحها. هل يداوم صاحبها على النظافة أم لا يجد حرجا في العبث بمحتويات الأنف؟ وكنت أعزي نفسي أني لست الوحيد من شعر بالغثيان غب المصافحة، فنيتشه الفيلسوف عبر عن رغبته الملحة في تنظيف يده بعد مصافحة المؤمنين القذرين، لأنه كان يعتبر الإيمان قذارة معدية.

وقرفي من المصافحة بدا واضحا للعظم حتى أنه ضحك مشفقا. لقد اقتحم المقهى شحاذ يجأر بالشكوى لجلب العطف، وكانت ملابسه رثة ووجهه متغضنا تكسوه علامات عته واضحة. أخذ يطوف على الجالسين، ولا يكتفي بالتسول بل يمد يده مصافحا. توجست منه خيفة بمجرد أن اندفع إلينا. صافح العظم، وانتقل يمد يده القذرة يقصدني. كانت الأظافر غير مقلمة، وثمة سواد يكسو الجلد. حدقت فيه، واعتذرت بتمتمة فظلت يده ممدودة كلافتة لم تجد من يقرأ حروفها المتآكلة.

ضحك العظم وقال:

– هيه. لم أعهد فيك هذا الترفع.. ماذا حدث؟

وقال أيضا:

–يا صديقي! القذارة واضحة في الكون. إن الإنسان حيوان قذر.. وأنت تكلف نفسك!

لم أكن في حاجة إلى من يذكرني بهذه القذارة الواضحة وضوح الشمس، فكل شيء حولي ينطق بذلك. ولعلني أتساءل في الكثير من الأحيان عن سر هذا النقص الحاصل في الأشياء، وأتوجه إلى الله بهذا التساؤل عله يطفئ النار التي تضطرم في صدري بحكمة تنزل على قلبي بردا وسلاما. الكائن الإنساني يتمرغ في التراب. منذ بداية تكوينه وهو يسبح في رحم دموي مظلم، وبعد ولادته يتعثر في مخلفاته وقاذوراته، ويظل أسيرا لهذه البيولوحيا الصارمة حتى آخر يوم في حياته. تبدو القذارة ملخص كل شيء. ألم يكن الأفضل للخالق أن يتروى قليلا قبل أن يباشر العجينة. إن تكوين الملائكة في المقابل ممتاز جدا وينم عن ذوق رفيع في اختيار التصاميم والأشكال. تكوين ينآى عن كل هذه المشاكل. وقد استغرقت في هذه الأفكار أقلبها ذات اليمين وذات الشمال، ولما أدركت شططها وغلوها،

ثبت إلى رشدي مستعيذا بالله، أبرر أفكاري وأخيلتي بطموحي النبيل في البلوغ بالإنسان إلى مرتبة النجوم..

ولم أعد أرى علي العظم إلا في المكتب. أتعبني بتلميحاته ومزاحه المتكرر، فلم أعد أصبر عليه أو أطيقه. انعزلت بدعوى تعب العمل في المكتب، وكان ينظر إلي غير مصدق وكأنه يسأل: هل أنت حقا بخير؟ فأجيبه بابتسامة باهتة وكأنني أقول: لا تقلق! ولم أكن أكذب فيما يخص العمل، بيد أنه لم يكن السبب الوحيد الحقيقي. هناك باعث النظافة الذي لطخ صفاء ذهني، ولطخ شمس يومي بأتربة أجد صعوبة في إغفالها. لقد استنفذت جميع المقاهي الموجودة، ولم أعد أجد الراحة في إحداها، بعد تسجيلي مجموعة من الملاحظات القاسية تتعلق بتفاصيل لا يلقي البال إليها أحد. تفاصيل تتعلق بالنادل، البارمان، نظافة الكؤوس، المقاعد، زجاج النوافذ، الذباب الذي يطير سعيدا... وحتى لا اتهم بالغلو، كنت أركز على اليدين، لأنهما الأساس في أية خدمة. قمت بتدوين الملاحظات بدون ملل في أوراق جمعتها فيما يشبه دفتر، ورتبت المقاهي ترتيبا دقيقا، وكأني بصدد إعداد معجم يتعلق بزلات أصحاب المقاهي، رتبته معتمدا القذارة كمعيار وتصنيف، وتدرجت من الأقذر إلى القذر حتى أيسر البحث على كل باحث يهتم بالنقاء: مقهى القمر، مقهى الفنجان الأزرق. مقهى الفجر. مقهى الأقحوانة... إلخ.

ولم يتوقف بي التصنيف عند المقاهي، فانتقلت إلى المطاعم وحوانيت البقالين والجزارين.. ولاحظت أنهم يشتركون في نفس الصفات والمميزات، فأغلبهم يمسح العرق المتصبب، يدس أصابعه في أنفه، لا يمل من حك قدمه وتناول المنتوج .. وقد يدوس الورق بقدميه ثم يلف فيه الساندويتش. ولاحظت أن هذه الصفات وافرة بشكل كبير في أصحاب المشواة. كنت أندهش من العربات المتراصة على الأرصفة ومن دخانها المتطاير، وجحافل الجوعى تحف بها في لهفة وشراهة، وأقول لنفسي: إن المعدة الإنسانية حيوان

حقا! المعدة الإنسانية تقدم على التهام كل شيء غير مبالية. ولعل حاوية القمامة أفضل نعت يليق بها. وذيلت تصنيفات المعجم ببعض الأمثلة التي جلبتها طرية من الواقع. ومن الأمثلة التي سجلتها وأنا أمسك بمعدتي مخافة أن أقذفها قرفا: فتى يشتغل في مطعم متنقل. كان نابت الذقن، لحية قصيرة وبلاهة في العينين، قذر الملابس، تراه ينتقل من هنا وهناك، ويعكف على تجهيز رقائق البطاطس، ومن حين لآخر يمسح أنفه. كان وجهه كالمشواة، ولا يختلف عن قذارتها في شيء. كنت أعجب أيما عجب من هذا الكائن، وأبحث عن الحكمة الجليلة في خلقه وإخراجه من العدم!

وحدثني علي العظم من خلف مكتبه ذات صبيحة. طرح ما بين يديه من ملفات ومد ذراعيه إلى الأمام فيما يشبه التثاؤب، وقال:

–غبت كثيرا ولم تعد تهتم بالأخبار!

كان يحثني على الكلام. تظاهرت بالانشغال دافنا رأسي في الأوراق الكثيرة. لم أنظر إليه خوفا من أن يكشف زيف برودي. كان اهتمامي بالأخبار يكاد يشرئب كعصفور خجول من أصص قلبي، كنت أسترق السمع والبصر. ولما لمس مني ما يشبه عدم الاكتراث، عاد يقول:

– تعرف!

رفعت رأسي إليه بتثاقل، فغمز بعينه مبتسما:

–ظهرت قهوة جديدة!

خبر مثل هذا لا يمكن أن يعتبر خبرا. تخيلت زملاء العمل ينظرون إلينا في سخرية. جو الاهتمام بالشغل ليس سوى قناع يخفي وجها ساخرا!

سألت بحذر كمن يسأل عن بضاعة الحشيش:

– أين؟

– مقهى الوردة الملكية. مقهى أنيق في شارع ممتاز يغلفه الهدوء. تعرف شارع الأطلس؟ ما رأيك هذا المساء؟

فأجبت بجفاء:

– لا!

وعدت إلى دفن رأسي في الملفات وعاد إلى شغله متنهدا. لم أكن أرغب في إظهار ما يترجم مشاعري، خصوصا وأن كلامه يخفي تلميحا أو على الأقل يحمل مسحة هزء أو هكذا تخيلت. كانت مشاعري تضطرم شوقا، فمنذ وقت، ليس بالهين، لم أجلس بمقهى هادئة نظيفة تليق بي، وتستسلم لشروطي. انخرطت في عزلة قسرية في البيت، ولم أعد أخرج مساء. لكن يا له من اسم! الوردة الملكية. مقهى جديد حقا في شارع الأطلس. شارع يمتاز بهدوئه ويخلو من ضوضاء المشاة. والاسم! الوردة الملكية. اسم منتقى بعناية يدل على الجلال والوقار!

وإن التظاهر بالعمل لم يستطع كبح الفضول الذي لازمني طوال الساعات التي قضيتها في المكتب. كان علي العظم قد نسى الحكاية برمتها، وغرق في شغله. كانت همهمات وكلمات توزع هنا وهناك. مقهى الوردة الملكية! ترى هل ستحقق المأمول أم تنضاف إلى حسرات المقاهي السابقة؟ هل ستجد لها مكانا في معجمي السري؟ هل تكون قذرة أم أقذر من سابقاتها؟

لم أهدر الوقت. في المساء توجهت إلى العنوان الذي ذكره العظم. كان شارع الأطلس قليل المشاة. السماء خريفية تتميز بصفاء أصفر شاحب. رأيت المقهى الجديدة متألقة. الشيطان علي العظم لا يكف عن التقاط الجديد. تخوفت من أن يكون قد سبقني إليها، ويمطرني بنكاته، لكن تخوفي لم يكن في محله. وجدت المقهى شبه فارغة مضاءة بإضاءة طفيفة تكشف بعض الرؤوس التي تطل من خلف نوافذها. ثمة لافتة زجاجية ضخمة

تعلوها، مكتوب عليها: الوردة الملكية بالحرف العربي واللاتيني، ولاح روادها القليلون متفرقين كالسحب الرقيقة، لا تسمع لهم همسا ولا لغوا.

وقرب نافورة إسمنتية تتوسط المقهى، أخذت مجلسي. كانت النافورة مزينة بمصابيح ملونة صغيرة، وكانت نوافذ المقهى تطل على ساحة تنتشر فيها أشجار البلاتان الأنيقة التي تضفي على المكان بهجة . أين النادل؟ لا يمكن تصنيف المقهى إلا بعد التعرف على حال النادل، فهو أشبه بالعلامة التجارية لأي منتوج. ولم أمكث طويلا فقد انزرع أمامي شاب نظيف المظهر يرتدي بذلة العمل، حيوي الملامح، تزين وجهه ابتسامة مرحبة، ولا يكف عن الابتسام:

-أهلا أستاذ!

طلبت فنجان قهوة. التفت إلى اليدين البيضاوين، الأظافر مقلمة جيدا ولا تعلق بها قذارة. أنامل بيضاء كجناح البط الذي يسبح في بحيرة زرقاء. تبدو النظافة واضحة جدا ولا غموض يكتنف الخدمة. الفنجان نقي. قارورة الماء. الهواء لا يجرح وجهه ذباب. طلاء الجدران أبيض ناصع. كل شيء حولي ينطق بالنظافة ويعد بأيام جميلة لا يكدر جمالها شيء.

وأصبحت من مرتادي القهوة غير مصدق أني عثرت أخيرا على المبتغى. تعرفت على البارمان، وهو شخص عجوز مفعم بالحيوية. لم أسجل عليه أية ملاحظة مشينة. يختلف كل الاختلاف عن بارمان قهوة الفنجان الأزرق. تذكرت مقهى الفنجان والمشهد المريع الذي اصطدمت به كمأساة باردة في مسرحية سخيفة التأليف! يجهز القهوة، وفي نفس الوقت يدس النشوق في أنفه الأفطس، ويعطس في جميع الاتجاهات. تلوح قطرات قذرة تنبعث من خياشيمه. أنهار صفراء أو خضراء تسيل، فيمسحها بخرقة بالية يدسها في جيب بنطلونه، ويستأنف تحضير القهوة. لا مجال للمقارنة بينهما ولو من باب المزاح!

ونشأت صداقة أو ما يشبهها بيني وبين النادل. أصبح يناديني بالأستاذ أحمد العلاوي، ويعرف كثيرا عن حياتي، وكنت بدوري لا أدع فرصة تمر إلا وأنوه بالوردة العجيبة، فالمكان ملكي حتى النخاع بأناقته وعامليه، ورواده.

والألفة تستمر. المساء الرائق. السحب البيضاء تركض. أصبحت وجها مألوفا في الوردة الملكية. كلما انتهيت من العمل في المكتب، هرعت إليها، كما يهرع العاشق الميتم إلى حبيبته. كتمت عشقي على العظم الذي يبدو أنه نسي المقهى الجديدة تماما، واكتفى بمقهاه القديمة وبغبارها العزيز. كان إعجابي بالوردة يزداد يوما بعد يوم، فوسط القاذورات تبرز الوردة الملكية في كامل أبهتها، تهزأ بما حولها وكأنها معجزة.

وقلت للنادل ذات مرة ضاحكا:

– الوردة الملكية تبقى ملكية.. المكان الوحيد الذي يشعرني بالراحة.

وقال النادل بود:

–مرحبا بك أستاذ!

وأردت أن أفضي بملاحظة صغيرة إلى النادل لا علاقة لها بالمعجم السري الذي ألفته حول الفضائح. فالوردة نقية لا يشوبها شيء، وحاشاي أن أظن بها الظنون. لكن خطر في بالي اقتراح لطيف يمس القلب وينعشه، اقتراح هدفه الأسمى والأنبل: بلوغ الكمال أو إضفاء طابع الكمال على فضاء المقهى الأنيق. لقد لاحظت أن الكثير من المقاهي، التي عرفتها سابقا، تتميز بوجود قط يموء في أرجائها، وحز في نفسي أن تتمتع مقاه رديئة بفضيلة القط، والوردة الملكية أحق بكل فضيلة وامتياز. ولا أدري لماذا اعتبرت وجود القط فضيلة يتحلى بها المكان، ولماذا القط بالضبط؟ أ لأنه حيوان يحوز ثقة الإنسان منذ قديم العصور؟ أليف جدا تشم في فروه اللطيف حميمية وصداقة لم تعد موجودة في زمن الزيف والخداع؟ هو كل ذلك في الحقيقة. كما أن القط كان يتمتع بمكانة أسطورية في الزمن

الغابر. ففي موسوعة تاريخية، وجدت أن بعض الشعوب القديمة كانت تقدس القط وتنصبه إلها في معابدها. يتجول القط المحظوظ الذي اختارته العرافة من بين عشرات القطط في القبيلة، فتنحني له الهامات مبجلة ومعظمة، وتقدم البخور مقرونة بتعويذات سحرية وصلوات حارة تلتمس اليمن والبركة. تخيلت القط يتجول بين كراسي الوردة فشعرت بسعادة غامرة مبهمة يتجول بعظمة، ويموء مخلفا لمسة سحرية على الأشياء. يتمسح بالسيقان، السيقان البشرية أو سيقان الطاولات، يتطلع إلى الزبون بعينيه الغريبتين، عينين مستسلمتين تكاد تتكلمان، وتند عنه أنة كليلة أو مواء غريب ينغرس في قماش الجو كسهم. وليس المواء المبهم إلا كلاما إلهيا مشفرا يدعو إلى التأمل والتفكر. وقلت في نفسي: تحرص المقاهي على وجود قط يؤنس وحدتها. قد يكون مشاكسا ينفض جو الرتابة، وقد يكون سببا في مولد نكتة، وقط الوردة سيكون له نفس الدور وأكثر، لكن ينبغي أن يتمتع بصفات بديعة تجعله يعلو على أي قط سواه. لا ينبغي جلبه من الأزقة كمتشرد جائع. قط الوردة الملكية: قط أوروبي جميل غزير الفرو أبيضه، نظيف تنبعث منه رائحة الصابون والعطر الراقي، يرفع ذيله بطريقة أميرية لا تخلو من زهو وخيلاء، يتجول كأمير نبيل، يوزع نظراته على الزبناء في تؤدة. قط الوردة الملكية يخضع لمواصفات قاسية على رأسها النظافة والتربية. ومن الأفضل أن يسمى باسم أجنبي. كميشو.. ميشو. لكنة سحرية تترك انطباعا جيدا في الروح والنفس!

ولم أجرؤ على الكشف عن الملاحظة سريعا. ترددت. كانت الفكرة تقرص لحم عقلي كبعوض المستنقعات، وكنت أصبر على قضية البوح متمسكا بحبل صبر داخلي يقويه عزم وتريث حتى لا أسيء الأدب مع مكان أحسن إلي في زمن تعز فيه الأمكنة المثالية وتندر فيه.

وجاء اليوم المناسب. كانت العشية شاحبة. ثمة ريح طفولية تهب تحمل عطر الغبار والأشجار. أخذت أفحص الكونتوار الأبيض الذي يتكئ عليه البارمان العجوز وهو ينظر بعينين باسمتين تختلجان. قلت فيما يشبه الهمس: لا يمكن أن أصمت كل هذا الوقت. سأدعو النادل، وننخرط في دردشة صافية كمياه ينبوع قروي. سأخبره أولا عن سعادتي الجمة التي لا تقارن بشيء آخر، والتي تسمو على سعادة النجوم والمجرات، ثم بعدها أتحدث عن القط الأميري الذي سيسِم المقهى بمهابة لا مراء فيها.

ودنا النادل حتى كان على بعد خطوتين أو ثلاث. وحين هممت بمناداته برز رجل بحركة مفاجئة في المشهد ليحجبه عني قليلا بهيكله البسيط. كان رجلا عجوزا اشتعل رأسه شيبا، يرتدي بذلة قديمة ويمسك بيمناه دستة من الأوراق. شرع يكلم النادل بعبارة: يا ابني. ويا ولدي..! ويبدو من حركة جسمه واضطراب يديه أنه يبحث عن شيء أو يستفسر عن معلومة، ولم يجد من ملاذ سوى النادل الخدوم البشوش. توقف الشاب باحترام يصغي إلى العجوز الذي كان منفعلا تضيق حدقتا عينيه، ويحرك يديه في الهواء هاتفا بصوت ممزق:

-لكنهم أرشدوني إلى الأطلس. قالوا لي: ثمة لافتة. لكنني لم أجد لافتة تشير إلى المكان المقصود!

وقال النادل:

- لديك العنوان في الأوراق.

تنهد العجوز كاليائس:

-أووووف..

- اسم المهندس: أحمد الجوطي.

تساءل العجوز كالأصم:

– ماذا؟ الفوطي..

– ألج.. .. جيييييم

أحتسي القهوة، وأنتظر نهاية الحوار البائس الذي ينم عن سعة خاطر وسوء فهم عميق لست أدري علته: النادل، أم العجوز أم المهندس نفسه الذي لم يعتن منذ البداية بكتابة اسمه جيدا، وبتصفيف حروفه حتى لا تحدث لغطا وصعوبة؟ كانت الكلمات تتناثر كرذاذ نافورة عتيقة ترش العابرين. اللافتة زرقاء كسماء نادرة الوجود انتصبت في الشارع حتى ترشد الزائرين.

شارع نظيف يمتلئ عن آخره بأشجار البلاتان الشامخة. ثمة زرقة وخضرة تتآخيان بمودة. أعرف العنوان حق المعرفة، وربما اصطدمت باللافتة أيضا، لكنني لم أعرها اهتماما. يبدو أن العجوز يعاني من صمم جزئي، والشاب الكيِّس ينفد صبره.

قال مكررا:

– انه الجوطي.. وليس الفوطى.

وقال العجوز محاولا التذكر والاستيعاب:

– الفاء.

وقال النادل بصوت قوي:

– الجوطي..

وقف العجوز محتارا. مسح أذنه اليمنى من غبار الزمن ونفايات السنين، وحاول النادل أن يعينه ما أمكن بتهجية الحروف بشكل بطيء:

–الج. و. ط. ي

ولما لم يجد استجابة من العجوز، انحنى بعصبية واضحة على طاولة بجواره بدت له كالحل الأخير. كانت أشجار البلاتان واجمة من خلف النوافذ. ماذا يفعل؟ دس أصبعه في فمه يبلله بطرف لسانه ثم أخذ يكتب وهو يردد:

– جيم وليس فاء!

أصابني رعب أمام ما فعل. لم أنتظر أبدا مثل هذا الشرح القذر والمباغت الذي يقترب في مظهره من خرقة مومس شائعة جدا تضاجع العالم بأكمله. يظن نفسه يحسن صنعا. رباه! اللعاب حبر. تصورت مشهدا مرعبا يمر كشريط بطيء أمام عيوني، يمر صادما وكأنه وقع بالفعل، ووقفت إزاءه مثل متفرج سلبي لا أحرك ساكنا. هذه الأنامل ستتناول الفنجان، ستتحسس حافة الفنجان، ستتناول قارورة الماء، كأس الماء، ستتناول قطعة السكر! سيتسرب اللعاب إلى أعماق قطعة السكر، وسيستقر هناك كالمياه الجوفية التي تتسرب إلى باطن الأرض. وحتى إذا ما جف اللعاب، هب هذا اللعاب قد جف واختفى، كيف للمعدة الأنيقة التي تتباهى بسمو ذوقها أن تستقبل العفن البشري؟ النظافة. الخدمة الأنيقة. طلاء الجدران.

الكراسي المرتبة ترتيبا أميريا والابتسامة الشفافة. هل تبخر كل شيء، ولم يعد له وجود إلا كذكرى خادعة؟ الأيدي النظيفة كريش البط. أين كل هذا! يا له من رعب! تمنيت لو كانت لي قدرة سحرية تمكنني من التسلل إلى مخيلتي كعفريت لإيقاف الشريط أو تمزيق اللقطة المشؤومة، لكن من أين لي هذه القدرة؟

ولم أدر ما حدث بالضبط. زمجرة كرسي يتزحزح. انتبه الرواد جهتي متسائلين عن سبب الحركة العنيفة. وأظنني قمت. انتبه النادل إلى حركتي المباغتة، واعتدل العجوز الذي كان يحاول بعينيه الكليلتين أن يقرأ الكتابة الطفيفة على الطاولة. بدت وقفتي متشنجة.

رمقت النادل بنظرة قاسية لم يعرف سببها، فاعتذر ببلاهة كروبوت لا يفقه شيئا. فحصته جيدا، وفحصت الطاولة التي استقبلت لعابه. لن يجف اللعاب حتى ولو مرت سنين عدة. هو مثل دم جريمة وقعت في وسط النهار وأمام المارة! أحسست بما يشبه الغثيان يقتحمني، عاصفة في أمعائي تستيقظ. صرخت في وجهه وفي محدثه غير مكترث. جنون استبد بي:

– اللعنة عليكما وعلى اللافتة وعلى المهندس وعلى حرفي: ج. وف... وعلى جميع حروف الهجاء!

غادرت الوردة الملكية كأني أفر!

# المحتويات


| | |
|---|---|
| الدّكتور مُور | 6 |
| الطابور | 40 |
| شارعُ السّماء | 53 |
| سؤال أزرق | 64 |
| جراب الفرحة | 77 |
| الجريمة قد تطل من الكأس | 88 |
| القبو | 105 |
| رسائل غريبة | 124 |
| ابتسامة | 138 |
| نجمة الغياب | 145 |
| ذكرى على الرصيف | 152 |
| كلمة عزاء | 160 |
| الحقيقة ليست عارية | 170 |
| الوردَة المَلكية | 189 |